شاكر الأنباري

# ليالي الكاكا

روايات

٥

٣

سلسلة كتب تصدر عن

**دار المدى للثقافة والنشر**

رئيس مجلس الادارة والتحرير

**فخري كريم**

**الهيئة الاستشارية**

- فؤاد التكرلي
- اسماعيل فهد اسماعيل
- هدى بركات
- واسيني الاعرج
- عبده وازن

**الاشراف الفني**

- محمد سعيد الصكار

**الاشتراك:**

٦٠ دولار في البلدان العربية

١٠٠ دولار في اوروبا والامريكيتين

**العنوان**

سوريا - دمشق صندوق بريد: ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦

تلفون : ٢٣٢٢٢٧٥ - ٢٣٢٢٢٧٦ - فاكس : ٢٣٢٢٢٨٩

كنت اغار على خالتي غيرة عمياء . لقد احببتها ، أولا لأنها جميلة ، اجمل من كل نساء قرية الحامضية ، وثانيا لانها كانت تعاملني بلطف الانثى ورقتها وهذا ما لم اعتد عليه . ذات يوم همست لامي وكنت اعتقد انها حكيمة ، ان خالتي جميلة لها علاقة بقريبنا رحمن . حدقت امي الي بعينين تتوهجان نارا ، وطلبت مني اغلاق فمي ، فجميلة عندها زوج والامر لا يخصني . هل سكت انا ؟ كلا . لماذا فعلت ذلك وبحت بالسر ؟ امر ربما يتعلق بالغيرة . فثمة رجل غير عمي نال من خالتي . كيف يمكن ان يمر الامر بسلام ؟ وهل ان ما اراه من وئام بين اقربائنا هو حقيقة ؟ ولم يمر الا يوم او يومان حتى رحت الاحظ ان جميع اقاربنا راحوا ينظرون الي نظرات غير طبيعية . نساء اخوالي رحن يتحاشين الكلام معي . امي لا تبادلني الحديث . ابي كف حتى عن القاء التحية علي . بعدها لم يعد يرد تحيتي حين اجيء الى البيت في الاجازات . لابد ان امي نشرت الخبر . اما خالتي جميلة فقد تغير حالها تماما . اصبحت احس نفسي منبوذا تماما ، وهذا ما جعلني استقر مع صديقي حلمي في ذلك الفندق القريب من نهر خريسان ، ولا ازور اهلي الا نادرا .

لم اخبر حلمي عن ذلك ، مع انه كان يلاحظ سهومي الطويل ، والالم الذي يعتصرني . فالقضية تدخل في خصوصيات العائلة . وكلما سألني عما يشغلني القي اللوم على الحرب ، والجو الخانق الذي نعيش فيه . وجدت الخمرة خير تسلية لي ، فهي تغبش عقلي وتجعله يغوص في ابخرة الاحلام . تختفي القرية ، وجثث القتلى ، وحاجاتي الجسدية ، وذكريات الغجر . لا يبقى سوى ذلك الحلم الوردي ، حلم الهروب الى مكان بعيد . هذا دون ان اعرف كيف ومتى وأين .

كاكا طه ، صاحب الفندق ، رقد منذ فترة طويلة على غير عادته . يبدو انه لم يصطد احدا هذه الليلة .

مدينة بعقوبة هادئة ايضا ، رغم اصوات شاحنات لاتنقطع تسير نحو الشرق . انا وفتى كركوك ، كما اطلقت على حلمي في سري ، وسط هذه الغرفة الكئيبة . الحرب لاتنتهي . اصبحت في المدة الاخيرة مثل كرة من نار ، تهوم في الفضاء . لا احد يعرف متى ستضربه بجحيمها . لا بصيص امل للخروج من هذه الدوامة . هذا السيرك الملعون الذي نصبه لنا سياسيون وعسكر وشيوخ عشائر وقبضايات متعطلون ، لا يفكرون . راودتني احلام كثيرة ، بعضها مغرق بالخيال . رحت احلم بالمضي خارج البلد ، الى مكان ناء ، جزيرة محاطة بالمياه من كل جانب ، يقطنها بشر لايتكلمون اللغة العربية . اتعلم لغتهم واعيش بينهم ، وانسى المدافع والطائرات والجثث والبلاغات الحربية والاوامر والسواتر الترابية والانتصارات والهزائم ، والجرائد المعبأة بالصور . انسى كل ماينتمي الى هذه اللغة التي اسمعها يوميا من الاذاعة والتلفزيون والركاب والجنود والفلاحين المغلوبين على امرهم . زادت حدة الهجمات على جبهة الحرب . تكاثر القتلى والجرحى . تحولت الحياة ، في المدن والقرى على حد سواء ، الى معسكر ضخم . كل شيء للجيش . الصناعات والمصالح سخرت وقودا للحرب . هذا ما دعا الحكومة الى اصدار قوانين صارمة تحكم حياة المعسكرات . الاجازات اصبحت قليلة والبقاء في المعسكرات امر لابد منه . حرمت

اخيرا من المبيت في بغداد . البقاء في بعقوبة اهون لي من جبهة الحرب ، على اية حال .

اصبحت معتادا على سكر حلمي اليومي ، فهو يعيش حياة عابثة . يمكنه الحديث مع اي كان وحول كل الأمور . حسدته على الجرأة والطلاقة اللتين افتقدهما . ابناء المدن دائما اشجع من ابناء الريف في هذه الامور .استغربت من اسئلة حلمي المتكررة حول الزواج والمرأة والسياسة .

منعوا الاجازات فاقترح علي حلمي السكن معه في الفندق ، وهو كائن وسط بعقوبة ، ليس بعيدا عن نهر خريسان المار وسط المدينة . لماذا تتعب نفسك يوميا بالذهاب والاياب الى بغداد ؟ وذاك زمن انشغلت فيه الاذهان بالبيانات العسكرية والقوافل والدبابات والاجازات . الجنود اغرقوا انفسهم بالبيرة والعرق والبحث عن النساء تعويضا عن جفاف الحياة . تأثرت طبعا بما يجري حولي ، الا ان اهم ضربة وجهت لي هي ما اكتشفته في خالتي جميلة . هذا الاكتشاف اضطرني الى ان اهجر الحامضية غير نادم . لم اعد اطيق مخالطة الأهل والاقرباء . قررت عيش الحياة مثل حلمي . دون هدف محدد . اصبح انيسي الوحيد في بعقوبة ، والمعسكر الذي اخدم فيه . حين تحل المصائب تحل دفعة واحدة كما يقال . حرمت من المبيت في بغداد ، وتركت اهلي بسبب خالتي .

* * *

بيت رحمن يقع مواجها لبيت عمي . كان رحمن يعيش مع امه حبسة . تزوج منذ سنتين من مصيبة ابنة قرحة . كان يأتي كل خميس من عمله ، فهو يشتغل سائق جرافة في بغداد . ولأنه وحيد امه لم يذهب الى الحرب . دبر استثناء له وظل في عمله . اول مالاحظت الامر ان خالتي تتزين بشكل غير طبيعي في الخميس . وتظل تخرج الى الفسحة امام بيتها لمراقبة الطريق . تخرج كل ربع ساعة تقريبا .

لاحظت ذلك وانا في مضافتنا مستلق على تخت الخشب . بعد ساعة من ذلك اليوم الذي نمت فيه هواجسي ، حدقت الى بيت حبسة فوجدت رحمن واقفا في الباب لابسا دشداشة بيضاء . كانت خالتي واقفة في الفسحة متشاغلة بعمل شيء ما . جذب انتباهي بعض الاشارات المتبادلة بين الاثنين . سلامات من بعيد . اشارات غير طبيعية . وبعد دقائق مر رحمن ماشيا واتجه الى بيت خالتي . وكان لبيت خالتي بابان ، واحد يطل على بستان النخيل وآخر يواجه بيتنا . دلف رحمن من الباب المواجه لنا واغلق الباب . في البداية لم اشك بشيء . مضيت الى غابة النخل ، مهموزا بغيرتي . وجدت الباب الثاني مغلقا ايضا . قلت لنفسي ان اولاد خالتي في الداخل وهذا يعني انهما ليسا وحيدين . لكن ما فاجأني هو انني وجدت اولاد خالتي كلهم يلعبون بين النخيل . من تلك اللقطة السريعة بدأ الشك يساورني . لم انم ليلتها .

هل يمكن ذلك ؟ خالتي جميلة زانية ؟

رحت استعيد في ذهني مواقف سابقة عن علاقة رحمن بخالتي . اشغلها مثل فلم ، بسرعات بطيئة ، وافسر كل حركة واحاول البحث لها عن سبب . حين توظف المواقف الصغيرة من اجل هدف اكبر تكشف عن مدلولاتها الحقيقية التي كانت غائبة . او حين تربط التفاصيل بعضها مع البعض الآخر تتوضح الصورة . كانت خالتي جميلة كريمة جدا مع حبسة ام رحمن . لطالما رأيتها تهديها دجاجة من تلك التي يجلبها عمي المقاول حين عودته من المدينة . او تسرب لها اعطيات من الفواكه والملابس والهدايا . تعاملها معاملة خاصة . لاجل ماذا ؟ كما كانت خالتي غير ودودة مع مصيبة زوجة رحمن . تتفاداها بأي شكل . استرجعت ايضا ليلة اخرى . مجموعة صور قديمة لم اتأملها سابقا بهذا العمق . كنت اسقي اشجار الرمان القريبة من البيت ، حوالي العاشرة مساء . كان الوقت صيفا ، ورحمن يجلس مع عائلة عمي . كان عمي غائبا في بغداد . كان رحمن يجلس على كرسي ولم اكن اسمع ما يدور من حديث . هناك اولاد خالتي ايضا يجلسون او يدورون في الفسحة .

وقفت تحت شجرة رمان ورحت اراقب المشهد الذي امامي . خالتي رأيتها من بعيد تجلب الشاي او الفواكه وتلف وتدور وهي تتكلم مع رحمن . تجلس قربه احيانا في الارض او على كرسي شاغر . وفي لحظة خاطفة رأيت يد رحمن تمس مؤخرة خالتي المارة قربه . في حينها لم افسر الحركة هكذا . اما بعد ذلك فجاءت تفصيلا مهما لصورة الزانية التي رسمتها لخالتي .

كانت شكوكي تتوهج ما ان اجيء الى القرية . اما حين اكون في المعسكر فأكاد انسى الامر برمته . اذ رحنا انا وحلمي نتحدث عن امور حميمة اكثر من السابق . الغيت فكرة الزواج والبحث عن الثراء ، بعد ان طالت الحرب واصبح السلام حلما بعيد المنال . اخبرت حلمي طبعا برحلتي الى الفوّار ، مدينة الغجر ، وقصصت عليه التفاصيل . لكن مشكلة خالتي جميلة ، التي كانت تعصر قلبي دائما لم اثرها لاحد . قال لي حلمي ان لذة الغجر ليست بالمضاجعة ، ولكن بأجوائهم التي توفر الرقص والنظر الى الاجساد وهي تتلوى والموسيقى . اما المضاجعة فيمكن للرجل ايجادها في المواخير ، وهي لذة قصيرة سرعان ما تزول . لذلك كان الليل ملكي . اغوص قبل ان انام في لجتي الخاصة ، التي تقودني الى عالم خارج الواقع . خارج الحرب والضجيج اليومي والافق المسدود وخالتي جميلة ونظرات ابي الصارمة . عالم مصنوع من مشاهد فاضحة تتعانق فيها الاعضاء من افخاذ واعضاء جنسية لنساء وشباب وحيوانات وطبيعة . عالم استمناني الحر كما سميته ، الذي اعاقره بشوق كي يقودني الى متاهة النوم . وهذا ايضا كان من اسرار روحي التي كتمتها عن الجميع ، بمن فيهم حلمي ، رغم الحميمية التي ربطت مصيرينا .

بدأ معي هذا العالم السري ، والشخصي جدا منذ ان بلغت المراهقة . لم يفارقني لا في القرية ولا في المعسكر . وكثيرا ما خضت فيه في فندق محمود ايضا ، حتى حين كنت انام على السطح في الصيف ، محاطا بالاسرة واليقظين من عمال مصريين وعراقيين جاءوا من

مدن بعيدة . كان يمثل لي واحة حرة اهيم فيها دون رقيب . وفي مجتمع صار يحصي على الانسان انفاسه ، اصبحت تلك الواحة رئة وحيدة للحياة .

اي امرأة عرفتها يمكن ان تصبح مادة لخيالي . وكثيرا ما استحضرت قرحة او ابنتها كتبة او قريباتي ، خاصة من ذوات المؤخرات العريضة . مرة قدت رحمن الى خالتي جميلة وسط غابة النخيل . جعلت الظلام دامسا وجعلت خالتي تئن من اللذة وسط ذبالات المصابيح البعيدة وعواء الكلاب . استحضرت ايضا قصصا جنسية كان جدي يحكيها ، او تحكيها نساء القرية عن الاعضاء الطويلة والنساء الشبقات والمواقف المثيرة التي حصلت . وذات يوم وقفت في حقل الباميا القريب من مضافتنا وراقبت خالتي وهي تلتقط الخشيش من حقل الذرة . تلبثت مسحورا امام مؤخرتها الهائلة ، وذلك الشق المرتسم في جسدها . كانت تلبس ثوبا ناعما ، يجسم كل اعضائها . ومن الخلف تبرز ساقاها البيضاوان السمينتان ، حتى هوة الركبتين . منظر مثير جدا . انحناءتها كانت مبالغا فيها ، حتى كدت احس انها تتعمد ذلك كونها لمحت وقوفي في غيضة الباميا . لم لا ؟ فالنساء يمتلكن ملايين العيون . انهن مثل العناكب . لم املك نفسي ، مددت اصابعي وغصت في لجة روحي خارج اشجار الصفصاف والنخيل ونداءات الديوك واجراس الماشية . لم يبق امامي الا ذلك الوادي العميق المنفلق على بعد امتار مني .

في فسحة الاستمناء تلك اصبح حرا ، اشكّل العالم مثلما ارغب . اتخلى عن تحفظي الذي عرفت به منذ الطفولة . وكان لدي قوة تخييل لاتصدق . حين افكر بالجسد الذي استمني عليه استطيع تجسيده امامي كما يحصل في شاشة السينما . اشم الروائح واضع الحوارات المثيرة والاصوات والالوان ، وهذا ما جعلني افكر مع نفسي انني كليّ القدرة احيانا ، مبدع وخالق . حالاتي تلك كانت تتكرر كل يوم . لااستطيع اغماض جفني حتى اتخلص من سوائلي تلك . يتوتر جسدي ، تأخذني خيالاتي الى جوهر الحياة الخالد الذي لايمكن دونه استمرارها . الجنس ،

اللقاء بين ذكر وانثى ، افراغ الروح من توترها والشعور بتعب العضلات والاعصاب . عندها اصبح قشرة ناعمة ، تحتاج الى الراحة . اصبح خواء ، اكاد ان اقترب من الموت . وهكذا عند كل صباح ، ما ان افتح عيني حتى اظن نفسي وقد ولدت من جديد . احدق الى الاشجار ، الشوارع ، الناس الذين اعرفهم ، الرمال ، الشمس في الفضاء . اتعجب من انها لما تزل موجودة ولم تنمحق او تتغير في يومي الطازج هذا . حتى وجه حلمي اشعر به غريبا عني ، كما لو كان هابطا من كوكب بعيد . لااصدق انني ظللت حيا وسانطلق مثل غيري الى طرق الحياة المتشعبة التي اجهل نهاياتها . وثمة احساس يعيش في داخلي ، لم يفارقني اطلاقا ، هو ان هناك حياة مختلفة غير التي اعيشها ، وعلي ان افتش عنها .

اقول دائما لنفسي : ثمة طريق يقود الى خارج البلد وعليك البحث عنه .

كان الهاجس ذاك نداء سريا ، منبعثا من بؤرة عميقة في جسدي وروحي .

لم اتوقف ، ولا يوما واحدا ، عن طبيعتي الاستمنائية تلك . ارى التوابيت القادمة من جبهة الحرب في النهار ، واستمني في الليل . امضي الى القرية ، اتجول في طرقاتها ، افلح الارض ، اراقب خالتي جميلة خلسة ، ارتقي النخيل ، ازور الاقرباء ، الا انني لاانام الا بعد ان ادخل عالم الحرير ذاك . وهذا ما كان يشكل لي كابوسا على الدوام . لااجد لحياتي اية مسحة من النبل ، مادام ليلي ينتهي في خضم تلك الحمأة . انظر حولي فلا اجد ما يشير الى الخلاص . امامي طريق واحد هو الزواج ، لكن السير فيه جنون مطبق . في الفندق انتظر حلمي حتى ينام ثم اتجرد من ملابسي السفلية . اغوص في كتلة من الافخاذ والعانات والمؤخرات ، لوجوه اعرف بعضها وتغيب اخرى . اما اكثر ما استغربه في حالتي تلك انني استحضرت ذات مرة مشهدا فاضحا لحمارة

ورحت اضاجعها . كيف اجترأ خيالي على المضي الى هناك ؟ في الحقيقة سمعت القصة من ابن عمي . رواها بشغف ، في حقل القمح قبل الحصاد . كل ماتذكره من القصة ان تلك الحيوانة استمتعت بما كان يقوم به ابن عمي . وقد قص علينا ، نحن الصبية ، تفصيليا ما كانت تقوم به من حركات تعبيرا عن ذلك الاستمتاع . لم نستغرب ذلك ، كنا ندرك ان الشباب الذين يتركون مجلس الغجر ، وهم مستثارون عادة من رؤية الاجساد النسائية وشم الروائح الفاغمة ، سرعان ما يمضون الى اقرب انثى . انثى من نوع آخر ، لاتبوح بالسر ولاتصد طالبا . وكن كثيرات ، في الحقول والمراحات وعند السواقي ، وسائبات يلتقطن العلف تحت ضوء القمر .

* * *

هل انا شخص شاذ ؟ لا ادري . من الصعب وضع حد فاصل بين ان تكون سويا او لا . ليس هناك مرجعية فلسفية او فكرية او حزبية او دينية تبت بالأمر . كثيرا ما تمنيت ان اكون في محل كاكا طه ، صاحب الفندق وهو يصطاد الجنود الصغار في اواخر الليل ، وكنت اسمع الهمس واستثار . انا بحاجة الى آخر امارس عليه فحولتي . لايهم ان ادفع النقود ، وهذا ما جعلني اصبح مهووسا بالعاهرات والغجريات ، اما علاقة طبيعية مع امرأة او فتاة فهي امر بعيد المنال . مجتمع يقودك من عضوك الى الزواج ، مرغما . اذ لا طريق آخر . هل يمر حلمي بأزمات داخلية مثل ازماتي ؟ وماذا عن اصدقائي الآخرين وأقراني ؟ ثم هل يستطيع الانسان ، مهما انشغل بأمور هامة ان ينسى حاجات جسده ؟

كنت وحلمي نخرج من المعسكر عند الساعة الثانية ونمضي الى بعقوبة لتناول الغداء في احد المطاعم ، ثم نعود الى المعسكر . نبقى فيه حتى السابعة او الثامنة حيث يصرفنا العقيد طالب ، وكان رجلا من اهل بعقوبة اهم ما يميزه حبه للنساء وانفه المتآكل بعض الشيء . وكثيرا ما كان يجلس معنا يحدثنا عن مغامراته في المغرب ولبنان ، مع النساء

خاصة . نجلس في غرفته الواسعة مثل اصدقاء ، باعتبار اننا جميعا خريجون مثقفون ولا فارق في الرتبة . وفي الاماسي الصيفية كنا نضع كراسي امام البناية في الحديقة ونتبادل اخبار الحرب وما تقوله الاذاعات واخبار النساء والخمور . نحصي الدبابات المارة الى الشرق ، ونحصي التوابيت والمدافع والصواريخ البعيدة المدى ، كل ذلك تحت غيمة سديمية من البق الذي كان يلسعنا في اماكن من اجسادنا نستغرب كيف يصلها .

توطدت ايضا ، معرفتي بحلمي ، فتى كركوك ، بعد ان توغلت فيه بهدوء . اخبرني مرة ، وكنا نحتسي البيرة في البار المطل على النهر ، انه عاش حياة الجبال وأوشك ان يقتل اكثر من مرة . فبعد سنة واحدة من دخوله كلية الهندسة في جامعة السليمانية ، قامت ثورة البارزاني ، والتحق الآلاف من الشباب في الثورة المشتعلة في الجبال ، من اطراف دهوك الى السليمانية وكان حلمي واحدا منهم . ودع المساطر والفراجيل وآلات القياس ، المساحة والرياضيات والطالبات الجميلات وغاص في دروب الجبل . بنى المقرات ، استلم حراسات ليلية ، اقام الكمائن ، اكل الحشيش وتين البر ، ونام في مغاور وكهوف . نزل بيان الاستسلام كما سماه ، نزول الصاعقة على روحه . لقد انتهت الثورة . غدر بهم شاه ايران . ورماهم مثل حذاء عتيق . فما العمل ؟ قال انهم انزلونا مثل الخراف بشاحنات كبيرة الى السليمانية ، بعد ان صدر العفو الحكومي عنا . خمسة ايام من الاستجواب في دوائر الامن . وقّعونا على اوراق تحكمنا بالاعدام ان نحن تورطنا في السياسة مرة اخرى . وهكذا سمحوا له بمواصلة الدراسة ثانية . مرات اتساءل ان كان هذا هو السبب الذي يجعل حلمي قليل الاكتراث بالاشياء الصغيرة والعلاقات العادية التي لا تصل الى الخطوط الحمر ؟ الأن ثمة جرحا عميقا في روحه هو الذي يداويه بالخمر والعبث والضحك والغموض احيانا ؟

– سآخذك الى مخيم الفجر قرب السعدية ذات يوم .

قال لي حلمي وحدست انه مهموم بجسده ايضا . خفف ذلك ، بعض الشيء ، من تساؤلاتي حول تفردي وشذوذي . يوما ما سأحاور حلمي عن كل هذه الامور .

ما ان يعود حلمي الى الفندق مساء، حتى يجلب قنينة العرق ويدلق قليلا من اللبن ويصنع سلطة ثم يجلس على سريره ويضع الطاولة أمامه . عيونه حادة ، شعر رأسه كث ، شارباه حليقان ، ضحكته عالية مجلجلة ، روحه يشوبها الغموض . ذلك الغموض هو الذي جذبني . كان يسافر كل خميس الى بغداد ، يمضي الجمعة هناك ويعود صباح السبت الى المعسكر . اين يذهب ، وبمن يلتقي ، وماذا يفعل ؟ كان يتجنب الخوض في الاحاديث السياسية ، ويسخر من كل فكرة جادة . صحيح انه من مدينة كركوك ، لكنه لم يتكلم يوما عن طفولته او شبابه ، حتى دراسته الجامعية يتجنب الخوض في تفاصيلها . درس في جامعة السليمانية ، وهذا كل شيء . هل احب فتاة هناك ؟ هل تعرض الى مشاكل سياسية بعد نزوله من الجبل ؟ هل ينتمي الى حزب ما بشكل سري ؟ قلت لحلمي في احدى الليالي ، وكنا سكارى تقريبا :

– لقد تعبت من هذه الحياة واحلم بالعيش في جزيرة نائية . ربما في افريقيا او في اوربا ، حيث لا اسمع لغتنا . جزيرة يحيطها الماء وتزورها السفن بين حين وآخر . انه مجرد حلم .

– لماذا في جزيرة ، وليس في قرية جبلية مثلا .

صمت . سمعت عما يدور في الجبل . سمعت نتفا من الكلمات عن المسلحين والقتال الدائر بينهم وبين الحكومة . كان بعض الاصدقاء يروونها نقلا عن اشخاص آخرين مضوا الى هناك وتخلصوا من مطحنة الحرب التي تدور في الوطن . لم اجرؤ على الخوض جديا بقضية الهروب والمضي الى الجبل . فالجبل لغة غامضة لها اكثر من دلالة . احيانا تأتي على شكل رصاص وسلاح ومفارز وعصابات قتل ، واحيانا على شكل افكار نيرة وثورات تريد تغيير النظام وتحرير المدن بالقوة . هذا ما كان

يذكرني بجيفارا وكاسترو وهوشي منه وماوتسي تونغ . الجبل دروب سرية وكمائن واشجار بلوط ونيران موقدة في رؤوس الجبال ، تعطي اشارات الى اشخاص مختبئين في كهف او غار او فج . تلك الحكايات كانت تتردد بهمس في البارات والمقاهي والبيوت والجلسات الحميمية بين الاصدقاء . لكن هل امنح حلمي الثقة المطلقة ؟

– لافرق لدي . المهم هو الخلاص من هذه العلبة . النفاذ بالجلد كما يقال . ارغب بمكان خارج القوانين والأوامر ، ويكون الانسان فيه حرا كي يختار اسلوب حياته .

– لكنك ناعم ولا تحتمل عيش الجبال .

– من الخارج فقط ، اما في الداخل فأنا صلب مثل صخرة . لقد تربيت على التمور واللبن الرائب والبصل الاخضر ونهر الفرات والشمس . انا لست ابن مدينة كي اكون ناعما . اختبرني ؟

جاء كلامي بين التحدي والمزاح . كنت اريد الوصول الى مكامن حلمي وسبب اسئلته .

– في الاجازة السابقة سافرت الى اقربائنا في القرية . انها لاتبعد سوى عشرين كيلومترا عن السليمانية . قرية بين الجبال . انها مكان مثالي للعيش . الشيء الذي اثار استغرابي وجود اكثر من عشرة هاربين يعيشون هناك . يلعبون الكرة الطائرة ويتسلون بالصيد في السفوح ويقضون ايامهم بقراءة الكتب وجني الثمار من البساتين الجبلية .

– الا يطاردهم الانضباط العسكري ؟

– اي انضباط عسكري ، وهل يستطيع احد الوصول اليهم . انهم خارج سيطرة السلطة . بين الحين والآخر يزورهم رجال مسلحون يدعونهم البيشمركة . بعضهم له اصدقاء بينهم . كانت زيارة ممتعة .

سكت حلمي واغمض عينيه وبدا انه ثمل قليلا . فكرت بما قاله

حلمي عن تلك القرية . انها قرية مثالية حقا ، يمكن ان يعيش فيها المرء بعيدا عن الحرب . لكن ماذا عن اللغة ، هل يتكلمون العربية ، ام الكردية فقط . تلك معضلة . شعرت ان سرا ما بدأ يربطنا ، واصبحت لصيقا به . في المعسكر وحين نمضي الى المطعم ، وعند الخروج الى المدينة للمشي على ضفاف خريسان ، مخترقين بعقوبة العتيقة نحو الريف . بساتين الرمان والبرتقال والعنب ، والقرويون الذين يضعون قطاعاتهم المرعبة في احزمتهم التي عادة ما كانوا يتمنطقون بها على دشاديشهم . النساء الملفعات بعباءاتهن السود وعيونهن المكحلة . كانت بعقوبة مكتظة بالجنود لانها موقع خلفي للجبهة ، وببعض الهاربين من الحرب ، المختبئين في البساتين ، او التنظيمات الدينية التي وجهت لها السلطة ضربة قاصمة . وكان حلمي يعرف عن هؤلاء اكثر مني ، كونه يختلط مع صاحب الفندق والقاطنين ، او يتكلم مع الفلاحين الذين يجالسهم في البار المشرف على نهر خريسان ويقدم البيرة واللبلبي والجاجيك . كان افضل مكان يرتاده حين لانكون معا ، او لايفكر بشرب العرق في تلك الليلة .

* * *

قالت خالتي جميلة : اجمل ما في ضايع شعره . النساء يعجبن بتفاصيل صغيرة من الجسد . انا متأكد ان خالتي ستعشقني بسبب شعري لو لم اكن محرما عليها . لكن هل مالت خالتي الي ؟ كنت نائما على تخت الخشب ، بمواجهة شباك بيتنا . النسيمات تحمل خصل شعري وتلقيها على عيني اللتين تغمضان وتنفتحان على هديل الحمام في السعف وزعيق غراب يطير من شجرة الرمان المنتصبة قرب القنطرة الى شجرة التين التي غرسها جدي قبل سنتين ، على حافة بستان النخيل بالضبط . ما بين شجرة الرمان وشجرة التين يمتد حقل الذرة ، اخضر ، يتموج تموجا خفيفا كلما هبت الريح . تحت الذرة نباتات الحمقاء والنفل والشمّام ، وكثير من الحشرات السارحة في الأرض . برزت في منظر الشباك العجوز قرحة ، تدب من ثقل السنين ، وعبرت الساقية

الصغيرة نحو حقل الذرة . تلك المرأة العجوز لم تخلف سوى البنات . لابد انها تفتش عن الحمقاء لتعدها وجبة للغداء . ستقطعها وتقليها مع السمن الحيواني والبصل ثم تضع قليلا من معجون الطماطم عليها . وجبة شهية ، كثيرا ما اعدتها امي ايضا . كانت قرحة تنحني بين اغصان الذرة ولا يبقى منها سوى بقعة ثوبها الاسود . تقتلع بعضا من تلك النبتة وترفع قامتها لتستريح . تمشي نحو مكان آخر . استرعت انتباهي . سحبت جسدي من الخدر الذي يعيشه والذكريات البعيدة . انهت قرحة عملها وتوارت تماما بين غيضة ذرة عالية . خمنت انها جلست تقضي حاجتها فأغلقت عيني .

مغادرة الحامضية الخانقة ، ببقرها وبقها وذرتها وعاقولها ونسائها المتخلفات واوحالها ، والعيش في المدينة منتهى الحلم . الطالبات المعطرات السافرات . الحرية في الملبس والكلام . مشاهدة حياة اخرى . السهر حتى الفجر . المغامرة . الخروج من الحامضية واسرها يعني بداية الطريق لمشاهدة ارض الله الواسعة التي قرأت عنها وشاهدتها في الأفلام وسمعت بها من اقراني ومن الرجال الكبار ، والرطن بلغة اخرى . اخترق بصري غابة النخيل . تطلعت الى الصحراء البعيدة ، وقد اصبحت ذات لون دخاني . من هناك يأتي البدو ، والرعاة ، والذئاب التي تهاجم القرية في الشتاء . حدثني جدي كثيرا عنها ، عن كمأها ويرابيعها وجمالها واعشابها التي تنبت بعد نزول المطر . كما حدثني عن غزوات بعيدة ومعارك بين القبائل وهجرات تنصب دوما في حوض الفرات ، بحثا عن الماء والتمور والخبز . كان جدي حيا حين سرقتني الغجريتان في تلك الليلة . كم كان عمري بالضبط حين رأيت ذلك الكابوس ؟ هل كنت حقا اعيش في الحامضية ام في مكان آخر ؟ كل ذلك لم يعد مهما . الغريب في الامر انه ما ان أسمع كلمة غجر ، او ارى خيمة لغجر ، حتى يرتسم ذلك الحلم ، او الكابوس في ذهني . اعيشه من جديد بأدق التفاصيل . في ذلك الكابوس الذي رويته لحلمي مرارا ولم يدلني على معناه ، غاب القمر وحمل معه الظلال الكثيفة لاشجار الحور

واليوكالبتوس والنخيل . سارت الحامضية الى عالم النوم كما كانت تفعل منذ عشرات السنين . كلاب تنبح تحت دالية عنب تجاور بيتا من الطين او الحجر . ديك يودع يوما مضى من عمر القرية المتربعة على الفرات . خفتت اصوات الكائنات البشرية ، وابتدأت حياة الظلام ، تجوس في الطرقات والحقول ، بين مخازن الحطب وحظائر البقر . بقرتنا المرقطة تجتر طعامها . الدجاج ، كأن بعضه ينبه البعض الآخر الى خطر آت من فجوة صفصاف او حقل ذرة . تتلاهث نجوم ، وتسقط نجوم . تغيب مجرات وتبزغ شموس في مكان ما من ذلك السواد البعيد . قرية من بيوت : بيت ابراهيم المحاط بالبرتقال والتين ، بيت ابو شعيرة الذي بني من الطين ، خلفه غابة النخيل التي يتغلغل فيها الطريق المؤدي الى المدرسة الابتدائية . بيت المختار ، وجواره بيوت تنسج الصوف وتبيعه لأهل القرية . بيت فرحان الغريب يتعالى منه ثغاء الغنم وخوار البقر . وفي الحوش الواسع ، ظلام لاتنيره سوى النجوم .

استطاعت امي ، اخيرا ، ايجاد علبة العجين . سمعت تنفسها الثقيل ، هي المصابة بالربو . كانت تقلبه وتضيف الملح ثم تغلق العلبة وتغسل طاسة الفافون . رددت بعض الآيات القرآنية وتمددت في فراشها . الغرف داكنة السواد تطل على الحوش . ان شخصا ما سيظهر من احدى الغرف . الحياة مليئة بالوحوش الغامضة والاوهام والمخلوقات السحرية ، في قرية يعمها المساء باكرا ، ولايضيء غابات نخيلها وبساتينها سوى النجوم . هل سمعت نقر دربكة ؟ ام صوت اقدام لحيوان بري خارج البيت ؟ غدا ينبغي عليّ الذهاب الى المدرسة ، انه يومي الأول . اعرف الطريق جيدا ، يمر في محاذاة بيت ابراهيم ويعرج على غابات النخيل ويخترق المستنقع الجاف . الاشواك والعاقول في كافة الطرق . طرق القرية كلها ضيقة ، يحف بها الشوك والعاقول .

متى كان ذلك ؟

الأحداث في ذهني حية . استغرق في تفاصيلها ، انا النائم على

تخت الخشب بمواجهة الشباك . شباك ضيق من الحديد يطل على مشهد واسع وعميق الغور يقود العين الى الصحراء البعيدة . مخدر الجسد تحت وطأة الشريط المصور الذي يكر في رأسي والوقت ضحى . الفصل صيف هادئ ، الشمس فوق اشجار الصفصاف التي تحف بالساقية ، وحرارتها لم تشتد بعد . مضافة بيتنا هادئة ، لم يدخلها احد منذ فترة ، امي تكنس حوش الدار . خالتي التي اغار عليها ، تغسل الملابس امام الباب . الأخوة الصغار مضوا الى النخيل لاصطياد العصافير واليمام كما كنت افعل انا ايضا . لم العجب ، الم اكن اقضي نهارات بكاملها بين النخيل متصيدا العصافير والزاغ والبلابل ؟ لا شيء تغير . ظلت البلادة نفسها تحكم حياة قريتنا . وكأن زمنها لايسير بل يلف ويدوّم فقط . امرأة تركب حمارا ، حاولت من بين النعاس والخدر ان اميزها فلم افلح . ظننت انها فاتحة فال او غجرية تركّب الاسنان الذهب ، او فلاحة ماضية الى الفرات لتحتطب العروق من اجرافه . النسيم عذب ، نسيم الضحى الرائق المار عبر حقل الذرة الى شباك المضافة . يداعب وجهي ويحمله الى عالم رجراج . تقول خالتي جميلة : اجمل ما في ضايع شعره . تنطلق اصوات بعيدة : سيارة مارقة على السدة الترابية ، نهيق حمار من الحقول القريبة من النهر ، تكتكة مضخات المياه تتواتر عبر الفضاءات النائية لتصل الى مسمعي قوية مرة وخافتة مرة ، حسب هبوب الريح . حوارات بين نساء و نداءات على اطفال . قرقعة أوان ودحرجة براميل . كنت سابحا في مياه أزمان لزجة ، وأحداث قد تكون احلاما او كوابيس او حكايات سمعتها في الليالي الماضية . كانت امي تنام قريبا مني وكذلك اخوتي . ابي غائب في بغداد يتابع عملا من اعماله . سمعت جدي يقدح بقداحته النفطية مشعلا آخر سيجارة لف سيدخنها وينام . في حوش الدار هدوء عميق . اسمع دبيب قطة تتسلل الى قدر الحليب الذي كشفته امي كي يبرد . هناك من يسعل . لعق صادر من الظلمة التي تلف الباب الخارجي . زير الماء مركون تحت السقيفة جنب الباب . التنفس والشخير والتأفف ، اسمعه في الهواء الراكد ، السائل بين غرفة

وأخرى وفراش وآخر .

كنت بلا عمر محدد .

وكنت نائما في حوش الدار ، دون عرق سائل من جسدي ، على حصير من خوص النخيل ، لايغطيه شيء . الارضية الكونكريتية باردة ، مع ان الفصل صيف . كان الوقت ليلا ، وهذا مؤكد تماما . منتصف الليل على الاغلب . دبيب النوم على جسد القرية يشي بذلك . حوش البيت مساحة واسعة تنفتح عليها الغرف : غرفة عمي ، زوج خالتي جميلة ، وغرفة امي ومجاز البيت المؤدي الى المضافة والمطبخ . لم يبق احد حولي ، كما لو حدث الامر بغتة . عاصفة هوجاء تصخب في النخيل واشجار الصفصاف وتضرب العلب الفارغة المبعثرة فتصدر ايقاعات مثل عزيف الجن او تقدم وحوش مرعبة . لابد ان تكون الامواج في النهر صخابة هي الاخرى ، والسمك مرتجف فاقد الاتجاه . ذؤابات الحلفاء تقصفت من عنفوان الريح ، واعمدة بيوت الغجر النازلين على طرف المستنقع تهاوت . العاصفة كانت غير متوقعة .

نفاش البردي يتطاير الى عنان السماء ، وريش البط البري يشكل فوق بساتين التين شبكة ناعمة عملاقة . لكن ليس من شخص يرى ذلك ، فأنا اعتمد على الحدس فقط . هل يمكن رؤية الريش في الليل وهو يحط على عساليج العنب مثلا ؟ كلا بالطبع . هل يمكن معرفة ما كانت تقوم به خالتي وهي تختلي مع الرجال ؟ كلا طبعا لكنني حدست ذات يوم بأنها تقوم بأمر منكر مع احدهم . درفتا الباب الخارجي المصنوع من الحديد ، لونهما اخضر مقشر ، تصطفقان بعنف . يد الريح تلعب بهما وتعبث دونما سبب ، وكأنها تود اخافتي . لا احد يعير لهذه الفوضى اي اهتمام . لم يتناد الفلاحون بعضهم مع بعض باقوال مأثورة لتبديد الوحشة ، ولا تجمع الرجال في المضافات كي يتحوطوا للامر كما كان يحصل دائما في الكوارث . وهذا ماجعلني ازداد رعبا ، وسط هذه الليلة الكابوسية في قرية تعيش بين الحقول والبساتين وبيوت البدو

وخيم الغجر . ورغم العاصفة واصطفاق الباب والقرقعة العالية الا ان المشهد ظل ساكنا بحق ، كأن العاصفة والباب المرتج وريش البط وخوار الابقار وعواء الثعالب وتلاهث النجوم ، ما كل ذلك الا رسمة على قماشة ذات ابعاد عملاقة لايراها احد غيري .

في لحظة خاطفة ، قصيرة لاتحس ، ومديدة خالدة في الوقت ذاته ، تغير كل شيء .

حدث ذلك ما ان دخلت امرأتان لابستان اردية سوداء من الباب المفتوح ، دون اية ضجة او ضوضاء . لم اميز لهما ملامح واضحة ، او ربما كانتا تسدلان على وجهيهما نقابين اسودين . الارجح انهما ذاتا بشرتين سوداوين . كل واحدة منهما تحمل شيئا ملفوفا على ظهرها . تبيّن لي انه شقبان ، مثل الشقابين التي تحملها نساء القرية وتكون ملينة عادة بالبطيخ او الحشيش او التمر . شقبان مليء لا ادري بأي شيء ، وهذا ما اشاع الغموض في المشهد ، وأثارالرعب ايضا . كنت اواجه الرعب يوميا في قريتي . تعالت قعقعة حصى من جيوب خافية ، وتنهدات ودع ذي الوان زرقاء وبيضاء وشاحبة الحمرة ، وتعازيم سحرية تستقرئ خطوط راحات أياد وتستجلب حظوظا طافية في طيات الزمن . ثمة دربكات تدوي ومزامير تموسق الحانا عن العشق ، ورببات تدوزن قصصا عن الفروسية . هز ارداف واكتاف ورقاب والتماعات ثياب مضلعة بالبريق المفضض والمذهب . كل ذلك رافق المرأتين وهما تتجولان في حوش الدار . تتغامزان ، توشوشان فيما بينهما ، وتشيران بعيونهما . انهما تتآمران عليّ . اصبحت هدفا لليلة مليئة بالسحر والغواية . انهما تريدان سرقتي ، تضعانني في واحد من شقبانيهما وتهربان . هل كان جسدي ضئيلا الى هذا الحد بحيث يكور ويوضع في صرة من القماش ؟

كانتا تتكلمان بلغة لم اسمعها قبلئذ . سمعت رطانة لكن لم ادرك منها شيئا . بربرة اتراك واكراد وعجم ، ومخارج حروف فظة لاتنتمي الى لغتنا ، لغة الحامضية المعروفة بهداوة الحكي وثقل الكلمات . جدي

لايتكلم هكذا ، وخانتي نكاتها البذيئة واضحة افهمها بعمق . من اين جاءت تلك اللغة اذن الى حوشنا الواسع ؟ تطلعت الى شخص يمد لي يد المساعدة ، فلم اجد احدا . لا امي ولا اخوتي ولا ابي . حتى جدي النائم في المضافة لم اسمع نحنحته ولا سعاله ولا بسملاته الشاقة لرداء الليل في ايام سابقة . اين مضى الجميع ؟ تركوني وحيدا مع الغجريتين اذن ؟ اين القطة اللاعقة لقدر الحليب ؟ هل توارت بقرتنا السمينة ذات الجلد الابيض المبقع بالسواد ؟ في السماء لم ار اي نجمة او مجرة او كوكب مضيء . ليس هناك سوى نفق اسود ، غائر ملايين الكيلومترات في مفازة هلامية مجهولة المادة . الغجريتان عازمتان على سرقتي ، والهروب بعيدا الى حيث ارض لم ارها ولم اسمع باسمها . سيطلقون علي اسما آخر لا يتعرفه احد . شيء جيد ان يستبدلوا اسمي فأنا امقته ، وكثيرا ما سبب لي احراجا مع رفاق المدرسة . هل يعقل ان يحمل شخص عاقل اسم ضايع الجريان ؟ حلمت اكثر من مرة باستبدال هذا الأسم القبيح بآخر اجمل . اسماء مثل جمال ونادر ولؤي وماجد اسماء يعتز بها حاملها . لا اظن ان مخلوقا بشريا يسمى ضايع ، عداي وذلك الشرطي العامل في المرور ، الذي حاول ذات يوم قتل امه . قال ابي انه سماني هكذا لانني ولدت بحجم الكف ، واجمع الكل انني لن اعيش . على اية حال هناك اسماء بشعة اخرى في قريتنا مثل اسم قرحة قريبتنا ، واسم عكران مشغّل مضخة المياه .

الغجر . سيغيرون وجهي بسحرهم ومهاراتهم . يسمونني بوسم او يشمونني بوشم او يجرون على جسدي تعديلات بمباردهم ومنافخهم وآلاتهم الغريبة ومساحيقهم الفوارة او المتغيرة اللون والرائحة . من يدري ؟ بل من يأمن هؤلاء الغجر الملاعين الذين يأتون الى الحامضية بغتة من مكان مجهول ، ثم يمضون اياما ويشدّون الرحال الى جهة ما ، لا يحددونها لأحد . ما الذي علي فعله ، وانا خائف منهما ؟ كلما حاولت النهوض ، الركض خارجا ، لم يطاوعني جسدي . توحدت اعضائي بالسجادة الخوص والمفرش الصوف وجلدة الارض السميكة .

لقد زرع جسدي ، مثل مسمار ، في الارضية الكونكريتية .

الخوف من الغجر تحول الى فضول . الى رؤية اخرى لبشر يعيشون حياتهم بقناعة مطلقة ، تستهويهم الفضاءات الرحبة والانهار . اضواء المدن ليست سوى حلم غامض سرعان ما ينسونه . حاولت جهد الامكان ان ارضي فضولي فجمعت شظايا عديدة لارسم بها صورة واضحة لهم . حصل ذلك كله قبل معرفتي بحلمي ، وقبل ان تشتعل هذه الحرب الملعونة . جلبت الطبل بمدقته الخشب والطبلة الصغيرة المصنوعة من الفخار والجلد ، والرباب ، والوجوه الكالحة الحادة التقاطيع . جمعت عيون النساء السود وهن ينظرن الى الرجال المتحلقين نظرة اغراء ، وشعورهن الطويلة الكثة المعطرة بالقرنفل والريفدور وحب المحلب والبخور . جمعت التماعة اسنان الغجريات المذهبة وخصورهن النحيلة ، وشوارب الشيوخ البيض الكثيفة ، وعيونهم الثاقبة . الخيام البيض ، الحمير التي كانوا يتنقلون عليها من قرية الى قرية ، لغتهم غير المفهومة ، دخان مواقدهم . ذلك ما سينجز ربما ، الصورة التي ترضي فضولي .

* * *

صورة الغجر لايمكن ان تكتمل ، ينقصها دائما شيء ما .

الغجر كلمة اليفة وغريبة على سمعي في ذات الوقت . كلمة سكنتني اكثر من غيرها طوال عيشي في الحامضية . ربما لأنهم كانوا الشيء الوحيد الممتع في حياتنا ، و لايمكننا اقتناصه وتحويله الى حدث رتيب كما كنا نصنع في ايامنا المتشابهة . كلمة تتناقلها الألسن بين فترة واخرى ، تتناقلها النساء حين يجتمعن في حقل القت ، وعند سواقي المياه ليملأن براميلهن الصغيرة بالماء الفرات . يهمسن بها عند تنانير الخبز مساء . بخوف حينا وبفضول حينا ، عكس الرجال . الرجال يقولونها لبعضهم في المضافات وفي تقاطع الدروب وعلى اكداس القمح ، في الاصائل المذهبة بأشعة شمس غاربة . الاطفال والصبيان يتلقون تلك

الكلمة بفرح غامر . يبدأون بوضع الخطط وترتيب مغامرات سيقومون بها تحت جنح الظلام ، وكنت واحدا منهم .

الكاولية!!!

في مابعد عرفت ان لهذه الكلمة مرادفات اخرى ، فهم يسمون ايضا بالنور والغجر والجبسي والقرباط ، لكنها تعني شيئا واحدا ، تعني ذلك العالم الغامض المصاغ من الغناء والرقص والسرقة . من التسول وصناعة السكاكين وقراءة الحظ و . . . . .سرقة الاطفال .

كان الكبار يقولون ان الغجر يسرقون الاطفال . يروون قصصا عن اطفال سرقهم الغجر وغابت اخبارهم ، وتواروا عن الاذهان ، الى ان يأتي يوما ما رجل كهل غريب الملامح ، يفتش عن امه وابيه ، عن اخواله واعمامه وعشيرته . ربما بعد خمسين سنة او اكثر ، يتم اللقاء وتسرد قصة اخرى عن الحياة التي عاشها ذلك الرجل في رحلته الطويلة مع الغجر . كلما سمعت شيئا من تلك الحكايات اتقمص شخصية ذلك الشريد الذي يسرقه الغجر ولايعود الى بلده الا كهلا ، غزا الشيب رأسه وتهدمت أسنانه ، وأتعبته السنون والأحداث . يعود ليجد ان الحياة تغيرت كثيرا ، وان الأمكنة التي عرفها زالت عن الوجود . ماتت غابات نخيل وتحولت حقول عن اماكنها ، وافتظت دروب جديدة ، وحوّل النهر مجراه . كنت اخاف ، مثل الصغار الآخرين ، من دخول خيم الغجر ، خاصة اذا كنت وحيدا . اظل ادور حول خيامهم مثل ديك دائخ . احدق بحميرهم المربوطة قرب الخيم . ارقب رجلا يسن سكينا داخل الخيمة او يعالج دربكة تمزق جلدها . ارمق الفتيات الصغيرات المصبوغات الشعر بالاصفر ، والنساء وهن يعددن المواقد لغلي الشاي او القهوة . الثياب المغسولة المنشورة على الحبال ، كانت توحي لي بالكثير . ثياب غير مألوفة لعيني ، لكثرة مافيها من بهرجة والوان واضواء والتماعات . كيف تتحول تلك النساء الناشفات النحيفات السمراوات ، كما يبدون في النهار ، الى ساحرات ليليات ، يخلبن اللب

بأصباغهن وزينتهن وأصواتهن الرخيمة ، وهي تشق ليل القرية الثقيل ؟

يهبط الغجر الى القرية عصرا . يأتون راكبين على الحمير ، المحملة بالاغطية والاكياس وادوات الطرب ، خاصة الرباب التي تشد دائما على واحد من الاحمال ، بكل ابهة . تكشف عن قدومهم اصوات طرقعة الاواني والاجراس الصغيرة التي توضع في رقاب الحمير ، ونداءاتهم الضاجة التي تخلق حولهم دوامة من الضحكات ومواويل الغناء . كم تمنيت لو ان ركبهم ، السائر على الطريق الترابي الفاصل بين القرية والنهر ، يستدير الى اليسار ليخيم قريبا من البيت . اظل احلم بليلة مختلفة الطعم ، تغير شيئا من رتابة الحياة اليومية ، وتجعل من بيتنا محط انظار الرجال والصبيان . احلم ايضا برؤية نساء سمراوات مذهبات الافواه يتمطقن بعلوكهن اغراء ولذة ، ورجال يقضون الليل بعزف على الرباب ، يزيل وحشة الليل . وكان الغجر يخيمون دائما عند مختار القرية . ذاك عرف اكتسبوه من خلال تعاملهم مع القرى خلال مئات السنين . المختار يوفر لهم حماية لايقدر عليها شخص مثل ابي ، جريان . فهم اولا يتخلصون من نفور المتزمتين في الدين ، وتقولاتهم وفتاويهم ، ويؤمّنون ضيافة الليلة الاولى ثانيا ، وهي عادة مايقوم بها المختار باعتباره الاكثر ثراء في القرية . رغم ان مختار الحامضية وكما عرفه الجميع لم يكن ثريا .

لا ، لاينزل الركب عند ابي ، فهو غائب اكثر الايام في المدن البعيدة ، بل يبقى سائرا حتى يصل الى بستان النخيل الكث ، حيث يربض بيت الملا خضر ، مختار الحامضية ، بساحته الواسعة ، المحاطة باشجار التوت واليوكالبتوس .

كان الزمن زمن الغجر . زمن شباب خالتي الاجمل بين نساء الحامضية ، التي كانت تضع اوراق الذهب على جبهتها وتطلي شفتيها بالدارسين وتحنّي راحتيها بالحناء الداكنة . الزمن الذي كانت فيه خالتي تفوح برائحة القرنفل ليل نهار ، وكان رحمن صبيا لما يزل . زمن بلا

شبهات . الزمن المصنوع من حكايات وافراح صغيرة والعاب . الزمن الذي شيد طفولتي بمداميك من العزلة ، والخيبات الصغيرة والجهل . الساحة التي كثيراً ما شهدت ليالي الغجر واجتماعات الفلاحين حول تقاسم المياه وترتيب عرس او جمع دية ، تمتد من بيت الملا حتى الطريق الترابي . انها تسع لمئات الضيوف . ساحة مرشوشة بالماء دائما فلايثور غبارها . تمنحها البساتين القريبة من البيت هواء ذا برودة لذيذة . الحمير كأنها تعرف طريقها جيدا . الى بيتنا لا تلتفت ، الى بيت شاعر القرية لا ترفع عيونها ، وتجفو قليلا عن دكانة سالم المليئة بالبضاعة . تقودها رائحة العاقول والشوك الطري نحو تلك الساحة الواسعة المفروشة بأشعة شموس الصيف .

ينحدر الركب نحو بيت المختار . تغص الساحة بالحمير والنساء والاطفال والرجال . تبدأ السلامات والتحيات والابتسامات تتطاير من الحشد . تنشغل النساء بترتيب الخيم جنب الساحة ، تحت اشجار التوت . الاوتاد تدق ، الحبال تفرد ، الخيم تنشر على الارض ، والاعمدة تجهز ، والكل مشغول . الاطفال يدقون الاوتاد ، النساء تكنس الارض وتزيل الاعشاب وتساوي التراب ، والرجال ينصبون الخيم . ابن المختار حسن ، بشاربه الكث وعينيه الواسعتين يحدق باجساد النساء مثل صقر . سيختار الضحية ، ولكل شيء ثمن . وهو قانون متفق عليه بين الغجر وابن المختار . او هكذا كانت الشائعات تصل الى البعيدين عن الساحة . اما مؤامرات الغجر مع ابن المختار فهي باقية في رؤوس ابناء القرية متناسلة في خيالاتهم . سرت اشاعة تقول ان ابن المختار يقاسم الغجر غلتهم بعد كل حفلة . وذلك بالاتفاق مع شيخ الغجر ، بعد ان يوفر لهم حسن الحماية والرعاية . وتلك شائعة لم يجرؤ احد على اثباتها .

ظل مجيء الغجر الى الحامضية نافرا عن رتابة حياتها . تمضي ايامها متشابهة ، مثل دورة القمح . لكن رغم تلك الدورة الازلية لحياتها فثمة اطفال يولدون وشباب يتزوجون وشيوخ يموتون . حقول تزرع واخرى

تحصد . مياه تتدفق في السواقي ومياه تجف في حمام الشمس الحارق . نجوم تشرق واخرى تغيب . قصص تولد وقصص تنأى عن الذاكرة . والايام ، رغم ذلك ، تبقى متشابهة مثل سعف النخيل . يحل الفجر في القرية وسرعان ماينتقل الخبر الى كل بيت . يسري مع الماء في السواقي ، يتناثر مثل ريش العصافير في الهواء . يؤكل مع الخبز الطازج الذي خرج توا من التنور . يسري مع الاقدام الحافية المتوغلة في الدروب الضيقة . تنشره الديوك مع اصواتها الملعلعة بين ورق الصفصاف وشعر البنات واعراف الخيول ودخان مواقد الحليب ومضخات المياه المنصوبة على الفرات . الليلة ستكون ذات نكهة خاصة .

انها ليلة الغجر .

يعلن الغجر عن انفسهم عند المساء ، بعد مغيب الشمس بدقائق . لكن كيف ؟ الغجر لايملكون مكبرات صوت . الكهرباء لم تدخل القرية بعد . المصابيح لم تعرف هنا ، والظلمة تنجاب فقط عن النوافذ او الفسحات التي تتوسط البيوت . ليس هناك سوى الفوانيس واللالات واللوكسات ولهيب المواقد . يرى الراني احيانا ، مصابيح يدوية سائرة تضيء بالكاد اقدام حامليها . الغجر يعلنون عن حضورهم بوسائل اخرى . الآذان متأهبة لسماع رسالة الغجر ، والجميع يجلس مشدود الاعصاب ، متوتر الرقبة ، يتوقع بين لحظة واخرى نداء الغجر . ثم بغتة ، والسكون طاغ على البيوت والاشجار والدروب ، ونجيمات الليل بالكاد تسفر عن نفسها ، تتوالى الضربات العميقة المتلاحقة . ضربات الدربكة وهي توقع شريطا متتاليا يمزق سكون المساء وينعش الأمل في القلوب . يعقب ذلك صمت مستوفز . عشرات الآذان مفتوحة لما سوف يأتي . دقائق كأنها سنوات . الضربات تعود ثانية ، متلاحقة قوية ، منغمة ، تصفع رتابة الحياة في القرية .

انهم هناك اذن ، في الساحة ، تحت اغصان اليوكالبتوس ، مطوقين بغيمات من البرغش .

يجلب حسن اللوكس من المضافة . يزيل الغبار والشحار عن زجاجته الدائرية . ينظفها بقطعة قماش مبللة ، مرة ، مرتين ، الى ان تتحول الى معدن صاف شفيف . يضعها جانبا . يجلب علبة النفط ويملؤ الخزان الابيض المخروطي بالوقود . يمسحه بالقماشة . يصبح مثل كتلة من الفضة . يختفي داخل البيت لحظات ، ثم يعود حاملا كيسا صغيرا يفتحه بتؤدة . يستل منه قطعة بيضاء شبكية ناعمة ، نعومة الحرير ويعقدها على انبوب النفط العلوي . انها فتيل اللوكس الذي سيتوهج ليلا بالضوء . كل ذلك بأناقة وخبرة اجادها حسن منذ اشعل اللوكس اول مرة في احتفال الغجر . يضع الزجاجة في مكانها ، ويدس قليلا من السبيرتو في كوة قريبة من الفتيل ويشعله . تلتهب تلك الشبكة البيضاء وتصبح فسفورية الاشعاع ، ثم يضخ لها النفط . يخرج من اللوكس هسيس غريب ، يعرف الجميع عندها ، ان حسن اكمل مهمته . في هذه الاثناء يكون العمود الخشبي قد غرز وسط الساحة ، ليعلق فيه اللوكس الذي سيكون مركز الجميع ، الراقصات والعازفين وضاربي الدربكات والرجال المتأنقين والصبيان المدهوشين والبعوض المتساقط ، ثللا ثللا ، على الضوء . البعوض الذي سيحترق في نهاية الليل متحولا الى جثث متفحمة في مملكة النور .

على المرء تخيل بحر من السواد . وسط ذلك السواد بؤرة من الضوء . تشع على شكل دوائر ، راسمة ظللا من الافكار والرؤوس والحشرات الطائرة المتدفقة من حقول الذرة وبيادر الشعير واعشاب السواقي الغضة الورق . نقطة تقطّر للبشر سعادة غامرة ، ستتلاشى قبل طلوع الفجر ، مخلفة وراءها حسرات وآهات ونظرات حائرة وملذات سرية ورغبات دفينة . . . . . .

وفي الدروب المحاذية لحقول البطيخ اقدام تسعى . الطريق الرئيسي نهر جار بالبشر . من عمق غابات النخيل ومن بين البيوت ، مروراً بمخازن السعف اليابس والعروق وسيقان الاشجار المقطوعة ، تتجه وجوه غير معروفة ، تسير هامسة ، متوجسة . تحاول ان لا تكشف عن

نفسها . تسير نحو نقطة الضوء تلك ، السابحة في بحر العتمة . الجميع يحلم برؤية ساهرة او خديجة او ثريا او سماهر . اسماء الراقصات سرعان ما تنتشر في انحاء القرية . الجميع يتخيلها فتاة احلامه التي سيعيش معها قصة حب عنيفة . يتوهج اللوكس في وسط الساحة . المفارش ممدودة على الارض ، عليها المخدات . الجميع يتزاحم على مكان اقرب مايكون من المركز ، او قرب فرقة العزف ، وهي تأتي قبل الراقصات دائما . تدوزن الربابات ، تحمّي جلود الدربكات ، تختبر المطابق والزمارات . تقيس التناغم بين الرباب والمزمار والدربكة . حسن يذهب الى الداخل ويغيب قليلا ثم يعود . يقف قرب اللوكس . ينظر الى الوجوه الجديدة . ينهر الاطفال الفضوليين . يضخ قليلا من النفط في اللوكس كلما خفت الضوء . الدروب تضخ الرجال الى الساحة ، هم وروائحهم القوية النفاذة . الشباب من الحاضرين مرجلو الشعر ، يلبسون آخر ما ادخروه من دشاديش لمناسبة مثل هذه . الفرقة تبدأ عزفها . يقودها ملك الرباب ، وهو الاكبر بين الغجر ، وشيخ الجلسة ، ومن له الامر والنهي على جماعته . صوت الرباب يتألم . الوتر يصرخ في جوف الليل . ترتعش اجنحة الفراش الليلي لهذا القادم من اعماق الظلمة ، واعماق الروح . اوراق التوت تهتز على ارتفاع النغمة وحشرجتها وهي تتضاءل بخفة . يصمت الجميع امام رقة الموسيقى وأنينها . أنين الغجري المنطلق عبر الاصابع الخشنة ، ليتجلى في الخشب دوامات من الضياع والتشرد والحلم والفضاءات . غجر الزمان الذين شتتتهم الهجرات ، واضاع طرقهم ماجلبه العصر من مستجدات . فلاحو قريتنا يتأملون ايضا . خالتي تجلس خارج الدار متسمعة ما يدور هناك كما تقول . امي تجلس على سجادتها تسبح ، فهي متدينة لا تحب الغناء . كل ذلك حدث في ازمان الهدوء ، حيث لا طائرات تمرق في السماء ، ولا مدافع ولا صواريخ . كما لم يعرف احد آلة تسمى بالتلفزيون .

تنقر الاصابع على جلد الدربكة ، ضربات جشاء ، اندفاعات

متلاحقة كأنها تعلن صعود حياة وتلاشيها . وهكذا المزمار ينوح . تصبح الساحة آلة كبيرة نبتت فجأة بين سعف النخيل ورائحة النهر وعفن المستنقعات . لكن اين الراقصات ؟ ينوس السؤال في اذهان الجميع ، عدا الفرقة الموسيقية . هل سيأتين من الخيم ، جماعة ام فرادى ؟ من بيت المختار ؟ كم هو عددهن ؟ شابات ام مسنات ؟ متزوجات ام لا ؟ الجميع يتساءل ، ويترقب ، ويمسح الاتجاهات ، ويتطلع الى اي حركة ، او قادم الى الساحة . الوقت لايمضي دون الراقصات ، فالكل بحاجة الى نساء . بحاجة الى عطر الريفدور والبخور والقرنفل . بحاجة الى العيون السود المتلامعة مثل فراش محترق . ما لهم وللرباب وآهات صاحبه المغني ذي الصوت الخشن . صوته جميل ، اجل ، لكنه ليس صوت انثى . هكذا كانت الهواجس تدور . وهكذا كانت الدقائق تمر بطيئة خالية من المعنى . معنى الزمن كامن في الانثى ، ومعنى الانشراح والسعادة كامن في حضورها ، من لا يدرك ذلك ؟ واستطيع ، انا ضايع الكبير ، ان ارى الآن ، بعد سيل السنين ، ضايع الصغير بدشداشته النايلون البيضاء المبقعة بعصير الرطب ، والرمان والتوت ، برجليه المعفرتين بالتراب ، يقرفص في مؤخرة الحشد ، بوجه اصفر صغير يشبه وجه ارنب مذعور . عيناه الصفراوان تتراقصان مع ارتعاشة ضوء اللوكس ، يجلس مسحورا مع اولاد عمه الصغار ومعارفه . ضايع الصغير كان غافلا عن ابن خالته الذي مضى بعد تلك الليلة وضاجع اقرب حمارة وجدها قرب الطريق . هو نفسه الذي روى لنا القصة بتبجح ، اكثر من مليون مرة واستمنيت عليها في فندق بعقوبة ، المطل على نهر خريسان . . . . .

كان حسن ، ابن الملا خضر غائبا ايضا . غيابه مريب . وسط اجواء مشحونة بالترقب والتململ . يطل بغتة من باب المضافة وعلى وجهه حبور ونشوة . يتقدم الى وسط الساحة واثق الخطى . وقبل ان يصل الى اللوكس ، وقبل ان يمد يديه اليه ، تشرئب الابصار نحو الباب ، باب الراقصات الذي خرجن منه كما لو كن جنيات هبطن من

السماء . تفوح الساحة برائحة النساء ، الرائحة التي لم اشمها الا ماندر عند امي وخالتي وقريباتي . يبدأ فصل الموسيقى . تحتدم الربابة مع الدربكة وتهتز ارداف النساء ورقابهن وبطونهن . وتكون الملافع مؤطرة للوجوه او منشورة على الرقاب . ملافع سود سيراهن عليها الرجال . الاستيلاء على ملفع الراقصة معناه الأستيلاء عليها اثناء الاستراحة . ولكن ذلك لايأتي دون دفع النقود . تتصاعد ضربات الدربكة وتتصاعد معها اهتزازات الاجساد . يعقب ذلك لحظة من الهدوء ، تمهد لصوت الغجرية الذي سيتصاعد شاقا عنان السماء . تغني السويحلي والعتابا والموال وتختم ذلك بالبستة . تهتز الايدي طربة ويتناول واحد من الرجال بندقيته ليسددها الى السماء ويطلق اطلاقة جشاء احتفاء بالصوت .

تدور الغجريات في كامل المساحة حول اللوكس . هذا هو الرقص ياصاحبي . يهمس فلاح شاب لجاره المتكئ على المخدة . الغجريات يمنحن ابتساماتهن للجميع حتى الاطفال . يظل ثمة اهتمام خاص بالرجال الذين يدفعون اكثر ، او تشم الغجريات انهم يملكون نقودا اكثر . يدفع الرجل حق التفريعة للراقصة ثم يضع الملفع تحت ركبته ، وينتظر انتهاء الوصلة . في هذه الاثناء تظل الغجرية تبادل صاحبها الابتسامات اللماحة تمهيدا للجلوس امامه . وعادة ما كنت افكر ، وانا احدق بالشعر الناري والثوب المفضض المتلامع والعينين اللاصفتين ببريق وحشي ، عما سيقوله سالم ، صاحب الدكان ، وهو يداعب يد الجالسة امامه ؟ لم تستكين يدها ليده رغم انهما لم يعرفا بعضهما الا الليلة ؟ وكيف تسمح له بتلمس فخذيها وبطنها ووجهها وشعرها ؟ فوق ذلك لماذا لايغار رجل المراة واخوتها واقاربها ، وهم يرون نساءهم بين ايدي الرجال يتلمسونهن على هواهم ؟ اسئلة سرعان ماتضيع في حمأة الرقص ، وضجيج المعجبين والغناء المنفلت من حناجر حادة يخترقها الحزن مثل خنجر . وكانت الأحزان لضايع الصغير لغة غير مفهومة ، مثل لغة الغجر .

لكن الغجر صار مجيئهم نادرا الى القرية ، خاصة في السنوات التي بلغت فيها . اتساءل اليوم ، عن السبب الحقيقي الذي جعل مرورهم نادرا . هل ازاحهم التلفزيون الذي دخل القرية بعد سنوات عن عرشهم العظيم في مخيلتنا ؟ ام ان الكهرباء ومصابيحها التي اضاءت بيت المختار وبيتنا وبيت ابراهيم وحتى قرحة ، هي التي طردتهم عن دروبنا ؟ الناس تطورت ، اجل . الحكومة كما سمعنا لاحقا ، بنت لهم بيوتا ليستقروا فيها . مدينة الفوار ، التي زرتها اكثر من مرة ، واحدة من تلك المستقرات . عدّ الغجر منظرا يشوه وجه البلد الحضاري ، بحميرهم وطناجرهم وخيمهم وعطالتهم غير المبررة . الاخلاق لم تعد تسمح لهم بالظهور علنا كما كان يجري في السابق . حتى حسن ابن المختار قتل اثناء ما كان يحارب الاكراد في الشمال ، ورثاه الشاعر ملا علي بقصيدة طويلة ابكت كل من سمعها . لم يعد الغجر مرحبا بهم في بيت المختار منذ ذلك الحين . وقيل ان لعنة الغجر هي التي قتلته ، اما الأداة فهم الأكراد المعتصمون في الجبال العالية . جبل هندرين ، جبل حمرين ، جبل حصاروست ، جبل بيره مكرون ، حيث الثلوج تدوم ، كما اخبرني حلمي ، مثل لحية كثة طوال العام . الجبال التي عاش فيها حلمي حلم انتصارات لم تتحقق . فالقادة يفكرون بطريقة اخرى غير التي يفكر بها المريدون الصغار . هكذا اخبرني عن سبب فشل الثورة . لكنه لم يندم على التجربة رغم مرارتها . عليك ان تتعلم كيف تعيش خارج القانون يا ضايع . قال لي ذات مرة . ربما لهذا السبب يعشق الغجر فهم مشردون منذ الولادة ، وخارج القانون . . . . . دائما .

* * *

مياه خريسان ملونة بالازرق والاحمر والابيض . قوس قزح ليلي شكلته اضواء النيونات والمصابيح المطلة عليه من الابنية والبيوت واعمدة الشارع . كانت الانعكاسات الألهية تزيل عن امواجه وجوده المحسوس . في الهواء رائحة بساتين وحقول وحشائش . رائحة ثقيلة

تجلب دوار الرضا والجمال . في الشوارع مصريون كثيرون ينجزون اعمالا او يرتادون المطاعم للعشاء او يأوون الى فنادقهم من القرى القريبة التي عملوا فيها نهارا مياومين في جني الثمار . جنود . جنود دائما . بكامل قيافتهم ، وعيونهم المذعورة الخائفة من الموت وهو يرقص في الهواء . تراءى جسر القطار الذي يقطع نهر بعقوبة كأنه مارد عملاق . له نكهة الانجليز الذين بنوه ببرودهم وعقلانيتهم وكآبتهم . وابعد منه الجسر العملاق ، جسر السيارات المنطلقة الى بغداد او القادمة منه . شكل الجسر قوسا من الاضواء على مياه خلت من القوارب . بساتين النخيل في بعقوبة الجديدة تلوح مثل كتل من قير . كنت من خلال نافذة السيارة اترصد كل تلك المشاهد بعين رائية حزينة تهرب من واقع جاف نحو احلام غير متحققة .

في السماء قمر حزين كامل الاستدارة . قمر قديم اقدم من هذه المدن وتلك الاحزان . ظل يلاحقنا منذ ان خرجنا من المدينة . مررنا ايضا بالمعسكر الذي نخدم فيه ، وكان مضاء ببعض المصابيح الكابية الانارة . انه خال من العقيد ومني ومن حلمي والمراسل جواد والنائب الضابط توفيق ذي الفم الاعوج بسبب حادث الدراجة النارية . لا احد هناك سوى غيمة البق المفتشة عن اجساد ساخنة ملينة بالدم . صرت امتلئ بالقرف كلما تخيلت حياتي بين هذه الالوان الكابية . لون البسطار اسود ، لون بدلة العسكر خاكي ، لون الجدران كالحة ، حتى لون الخرائط والمخططات تحول الى البني الفاقد للحياة . كل يوم ضحكات كاذبة وزيارات لمنشآت عسكرية واخبار عن الجبهات ، ومداهنات للضباط . كان اكبر طموح للشخص هو الحصول على اجازة .

قال سائقنا عقيل مداعبا ، والسيارة تجتاز رتلا من الدبابات :

– انظر انهم يذهبون الى الموت ونحن الى الفجر ، مفارقة .

قال حلمي وهو يستعير مقولة اميركية شاعت في حرب فيتنام :

– اصنع الحب لا الحرب .

قالها بالانكليزية التي لم يفهمها عقيل .

– الانسان حين يعيش في الحرب يكثر من ممارسة الجنس .

– انها غريزة البقاء . قال حلمي .

– هذه اول مرة للاستاذ ضايع يزور فيها مخيم الغجر ، اليس كذلك ؟ سأل عقيل .

– نعم . لم اكن اعرف بوجودهم لولا ان اخبرني حلمي قبل اسبوع .

– ستجد مايعجبك . قال عقيل بفرح .

كانت الاشجار تغور في الليل وراءنا . ظل القمر مشمورا في سماء بعيدة تظلل الغابات والدروب الضيقة والبيوت الطينية او المبنية من الطابوق . بدأ هواء الليل يبرد قليلا كلما اتجهنا الى الشرق . كان الطريق مكتظا بالسيارات والشاحنات والآلات العجيبة ، للحفر والحدل والتنقيب والتجسير ، وكان البيك اب وسطها مثل فرخ دجاج بين قوائم فيل عملاق . كنت احلم بقرية حلمي الجبلية ، وأتخيل المفارز الثورية وهي تنقض على الجيش او ترحل متسللة بين الوديان والجبال والكهوف . انهم يستطيعون الكلام بحرية على الاقل . هذا ما لم نعد نستطيعه اليوم . صار واحدنا يخاف من افكاره . الافكار كثيرا ما تلتقط من الآخرين . وكان حلمي يفكر ربما بالغجر والعرق والحياة الغامضة التي عاشها في ظلال قلعة كركوك ، ويفكر ببغداد التي تخفي سره العميق . لابد ان المتعهد عقيل يفكر كيف يستفيد منا في تعهداته بعد ان قدم لنا هذه المتعة . ورغم ازيز الطائرات وقعقعة السلاح ، وتوابيت الموت التي لم تخل منها مدينة ، ظلت هناك فسحة للمرأة . عندي انا خاصة . بل يمكن القول انها استحوذت علي دائما .

الا استمنى يوميا ؟ وصرت لا استطيع النوم الا بعد القيام بذلك ؟

كنت امارس حربي الخاصة مع جسدي . اقوم بالعملية ثم اشعر بالانهاك بعدها ، واشعر بعبثية الحياة ، اذ كنت في الحقيقة بحاجة الى النوم ونسيان الحرب والقتلى والبيانات العسكرية والغد غير المعروف والحمى المحيطة ، حمى القتل والاستهانة بأرواح البشر . اضع رأسي على الوسادة ، اظل اتقلب في الفراش ، سواء كنت في الحامضية او في المعسكر او في فندق محمود الذي يقع في علاوي الحلة . آلاف المرات حلمت بالراقصة سماهر التي لونت رأسي حين كنت ولدا صغيرا . تمنيت لو عاد عهد الغجر الى قريتنا كي اسكن خيمة من خيمهم او اهيم معهم . كان جسدي يطلب المخدر ، الانهاك ، الطاقة التي يجب ان تسفح كي تضع العقل في مستنقع اللاشيء . استمنيت دون كلل مئات الليالي ، جسدت خلالها تفاصيل المرأة مثل فنان حاذق . الاستمناء يساعد على تنمية الخيال ، هكذا قال لي حلمي مرة ونحن نناقش الموضوع . ربما يمتلك الحق في ذلك الا ان الاستمناء يعصر الروح وينهك الجسد . قيل ايضا انه يأكل الذاكرة ، ولا اعرف مدى صدق هذه الفكرة . كانت التفاصيل تعتمد على الذاكرة طبعا ، وعلى الوهم الذي يغذيها . انا في الحقيقة لم اعرف جسد المرأة جيدا . كان اصدقائي في المعسكر ، ومنهم حلمي خاصة ، يحدثونني عن الديوانية وغجرها . كاولية الديوانية مشهورات بامتاع الرجل . نظيفات ، ملساوات ، يفعلن الاهوال حين تدخل معهن الى الغرفة . قلت لنفسي : جرب يا ضايع قبل ان تموت .

استلمت راتبي وخرجت باكرا من المعسكر . عزمني حلمي الى بار خريسان لشرب البيرة فرفضت ، في ذهني مغامرة الفوار كما سميتها . قلت لنفسي امض الى هناك . شكلت لي المرأة حالة عذاب دائمة ، استهلكت من تفكيري اكثر من النصف . اقرأ كتابا او جريدة فتتحول الحروف والكلمات الى ارجل وارداف وافخاذ وشفاه . استغرق بتأمل النساء اللواتي عرفتهن فأجرّدهن من ملابسهن واختار اغرب الأمكنة والاوضاع . ولم تنج من خيالي لا نساء القرية ولا اولئك اللواتي

عرفتهن اثناء دراستي الجامعية . تلك الدراسة التي لم تخلف في ذاكرتي اي شيء مهم . ربما لأنني اكملتها بحالة من اليأس المطلق من كل شيء .

رحلت الى بغداد ، يلفني سديم الليل والنجوم البعيدة . كانت مغامرة من مغامراتي القليلة التي اتيح لي ان اعيشها . لست نادما عليها . سأظل الاحق الغجريات حتى الثانية الاخيرة من حياتي .

نعم كنت في بغداد وكان هناك جنود وشيوخ قبائل وباعة جوالون يسدون بعرباتهم مداخل الكراج . بغداد مكتظة ، لم تعد تعيش ايقاعها الطبيعي . لا فرق بينها وبين قريتنا . اصبح الجميع مشغولين بكارثة الحرب وتوقعاتها وقتلاها . الناس هنا يتراكضون في كل الاتجاهات ، وجوههم صخرية خائفة وعيونهم مذعورة . وهناك يجلسون امام التلفزيونات ليروا بأم اعينهم ما يدور في الجبهات . من الغريب ان عيون فلاحينا امتلأت بالذعر على حين غفلة من الزمن . امس فقط ، شاهدت دموع امي وهي ترى على الشاشة جثث الايرانيين . قلت لها انهم اعداؤنا فلم البكاء . قالت اني اتخيل امهاتهم وهن يرين الجثث . جواب بليغ من امي . كنت اجلس في ساحة البيت والليل هادئ . تخيلت مثل وهم أنني سمعت نقرات طبلة بعيدة . لقد كنت واهما طبعا . لم يعد احد يهتم بالغجر ، سواي انا الباحث عن ذلك الحلم البعيد . وعن اللذة ايضا ، بعد ان لم يعد في حياتي شيئ ذو فائدة . سأمضي الى الديوانية . تلك المدينة الواقعة في الوسط ، التي لم توح لذهني يوما بأي احساس خاص . وهي اول مرة أزور فيها تلك المدينة . لدي عدد من الاصدقاء يعيشون هناك ، وكثيرا ما دعوني اليهم لكنني لم ازر احدا . لم يعد لدي اية رغبة بالحياة الاجتماعية ، حتى اهلي لم اعد اهتم بهم . وهم نسوني ايضا ، بعد ان ابديت شكوكي وهواجسي بخالتي جميلة .

ركبت الباص المتجه الى الديوانية ، مدفوعا بالشوق الى التجربة والمغامرة ، وبالشوق الى استرجاع امجاد الغجر . اشتقت الى روائح

النساء وعيونهن السود وبشراتهن الابنوسية ولبّانهن .

جلست قربي امرأة في الاربعين ، تلبس عباءة سوداء ، وتلف رأسها بعصابة . تزين فودها بليرات ذهبية كانت تتلاهث على خدها اليمين . امراة ذات وجه مدور احمر ، عيناها حمامتان ، سوداوان ، فيهما شهية لاتحد للرجل . وكنت صغيرا مقارنة بها ، وشابا ، لكنني شاب معطر ، مقبل على مغامرة لن انساها . كانت تجلس في المقعد القريب من النافذة ، وكنت التصق بجسدها الدافئ . انني احب الالتصاق باجساد النساء ، فحين اجد مقاعد فارغة في الباص عادة ما اجلس قرب امرأة . لقد منحني الله موهبة الالتصاق بالنساء . لم الكذب في ذلك ، فالمتعة عالية . الساعد لصق الساعد ، والكتف على الكتف ، والفخذ جنب الفخذ ، ومن كل ذلك تنطلق حرارة ناعمة تهدهد جسدي . سألتها ان كانت من الديوانية ، فأجابت نعم . اخبرتها انني لم ازر هذه المدينة قبل الآن . رمت اخبارها بأنني غريب بأي ثمن . فيها رائحة انثى طاغية . انثى معبأة بالامومة والرغبة والشوق الى الرجل . النساء كما سمعت يفضلن الغريب . وهي امراة خبيرة تتغلب على خجلي وجهلي . احس كلانا بالانجذاب دون تصريح . انها تمتلك شبها ما بخالتي جميلة . ربما عيناها الداعرتان اللتان تضاجعان من يحدق اليهما ، وربما بسبب اوراق الذهب على الصدغ ، الزينة المفضلة عند خالتي . المهم ان هذه المرأة تمتلك الجاذبية نفسها .

– هل انت متزوج ؟

–كلا . لا زلت جنديا . الحرب كما ترين . لا احد يضمن روحه فكيف بالزوجة والاطفال .

– حسنا فعلت ، انت حكيم . خطينة ان يتزوج الشباب وهم في الجبهة . يتحملون مسؤولية امراة ستنتهي اذا مات رجلها .

وجدتها مناسبة فسألتها عن حالها .

– انا ارملة . مات زوجي بسبب سرطان في الدم . كان يشتغل سائقا . لدي ابن وابنة تزوجا وفضلا العيش بعيدا عني . اعيش وحيدة .

– الامر صعب بلا شك .

– نعم ، الوحدة قاتلة .

لا اريد للحديث ان ينقطع بيننا . وهي كذلك ايضا . مدن صغيرة مرت على الطريق . اشجار نخيل بعيدة امتزجت بالغبار . اسلاك كهربائية تتسارع في الحقول . السماء مغبرة بالبارود والغبار المدوم والطيور . اصبحت الطيور مجنونة من الاصوات المفرقعة ومكبرات الصوت النابحة ليلا نهارا . جنت هي الاخرى مثل حالنا نحن البشر . تكلمنا عن الحرب والرواتب والغلاء والعمال المصريين والزراعة والنساء . لاتمر اجمة نخيل او حقل ذرة الا وندخله في الحديث . الطيور ، السبخ ، البناء ، السمك ، الاهوار وحياتها ، الشوارع المزدحمة وانواع السيارات التي وفدت بعد الحرب ، والمكافآت التي تدفع للمقاتلين . بل يمكن القول اننا تكلمنا عن كل شيء في هذه الحياة ، فقط كي لاينقطع الحديث بيننا . كل ذلك طبعا وسط ضجيج الاغاني العالية التي كانت تصدح في فضاء الباص ، وشتائم السائق التي لاتنقطع ، يوجهها الى السائقين الآخرين . الشيء الوحيد الذي كتمته عنها هو السبب الحقيقي وراء زيارتي هذه . من غير المعقول اخبارها انني جئت لمضاجعة غجرية . غير معقول ابدا . ستفكر دون ريب كيف لرجل عاقل قطع كل هذه المسافة وسط الموت والدمار لا لشيء الا لمضاجعة امرأة ؟

وعلى مشارف الديوانية قالت لي هامسة :

– انني اسكن في الاطراف وليس داخل المدينة .

– هل يمكن ان انام عندك ؟

باغتها سؤالي ، مثلما باغتني ايضا لما يحمل من وقاحة . تحيرت

لحظة ، وهي تتطلع في جانب الطريق . وبدلال الانثى الموارب لم تعطني جوابا قاطعا . لم اصدق انني امتلك الجرأة على طرح الموضوع بهذه المباشرة . تصاعدت الحرارة الى رأسي وتوردت وجنتي بالأحمر . وبعد هنيهة صمت عميقة قالت :

– سنرى . ربما سأقول لمن يسألني من الجيران انك صديق ابني ، نزل ضيفا علي .

سلكنا طريقا يحاذي نهرا . النهر الصغير ، يتلاصف بالسمك ويزهو بالبردي . رائحة الطحالب تأتي مع الهواء . على الضفاف نخيل سامق ، وبساتين برتقال . وكانت الاحصنة تلوح في الحقول ترعى الثيل وبقايا العشب والذرة . نزلت السيارة الى اليسار ودخلت في طريق يمر تحت النخيل . طلبت من السائق التوقف امام بيت صغير بابه ازرق . هذا المكان به شبه من بعقوبة . اشجار الرمان وبساتين النخيل واحراش السيسبان ، وذلك الافق البعيد الذي ناءت اليه الشمس . حتى الرائحة متشابهة . ما ينقص المكان حلمي وضحكته المجلجلة التي كان يطلقها بعد قنينتين من البيرة ، متهكما على حياة الفلاحين . ينقصه ايضا معسكرنا الكريه الذي يغص بالبق واصوات الجنود . فكرت وانا اتطلع في الانحاء بالمكان الذي يقع فيه الفوار ، لايمكنني طبعا سؤال ام سعيد عنه . ربما تعرف قصصه ، عندئذ تنكشف لعبتي معها .

كان الدجاج يتمشى امام البيت ، والابقار ترعى في الحقل القريب . رائحة ساقية عتيقة هبت مع هواء فيه شيء من البرودة . وفي الاعلى ، حيث النخيل صوتت حمامات من الوحشة . كنت استعجل الليل . الليل حامل اللذة والخوف والموت الينا ، نحن المساكين الباحثين عن جدوى لحياتنا .

بدأ المساء يهبط مثل ريش . السعف استحال الى تاج مذهب وتصاعدت في افق القرية اسراب البعوض ، تتطاير على شكل كرات ناعمة . تدور فوق السواقي ودواليات العنب وشوك السدة القريبة من

بيت ام سعيد . ذبحت ديكا وراحت تشويه في تنورها المركون داخل الحوش . حوش ام سعيد واسع ، تطل عليه غرفتان احداهما للنوم والثانية للضيوف . تظلل البيت اشجار النخيل السامقة ، وثمة مخزن صغير فيه اواني الطبخ وخصافات التمر والرز والدهن . قدور الحليب تضعها هناك ايضا وكان الجو باردا بعض الشيء فلم نجلس طويلا في الحوش . تناولنا العشاء وشربنا الشاي ودخنت نصف باكيت بغداد . قالت ام سعيد :

– عليك ان تعتني بصحتك ، فلا زلت شابا .

ضيفتها سيجارة فرفضت .

– ابني سعيد حاول كثيرا معي ، لا احبه . دخنت عددا منها ايام وفاة المرحوم . الانسان ليس بحاجة الى الدخان لكي يصرف حزنه . الحزن راكد في القلب هذه الايام . لا يخرج مثل السابق مع الدخان . الاشياء تتغير .

اقترحت علي النوم في المضافة فأخبرتها متملصا انني لم انعس بعد . قالت :

– دعنا ندخل الى الغرفة فهي ادفأ .

مدت لي سريرا في الارض ويبدو انها نسيت اقتراحها حول نومي في المضافة . اشعلت مصباح النفط وعلقته على الجدار قرب الباب . استغربت من انها لم تدخل الكهرباء الى بيتها حتى الآن . هل تحب العيش في الظلام ؟ مضت الى الحوش وعجنت العجين ثم ادخلت الدجاج الى قنه واطعمت البقرات بالتبن والشعير ، وغابت ربع ساعة ثم رجعت ودخلت البيت . لم يزرها احد من جيرانها ، ولاحظت ان ثمة مسافات تفصل بينها وبينهم . هل تعيش ام سعيد بعزلة لهذه الدرجة ؟ ذكرتني بخالتي . لكن يبدو ان كل الفلاحات متشابهات . اقفلت الباب الخارجي ، وجاءت بصحن من التمر جنبه زبدة طازجة . فكرت مع

نفسي انه اذا ضاجعت ام سعيد سأوفر النقود التي سأدفعها الى الغجر . اضافة الى ان ام سعيد امراة مجربة وارملة وتعرف كيف تداري الشباب . كل ذلك فكرت به مرات ومرات قبل وصولي الى بيت ام سعيد . لكن كيف اطلب مضاجعتها ، ومن اي باب اتقرب اليها ؟ كانت تتحدث كثيرا عن المرحوم ابو سعيد . قالت انها ظلت تخاف من النوم وحيدة في الظلام . تتصور ان البيت مسكون بالجن والشياطين والمخلوقات الصغيرة . تفيق في منتصف الليالي لترى تلك الكائنات متشبثة بطرف التخت او جالسة على عتبة الشباك . تفيق مذعورة وتصرخ من الرعب . وحين تستعيد وعيها تجلس في وسط التخت وتبكي . تبكي ابنها الرابض على الجبهة في البصرة وابنتها التي تزوجت عريفا في المدفعية ورحلت معه الى خانقين ورزقت بولد لم تره لحد الآن . كم تمنت الموت لكن يبدو ان الانسان لابد ان يواصل الحياة . يواصل هذه الحياة مهما كانت جارحة ، مهما كانت مملة وموحشة . قررت ان تكون صلبة ولا تتداعى . لو بقيت هكذا ربما تجن في نهاية المطاف . خاصة وهي تسمع من نساء القرية قصص اللصوص . تسمع احيانا طرقات خفيفة على الباب ومخالب تكرج فوق السطح . كذلك الاصوات التي تأتي من غابة النخيل ، توشوش وتوصوص وتغرغر وتعنعن . كانت تظن ان الشياطين تحاول اخافتها لكي تسكن جسدها في النهاية . قالت لم يبق امامي الا الصلاة وقراءة الآيات الطاردة للارواح الشريرة .

كانت ام سعيد تبكي وهي تحدثني عن حياتها تحت غابة النخيل . بقيت حائرا كيف أواسيها . هل اقوم اليها وأمسح دموعها ، ام استخدم الكلام فقط ، وانا لااتقن كلام المواساة ؟ تمددت على السرير وهي تبكي . وكنت اجلس في الاسفل منتظرا ان تسكت من بكائها وتأتي كي تضاجعني . سمعتها تكفكف دموعها وتهمد بسكون .

قالت بصوت ناعم :

- هل يمكن ان تخفض من نواصة الفانوس ؟

قمت وخفضت الذبالة حتى اصبحت بالكاد تضيء الغرفة . جلست في سريري لا اعرف ماذا افعل . هل اقوم الى التخت واندس في احضان ام سعيد ؟ هل انتظر ان تأتي الي ؟ وكنت اترصد اقل حركة منها . وكانت الهواجس تأخذني وتردني حتى سمعت صوت شخيرها . نامت ام سعيد وتركتني يقظا اتقلب على جمر الشهوة الحارقة . ندمت انني لم امض الى الفجر . لم اكن اتخيل النهاية هكذا . تصاعد شخير ام سعيد . وكنت متوفز الجسد . لا اعرف ماذا افعل . نظرت في ارجاء الغرفة ، وقمت من مكاني وامتد ظلي على الجدار . النافذة مغلقة وحفيف السعف يأتي غامضا في الليل . حدقت في ام سعيد . كانت تدير ظهرها لباب التخت . مغطاة بلحاف قطني سميك . ردفها يرتفع مع كل نفس يدخل جوفها . وكنت انظر برغبة . لكن ماذا افعل ؟ هل ادخل تحت اللحاف ؟ لكن كيف لو صرخت او استغاثت بأهل القرية ؟ ستكون فضيحة بحق . ثم لماذا جلبتني الى البيت اذن ؟ لماذا لم تبادر الى النزول الى سريري ؟ هل وجدتني صغير السن مثلا ؟

اقتربت من السرير . وضعت يدي على ردفها بخفة اولا . لم تستيقظ . رحت اتلمس ردفها من وراء اللحاف . كان ثقيلا ، شهيا مكورا . انزلت يدي الى الاسفل وتحسست مفرق الاليتين . انهما مكتنزان . وددت لو اراهما . لو اضع جسدي بينهما فلا بد ان يكونا دافئين . مؤخرات النساء تغريني جدا . ذات مرة حدقت الى خالتي جميلة من شق الباب وكانت تستحم . هالني ما رأيت . حتى انني لم امتلك نفسي فاستمنيت وانا واقف خلف الباب ، في ظهيرة حارة تقتل الحمار . كان جسد خالتي جميلة في تلك الظهيرة اشبه بتمثال من الزبدة البيضاء مغسول بالماء والصابون . بدأ قلبي يخفق بقوة ، في عتمة الغرفة والظلال المتحركة التي يكونها جسدي على الجدران . راح يضرب اضلاعي بعنف . الدماء تصاعدت الى صدغي . تراجعت الى الوراء وأقعيت في سريري . لقد تملكني الخوف . الشخير لايزال يتصاعد من هناك . دخنت سيجارة جديدة وحاولت النوم الا انه لم يطاوعني .

كيف لي ان انام وجسد ام سعيد يتكور تحت اللحاف مثل جبل ؟

كنت اسمع اصواتا بعيدة لكلاب تنبح ، وعواء لثعالب آتية من عند الضفاف ، وهسهسة سعف النخيل المخيم على سطح البيت . التوتر ضارب على القرية . توتر وطؤه ثقيل ، يجعل الروح تصغي الى دواخلها ورغباتها . وانا ، دانخا من حمى الشهوة ، اواجه هذا الجسد ، المكتظ بالأنوثة ، السادر في احلام لا اعرفها . لا اظن انها في هوة نومها تدرك ان عينين خائفتين تحدقان بها ، حائرتين بما يمكن القيام به . علي ان اعاود الكرّة . هذه فرصتي التي لا تسنح ربما مرة اخرى في حياتي القادمة .

اقتربت من السرير . رفعت طرف اللحاف ، قليلا قليلا ، وبدأت المح الثوب المرفوع ، الثوب الاسود الكابت للحزن ، المبلل بالدموع والرغبات المكبوتة ليلة بعد اخرى . رفعت اللحاف اكثر فبان طرف الفخذ عند الركبة ، ابيض مكتنزا شهيا ساخنا مثل ثمرة بلوط خرجت من الموقد توا . كنت منتصبا بشكل غير معقول ، وكانت انفاسي تتدافع ، وعقلي يسبح في ذلك البياض الشهي . على القماش ان يرتفع أعلى فأعلى . عليه ان يرضي فضولي ويشبع رغبتي . تقطّع الشخير . ابتعدت قليلا بعد ان انزلت الغطاء ووقفت ساكنا مثل خشبة وسط الغرفة . مضت ثوان ، ثم انتظم الشهيق والزفير ثانية ورجعت الى مكاني خلف الباب . مددت يدي ورفعت اللحاف اكثر ثم تجرأت وزحزحت الثوب الداخلي . انكشف اللباس وكثيب الردف ، واحسست كما لو انني اغيب عن الوعي . وقفت اتأمل بهذا المنظر ، ذاهلا عما سواه . جسدي صار يغلي ، انفاسي تتدافع . زال العالم عن الوجود واصبح البياض هو كل ما يرى ويعاش ويتنفس . راحت يدي تمسد عضوي بخفة ، وتوحدت عيناي بردف ام سعيد . اصبح ردفها الابيض عالما شاسعا خاليا من اللافتات السود والمدافع واللغة الميتة وزعيق الطائرات وغباوات الفلاحين وعيون الناس المعتكرة بشهوة القتل . اصبح جزيرة مسالمة اعيش فيها وحدي . انغلت البرودة في اللحم العاري ، فما كان

من ام سعيد الا ان رفعت رأسها فجأة ونظرت بعينين غريبتين باتجاهي . مضيت بخفة الى الفانوس المعلق قرب الباب .

– النار عالية في الفانوس وسأخفضها قليلا .

ثم اطبق صمت قاتل .

هل احست بأمر مريب ؟

كنت على وشك بلوغ الذروة . احبطتني عينا ام سعيد فهمد كل شيء . فكرت بالرجال وكيف يضاجعون النساء . هل ان الكلام كاف لذلك ؟ وما هو طبيعته ؟ والغزل الذي اسمع عنه الكثير كيف هو ؟ ما طبيعة كلمات الغزل ؟ ثم سمعت شخير ام سعيد من جديد . الشخير الذي راح يتسع ويتسع حتى شمل الكون كله .

في الصباح لم استطع التحديق بعيني ام سعيد . احسست انها فقدت رونق البارحة . كبرت عشر سنوات عن الامس . وجهها ذابل وعيناها غامضتان تحدقان بخوف ونفور . لم اعرف كيف انهيت طقوس الفطور ولملمت نفسي واتجهت الى الطريق . كان في نيتي الذهاب الى مدينة الغجر فورا . لن اكتشف مدينة الديوانية التي لا اعرفها ولم ازرها سابقا . ما حاجتي لرؤية مدينة مغبرة لاتفرق عن اية مدينة اخرى من مدن العراق . سأجد فيها بالتأكيد شرطة انضباط عسكري ، وجنودا ، ولافتات تنعى قتلى الحرب ، الذين سموهم زورا بالشهداء . شهداء ماذا ؟ وسأجد غبرة وقذارة في الشوارع ، وباعة كباب ومعاليق وسيارات ضباط فخمة . انا لست بطل هذه الحرب . ولا اريد ان اكون بطلا . كيف اكون بطلا وانا استمني كل يوم ؟ هذا ما لم يفكر به قادتنا . ان تكون بطلا هو ان تضاجع امرأة . هذا هو معنى البطولة . كل انسان يمكنه حمل السلاح حتى الجبان ، وتلك بديهة . لذلك مضيت قدما الى هناك . . . .

* * *

- اراك رحلت بعيدا ؟ سألني حلمي بخبث .

- نعم كنت مع ام سعيد .

- من هي ام سعيد ، هل هي غجرية ؟ سألني عقيل .

- كلا خالته .

اجابه حلمي وأطلق ضحكة عالية من ضحكاته الوقحة ، طغت على هدير السيارات والشاحنات واصوات الانفجارات البعيدة التي تلون السماء الشرقية باللون البرتقالي . عجبت لهذه الفكرة التي طرأت لحلمي . كأنه قرأ رغباتي السرية . كيف طابق بين ام سعيد وخالتي جميلة ؟ هل هو الحدس ؟

بعقوبة اختفت منذ زمان خلفنا . لقد رويت لحلمي بالتفصيل حكاية ام سعيد . فاجأني بقوله : انك شاب مخصي . هل انا شاب مخصي فعلا ؟ لم لا ، ربما ، فالاستمناء خصاء من نوع آخر . كل شيء في هذا البلد يهيء لعملية الاخصاء . لذلك سأهرب ، حفاظا على رجولتي . على رجولتي وعقلي وجسدي وذكريات الغجر الجميلة ، بحثا عن تربة اخرى اضع فيها بذوري . اليست الحياة بحثا دائما عن السعادة ؟ والمعرفة ؟ والحب ؟ والمغامرة ؟ . . . .الخ ؟

اختفت بعقوبة ، واختفى معها نهر خريسان والجسران المعلقان على الامواه ، وبساتين الهويدر وبعقوبة القديمة . عرج عقيل الى طريق ترابي يمتد يسارا بين الحقول ، حيث الفضاء من علكة سوداء ، ولا تظهر في الافق الا ذبالات صغيرة لبيوت شبحية نائية بين النخيل او بساتين الرمان . غبار يتراقص على ضوء المصباح . تمرق بين حين وآخر ارنب مسرعة او ثعلب فاجأته رائحة البنزين وازيز العجلات في هدأة الليل . الغجر مرة ثانية . الغجر مرة ثالثة ، ورابعة ، والى مالانهاية . هكذا اذن . يبيع الانسان ثورا ويتحول الى متعهد . مقاول من طراز رفيع . فكرت كثيرا في قصة عقيل التي رواها لنا بمرح . استمتع جدا في

روايتها . باع ثورا واتفق مع احد الضباط من اقربائه كي يمنحه تعهد بناء حمامات لاحدى الثكنات ، على ان يشتركا بالربح مناصفة . بعد الحمامات احال له رحبة عسكرية ، ثم سارت الامور ، واليوم تعهداته بلغت الملايين . لم يكن عقيل يحس بالحرج . بالعكس كان يتكلم بفخار . الغش شطارة ، والتقرب من السلطة يمنح الانسان قوة مادية . انه زمن الكلاب الشرسة التي تتقاتل على غنائمها .

– نحن نقترب منهم ، الحبايب قادمون .

قال عقيل ثم انعطف الى اليمين في طريق منبسط ، يستقيم في ارض سبخة على امتداد النظر الذي تتيحه مصابيح السيارة . الهواء حمل نقرات خفيفة متقطعة . لم نلمح بيوتا . اجتزنا وهدة خفيضة فيها نبات زل وشوك وعاقول . بانت البيوت الصغيرة المصنوعة من الخيم والجنفاص ملتمة على نفسها . في الوسط خيمة هي الاكبر في المخيم . الى هناك توجه عقيل بسيارته . وصل على بعد امتار فقط من الواجهة . لم نر اطفالا او حميرا او نساء . المكان مقفر . لاينبعث الضوء الخافت الا من باب الخيمة الكبيرة . من يصدق انه وسط فوضى الموت الضاربة في المدن يوجد مكان ناء يقدم المتعة للناس ؟ الهذا هو مختف عن الاعين ؟ لم يعد مسموحا لاحد اظهار السعادة او الفرح . ضربت الحرب ضربتها لدرجة ان الفلاحين انفسهم لم يعودوا يهتمون بحقولهم . لم تعد تسعدهم ولادة بقرة او صبي ولا يناعة حقل الذرة . لم تعد تسعدهم الاعراس ولا كؤوس الشاي المقدمة في الليالي المقمرة . فتوقع وصول جندي قتيل بين دقيقة واخرى اصبح احساسا مشتركا لدى الجميع . ربما الغجر وحدهم لاينتظرون وصول الموت . لهذا يراهم المرء سعداء ؟ الغجر يكرهون الحرب ولا يهتمون للمنتصر ، فهم غجر في هذا الجانب او ذاك . يرقصون هنا وهناك ، يدقون الدربكة ويعزفون على الرباب ، في السهل والجبل ، عند النهر وعلى الهضاب . تذكرت مقولة جدي عن الغجر ، احفاد جساس . هذا يعني انهم عرب مثلنا ، الا ان ثأر المهلهل ظل ساريا وتوارثوه جيلا بعد جيل . جاءت اديان ورحلت

اديان ، بنيت حضارات وبادت اخرى ، وفد غزاة وذابوا ولكنهم لازالوا ابناء الدربكة والرباب . لا يسألون نساءهم اين كنتن بل ماذا جلبتن ، كما يؤكد جدي!!!!

* * *

لوحة ملونة ، مصنوعة من لحف مزركشة ، وبسط ممدودة على الارض ومخدات مرسوم عليها طيور وأدعية وحجول ووعول . وعلى الارض سجاد من القش عليه مفارش ملونة من الصوف . الافرشة على مدار الخيمة ، وثمة عدد ضئيل من الرجال يجلسون بأبهة ، شواربهم السود تدل على الغنى .

استقبلونا بترحاب . ربما لانهم عرفوا حلمي وعقيل من قبل . اجلسونا في صدر المجلس . عرّف عقيل بنا باعتبارنا مثقفين ، وهذا ما ضاعف الاهتمام ، سواء من الجالسين او من الغجر . هناك ثلاث نساء بكامل زينتهن ، جالسات مع الرجال ، يتبادلون الهمس والضحكات . ملابسهن ضلوع بنت الريف ، تشع بأضواء اللوكس الذي ذكرني بلوكس حسن ابن مختار الحامضية .

في ذلك الليل ، وانا احدق الى الراقصات وسط الخيمة وهن يتلوين ويهززن بشعورهن ذات اليمين وذات الشمال ، حملني صوت الرباب بعيدا الى جزيرة نائية ، جزيرتي التي ظللت احلم بها منذ دهور . انا نورس مهاجر ، تسحره الأمداء الزرقاء والغابات والمدن . انا ملك الاستمناءات المحرمة والمتلصص الكبير على افخاذ النساء ، والكاره الفذ لهذا المكان المميت . قررت ، وانا امتص سيجارة البغداد ، وانفث الدخان الى هواء معبأ بالبخور ورائحة النساء والعرق ، قررت ان امضي الى الجبال . الجبال التي لا يعود منها داخل . منها سأندفع الى ارض الله الواسعة . سأودع القرية وفنادق بغداد وغجر بعقوبة ونهر خريسان والفرات ودجلة وسماورات الشاي ، لأنقذف في الهواء مثل اطلاقة . سأنهي الموضوع مع حلمي هذه الليلة . ينبغي علي ان اترك البلد ،

واغامر بحياتي ، وابدأ رحلة الفجر ، رحلة التشرد بشجاعة ، ودون وجل . لا ، لم اعد احتمل ، تلك الحياة البليدة ، حياة العقرب المحاصرة بدائرة من النيران . سأمضي الى واحدة من تلك القرى التي حدثني حلمي عنها . اعيش في شعاب الجبال ، وسأدافع عن وجودي بكل الوسائل .

كان حلمي ينظر الى وجهي خلسة ، بين الحين والآخر . يقرأ في تعابيره القاسية ، الغاصة بالمعاناة ، تلك الصراعات الداخلية المؤلمة ، التي تعزل المرء عن محيطه . فكر حلمي دون ريب ، انني لااعرف عنه الا القليل ، الا السطح . لا اعرف حقيقته لانني من طينة نظيفة ، اقرأ رموز السطح لا القاع . صحيح انني امتلك حاسة ذكية في ترقب الخطر والشعور به ، الا انني ابتعد حالا ولا اواجه الامور . هذا دون شك رأي حلمي بي . لابد انه يهدس بهذا . وربما فكر ايضا انني شخص خائف ، وقد خبرني في الايام الفائتة ، اثناء وقوفي امام العقيد طالب او حديثي مع اناس غرباء ، وفي بارات بغداد وبعقوبة . لااثق كثيرا بأحد ، لذلك لااختلط مع الآخرين الا ماندر . انظر وامشي . لكنني شخص موثوق . حدثته عن القرية وحياة اقربائنا الرتيبة في الحقول والزراعة وحدثته ايضا عن الفجر الذين كنت اعشق لياليهم . بل وأطلعته على مغامراتي الجنسية في التلصص على القرويات في بيوتهن وملاحقة الصبيات ايام الأعراس . قلت له يوما ونحن نتمشى على ضفة خريسان ليلا : تعبت من هذه الحياة وكرهت الاستمرار بها ، لايمكنني رؤية الظلم او الدجل واظل ساكتا ، وهذا ما سيقودني الى حتفي . قلت له ذلك وفي ذهني المشاكل التي سببتها لخالتي جميلة ، وفضح علاقتها مع رحمن .

يمكن لحلمي ان يطلعني على السر اذن ، فهو من اولئك الاشخاص الذين يتحدثون عن انفسهم بوضوح . قال بحذر وهو يحتسي كأس العرق ويدس يده في صدر الراقصة التي جلست امامه على مفرش من الصوف :

- متع نفسك فلا نعرف بأي جبهة سنموت .

- لا ، انت واهم ، فأمثالنا لن يموتوا . . . . . دائما هناك طريق .

دخنّا كثيرا واحتسينا العرق ومتعّنا أبصارنا بأجساد الراقصات وأسماعنا بأغاني الغجر . ظل صوت سماهر يتردد في الآفاق متسربا مع الفجر القادم من الشرق :( اسرع من الذيب واخف من الهوا العالي ، اجيك تالي الليل يالعذبت حالي . . . .حالي يمه ، حالي بويه ، حال الولف حالي . . . . كركي بلجبال) . عمود الخيمة في الوسط ، يحمل لوكس الضوء . هنا ايضا بعوض مثل ذاك الذي كان يحوم في ساحة المختار . هل هو نفسه ؟ حسن يرقد الآن في قبر بارد خارج القرية ، هو وراقصاته والحكايات التي دارت حوله . قتله الأكراد في ليلة باردة بينما كان يحرس الربيئة . ربما قتله حلمي الجالس معي ، لم لا . فالدنيا مصادفات عجيبة . القتل صار في كل مكان ، ولم يعد نادر الحدوث وقت موت حسن . اجلست غجرية امامي ، ورحت اداعب يديها ، الا انني لم اعرف بم احدثها . الملعون حلمي بارع في الحديث مع الغجريات ، لا اعرف من اين يأتي بهذا الكلام . يحدثهن عن العطور وما يعجب الرجال في المرأة وعن الحلي ، والزواج ، والحناء والشعر وكيف يسرح . كن يستمعن له بلذة . أما انا فلا اجد في رأسي سوى الافكار ، حول الحرب والسفر والكتب ، وهي امور لاتفقهها الغجريات حتما .

ابعد من غابة النخيل المظلمة ، وباتجاه مندلي ، اول مدينة على الحدود ، جنود متأهبون للقتل او نائمون منهكين من الاستطلاعات الليلية . اشعة الفضة المنسكبة من علياء النجوم الشاحبة حملت لنا يوما جديدا ، وان كان لايختلف عن الايام السابقة ، الا انه كان يوما مفصليا في حياتي . قررت بعد ان تركنا الخيمة الكبيرة وركبنا البيك أب منحدرين في هواء رجراج وأرض شاحبة ، في الطريق السابح بالعتمة والسيارة المتجهة الى بعقوبة ، قررت ان افاتح حلمي برغبتي في

الرحيل . في التحول الى غجري باحث عن وطن بديل ، عن حياة اكثر متعة وأمانا . لم تعد الشاحنات العسكرية المارقة نحو الحدود الايرانية تعني لي شيئا ، ولا المعسكر ولا عائلتي ، ولا الاحلام التي حلمتها ذات مرة في تأسيس عائلة وشراء سيارة وبناء بيت . اصدقاء الطفولة وطرق القرية ودخان البيوت الخارج من التنانير ، وحقول الذرة وجلسات مقهى البرلمان وفندق محمود والغجر وخالتي جميلة ، كل ذلك علي اختصاره الى طريق طويل يأخذني اليه حلمي ، طريق يقود الى الجبال . . . .

– أهم ما في الليلة ان يكون الاستاذ ضايع الجريان قد استمتع بالكاولية .

– هذه الليلة من اجمل الليالي التي عشتها .

– اجمل من ليلة ام سعيد ؟ قال حلمي متسائلا غامزا ، وتطلع في عيني .

– قل اجمل من الفوار . لابد ان نفتقدها ذات يوم . اعني في الأيام القادمة . هذا الفجر الرائع وتلك البساتين البعيدة المعتمة ، وأصوات الأغنام وهي تمضي الى الفلاة ، ومخيمات الغجر في صحراء بعقوبة ، كل ذلك جميل ورائع ، خاصة حين يكون الانسان سكران . سكران من الخمرة ورائحة النساء والحان الرباب . لكن في لحظة معينة تحس انك ستفقد كل شيء . كل ذلك الجمال الذي عشته يوما وتمتعت به . اجل ، نهر خريسان رائع بأمواهه ، جسر بعقوبة خرافي ، العقيد طالب انسان له روح فلاحية رغم انه عقيد . السمك المشوي بين بساتين البرتقال والبيرة المثلجة وسكرة مجنونة مع شخص اسمه حلمي . كل هذا يدعوك للبقاء . لان تستكين الى هذه الحرب وتقول لا يصيبنا الا ما كتبه الله لنا . لكن من جانب آخر تظل تحلم ، ان تمضي وتترك كل شيء وراءك . تبدأ حياة جديدة ، وتعاشر اشخاصا آخرين وترى مناظر أخرى .

– انك سكران بلا شك . قال حلمي ونظر الي باندهاش .

- لست سكران ، وسأحدثك عن كل شيء .

دوّى انفجار في مكان بعيد ، رج السيارة البيك اب من تحتنا . تبادلنا النظرات . لا يمكن ان يكون هزة ارضية او قصفا لطائرة . اهتزت الكثبان الرملية الخفيضة وطارت قبرات نائمات ، وزحف حرذون صغير الى غار تحت نبتة حلفاء . غاب مخيم الغجر ، خلف خط الافق ، وتدلت فوقه نجمة الصباح . قال المقاول عقيل بشيء من الفرح : هذا بالتأكيد صاروخ ارض ارض . كأن الانفجار اعادنا الى انفسنا ، الى حقيقة اننا نعيش في اتون حرب ، وليس في نزهة . وما كل ذلك الفرح الذي مر امامنا الا لحظة حلمية مضت ، وعلينا ان نلوذ ، مثل حرذون ، الى غار يحمينا من الاهتزازات المفاجئة وفظاظات الارض التي نمشي عليها . نستقبل اليوم الجديد بحساسية قديمة .

وكانت السيارة تخترق الهواء بخفة ، كما لو كان نفقا من الزبدة .

* * *

حيّرني فتى كركوك كثيراً . كان يجالس كاكا طه ، صاحب الفندق ، ساعات ، في الليل خاصة . يجلسان كالعادة في مدخل الادارة ، الذي تفوح منه رائحة العرق النفاذة . كان كاكا طه يلبس الشروال الكردي دائما . شخص سمين ، عيناه جاحظتان ونظراته حادة . اجلس انا في الغرفة ، وهي تحتوي على سريرين فقط ، اقرأ كتابا او مجلة ، وأسمع دردشة حلمي مع كاكا طه ، واعرف انهما يحتسيان العرق . يحتسيان العرق ويثرثران واقوم انا الى مكتبتي الصغيرة ، وهي تكتظ بالمجلات التي اشتريها بين حين وآخر ، كمجلة الاقلام والطليعة الأدبية وطبيبك ، وبضع كتب من ادب الرحلات . انني احب كتب الرحلات ، فهي ترفعني الى خارج السور ، وتجعلني اعيش في ازمان ثانية ، تبعد مئات السنين ، كما جرى ذلك مع كتاب رحلات ماركو بولو . تمتعت ايضا برحلة ابن بطوطة وما شاهده خلالها من عجائب الأمور . وكم حلمت بكتابة سفر طويل عن رحلات سأقوم بها مستقبلا

في بقاع الأرض . ربما هذا ما جعلني اجرب كتابة الخواطر الأدبية والمذكرات اليومية ، تلك الوريقات التي امزقها فور انجازها كونها لا تحمل اي قيمة ادبية . كنت اقوم بكل ذلك اثناء غيبة حلمي مع كاكا طه ، الرجل الغامض الذي لن افهمه مطلقا .

كانت نظراته ترعبني ، ففيهما شك عميق بالآخرين ، وطاقة لاختبار اعماقهم . في بعض الليالي يأتي جنود متأخرين لينام في الفندق ، اولئك الذين جاءوا في اجازات من الجبهة وتأخر عليهم الوقت . عندها تتصاعد الضجة بشكل قاتل فلا استطيع النوم . دقات بساطيل على الارض وحوارات وضحك ونداءات . هذا ما كان يجعلني العن الساعة التي قامت بها هذه الحرب . اسأل حلمي عن الامر حين يعود ويجدني ساهرا فيقول لي انهم جنود من البصرة ، او من كركوك ، او من سامراء . جنود من كل المدن . اما راجعون من الجبهة او ذاهبون اليها . وفي ليالي اخرى ، ويكون حلمي قد نام وأرقت انا ، اسمع من غرفة الادارة وشوشات وهمسات ، وحركات مريبة ، حيث تتصاعد رائحة العرق في الجو . اقول لنفسي لابد من ان يكون ثمة امر مريب . اقرر سؤال حلمي عن الامر فهو اعرف بصاحبه مني ، كاكا (ط) ، كما كان حلمي يردد اسمه ساخرا اكثر الاحيان . والغريب انه يناديه هكذا بعض المرات فلا يغضب .

يقع الفندق في زقاق جانبي ضيق متسخ دائما وكأن البلدية لاتمر به اطلاقا . بابه كئيب يصعد اليه المرء بدرجات حادة الميل . اول ما يواجهه الادارة ، المكتوبة على قطعة كارتون معلقة فوق رأس كاكا ط ، والادارة عبارة عن طاولة عليها تلفون اسود ، ودفتر سميك يسجل فيه الكاكا اسماء النائمين . من الادارة ينفتح ممر ضيق تتوزع فيه الغرف ، وهناك غرفة صغيرة خلف الادارة هي لصاحب الفندق ينام فيها . قال لي حلمي ان كاكا طه يبدأ نهاره في الساعة الخامسة صباحا . يوصي ما ان يستفيق على طبق باجة ، مع الليمون والبصل . ينهي طعامه ويحتسي كأسين من الشاي الثقيل ويدخن سيجارتين بعدها يعد العدة . سألت

حلمي عن العدة فقال انها لتر من العرق ، يسكبه الكاكا في سطل صغير ويضع فوقه الماء والثلج ، ثم يجلب اللبن الرائب واللبلبي والفواكه او السلطة ، ثم يبدأ بعب العرق في الساعة السادسة تقريبا ، وذلك بكأس من البلاستك يشبه كؤوس الشاي . هكذا يبدأ يومه وانت تعرف كيف ينتهي .

سألت حلمي وما حكاية الليل لدى الكاكا ؟ قال انه ما ان يأتي الجنود حتى يبدأ التودد لهم ، خاصة الشباب الصغار . تعرف ان بعضهم لايملكون كثيرا من النقود لاحتساء الخمرة ، كونهم قدموا توا من الاجازات . يبدأ كاكا طه بتقديم كأس صغير للشخص الذي يعجبه ، من السمر المرد الذين لم تتجاوز اعمارهم العشرين سنة . يقدم الكأس الاولى مع المازة ، ثم تجر الثانية ، ويطلب من المعني تغيير ملابسه والمجيء لمشاركته الكأس . وحين ينفذ الشاب الامر يعرف الكاكا طه ان شبكته قد احكم نصبها . يظل يشرب ويسقي الشاب حتى ينام القاطنون . تنقطع حركة الزبائن فيغلق الباب ، ويدعو الشاب الى غرفته . هناك يكملان الشرب . يجس الكاكا النبض اولا ، وذلك بمد يده الى الصدر او الخدين ، وكأن الأمر حركة ملاطفة اخوية او صداقية . اذا تقبل الشاب ذلك يطمع الكاكا اكثر ويسقيه كأسا ثقيل العيار ثم يمد يده الى صدره ويبدأ بفركها او الى فخذه او مؤخرته . عندها اما ان تمضي الامور كما يريد كاكا طه ، او اذا كان الشاب نابها يتخلص بخفة . واذا زاد كاكا طه عن حده فسرعان ما يأكل لكمة على وجهه او عينيه ، وقد حدثت مشاجرات كثيرة قبل ان تسكن انت في الفندق . يتحول في تلك الحالة الى جرذ . وكثيرا ما رأيت كدمات على وجهه وكنت استغرب الموضوع . يخنس وراء مكتبه او يغلق على نفسه الباب ويحتج بان القضية لا تعدو ان تكون سوء تفاهم . فهو لايقصد امرا معيبا . لكن لا احد يصدقه . يجلس وراء طاولته مثل ضفدع كئيب ونادرا ما يفتح فمه . يجلس مثل مسطول بمفعول الحشيشة او المخدرات . اما اذا ضبطت الحركة ونال مبتغاه فتراه في الصباح وقد

استحم ولبس قميصا جديدا وشروالا جديدا ، حليق اللحية ، معطرا ، يمازح الجميع .

اخبرت حلمي انه جلب لي ذات يوم ربع عرق الى الغرفة ، وقال انه هدية مني بمناسبة سكنك الجديد في الفندق . انه بالون اختبار ، قال حلمي ، فلا تعطه ريقا حلوا والا ازعجك . لقد حاول معي في البداية ، وهو يحاول مع الجميع ، لايفرق بين شخص وآخر . اي انه يمارس ويمارس عليه ، وأظن ان له علاقة بشرطة الأمن . وبعد ان انهى حلمي تقريره حول الكاكا طه قال لي قبل ان ننام :

– حدثني بمغامرة الفوار ياضايع وبحذافيرها . ليس لدي رغبة بالنوم ، قنينة العرق لم تفتل لي رأسي كما يجب . كاكا طه نام باكرا هذه الليلة وربما لم يقع على شريك مناسب . وغدا يوم جمعة ونوم القبر الازلي ينتظرنا وسنملّ منه . احاديث النساء تخلب عقلي .

قلت لحلمي : اسمع اذن . . . . .

* * *

ليلة ام سعيد كانت مغامرة فاشلة .

فكرت ان كثيرا من الحكايات التي سمعتها من اصدقائي ، بمن فيهم انت ، بل وحتى من رجال القرية ، حول جرأة النساء كاذبة . ام سعيد ربما جلبتني الى البيت لتزيل وحدتها وليس رغبة فيّ . فهي لم تعد شابة ، والهموم انستها الرغبة حتما . كان علي ان اعرض عليها نقودا للمساعدة . على اية حال فتلك الليلة اختبار لرجولتي . في الديوانية كنت مترددا في السؤال عن السيارات التي تذهب الى الفوار . الأمر مكشوف ، فمن يذهب الى الفوار غير طالبي اللذة ؟

شاهدت مدينة الديوانية نظيفة عكس ما تصورت . هل زرتها سابقا ؟ تسري فيها رائحة السمك الهابة من الفرات . تخيلت ان الفرات يفيض كل ليلة ، بعد ان ينام الناس ، ويغسل الشوارع . هذا هو المبرر

الوحيد لمدينة نظيفة . مشيت في شوارع هادئة ، ولاحظت النساء اللابسات عباءات سودا ، والرجال الذين يرتدون اليشامغ والعقل الغليظة . لهجة المدينة حادة وغير مألوفة على اذني . قوارب تمر في النهر ، وذباب يطير على صفحة الماء . ثمة احساس غريب في صدري ، فأنا اسير في مدينة لايعرفني فيها احد . اتطلع في الوجوه عسى ان اقع على شخص اعرفه . هذا الاحساس ظل يراودني في بعقوبة وبغداد ، فأذني تبقى متأهبة مترقبة . سينطلق صوت من الحشود صائحا : ضايع الجريان!! باسم في الديوانية ، قيس في الشامية وحدثني كثيرا عن الفوار . كما حدثني عن سفراته الى الأهوار التي راح يتجمع فيها الهاربون من الجيش والمعارضون السياسيون للسلطة . باسم وقيس درسا معي في الجامعة . تخيلت الهور مسطحات مائية تكسوها نباتات البردي والقصب . تخشخش فيها الخنازير البرية والجاموس . الخنزير البري يخشخش في البردي . هذا مقطع من قصيدة سعدي يوسف . كان يرن في ذهني وانا امشي . هل قرأت لسعدي يوسف ؟

كانت الشمس القة والسماء ناصعة الزرقة .

حشود من الفلاحين والعسكريين الذاهبين الى الجبهة او القادمين منها . نساء يبعن اللبن الخاثر والجبن ، حفيدات للسومريين بوجوههن الوضاءة وملافعهن السود المزينة بالذهب . الخريف في الديوانية معتدل الحرارة . رطوبة الاهوار والارض المالحة تؤثر على المناخ ، وكذلك بساتين النخيل . جسد ام سعيد لم يزل في خيالي . الغريب انه كلما صادفت امرأة اعتقدت انها هي . هناك وجوه نسائية كثيرة موشومة عند الحنك ، والسمرة طاغية ، والعيون السود ملتمعة بالشهوة والرغبات . في الشارع اكتظاظ للحمير التي تجر العربات ، والحمالين والدراجات الهوائية والسيارات . جنود ورجال انضباط وسيارات عسكرية محملة بالجنود . ينزلون من المعسكرات القريبة للتسوق . وفي الهواء رائحة شواء ، منطلقة من مناقل مطاعم الكباب والتكة والكبد . لا ادري لم شعرت انني غريب ، وان كل المارة يحسّون بذلك . ربما بسبب عدم

معرفة الناس بي ، وربما لأنها كانت مدينة اشاهدها للمرة الاولى ، او لانني انوي الذهاب الى مدينة سرية لايذكرها الناس بطمأنينة . مدينة اللذة النائية على بعد بضعة اميال من هنا . كان الغجر جزءا من حياة الناس ، فلماذا يحاولون اخفاءهم ؟ سألت نفسي مفكرا بالامر . هل اعتبروا ان حالة الحرب التي تدور في الشرق تستدعي الانصراف الى امور الحياة الاساسية فقط ؟ اللهو والطرب والجنس دلالات الميوعة . وربما تم الاستفادة من رجال الغجر ايضا في الجيش ، وصار لزاما توفير مسكن ملائم للنساء والاطفال .

لقد بنوا مدنا على شاكلة الفوار في كل من البصرة والموصل . لكن في بعقوبة ظلت خيام الغجر عامرة . يرتادها الشباب والرجال للتسلية وسماع الأغاني ومشاهدة الرقص . هكذا حدثتني انت عنها . قلت لي انك ستمضي الليل مع الغجر . انهم على اطراف مدينة السعدية . رغم ان السعدية ليست بعيدة عن جبهة الحرب . كم غيرت الحرب اشياء في هذه الحياة . وجعلت البشر يعاقرون الموت والحزن بدلا من تمضية الايام بالرقص والفرح والمتعة . لكن مالاحظته في هذا الوقت الذي عددته عصيبا ، ان البشر لديهم هاجس المضاجعة اكثر من قبل . شعور مضاد لغريزة الموت التي اشاعتها الحرب في اعطاف الناس . كثيرون يلهثون وراء المرأة ، وكثيرات تسيل الشهوة من عيونهن مثل الكحل . سمعت ايضا ان بيوت الدعارة زاد عددها في بغداد . لن انسى المشهد الذي رأيته في علاوي الحلة ذات يوم . كانت الساعة تقارب التاسعة مساء . نزلت من الفندق لأتسكع في الشارع ، حيث باعة الطعام واصحاب المحلات التي تقدم العصير والمتسكعون الذين يزجون الوقت . رأيت حشدا من الشباب يمشون بعجلة ، وثمة امرأة بعباءة سوداء تتقدمهم . امرأة تبدو عليها سيماء العهر ، وهي تتلفت مذعورة ، من انفاس الماشين خلفها . هذا يغمز لها بالكلام وذاك يساومها على سعر الليلة . مشيت مع الحشد لأرى مايجري . لم التقط من تقاسيم وجهها سوى الخوف . طاردها الحشد الذي كان يكبر ويكبر ، من المتحف الوطني الى

ان انحدرت الى محلة الذهب . وفي لمحة خاطفة رأت تاكسيا يمر فركضت نحوه ودفعت جسدها في الداخل ثم اغلقت الباب ومرت السيارة مثل اطلاقة . ظل الحشد في مكانه يتبادل النظرات والأسف على هذه الفريسة التي فلتت من بين يديه .

الشباب تحولوا الى ضباع كاسرة . عليهم الاستمتاع قبل ان يموتوا . كثيرا ما سمعت البعض يقول بأسف : خسارة ، مات قبل ان يرى امرأة . اذن الموت مقبول لكن بشرط ان يشبع الرجل من المرأة . انها فلسفة نكحية متميزة في بلدنا .

بعض الأباء الحكماء راحوا يزوجون الجنود الشبان بسرعة . ابي لم يكن حكيما ، رغم انني لم افكر بالزواج حتى اللحظة . افكر بالهروب . هل اصبح للآباء حدس عميق بموت ابنائهم ذات يوم ؟ ام ان الحياة هكذا لا تتوقف ، رغم عاصفة الموت التي بدأت تهب وتهب . الحياة لن تتوقف . سيكون هناك اعراس وزيجات ومواليد وافراح صغيرة تطفو على مياه الحزن الهادرة مثل سيل . كانت هذه الافكار وغيرها تسري في رأسي . سألت مجموعة من الرجال يلبسون الدشاديش ، وعلى رؤوسهم الغترات ، كانوا واقفين جنب سيارات تاكسي ، عن الفوار ، فأشاروا الى سيارة متوقفة جنب رجل يبيع البيض المسلوق والبطاطا المقلية . رائحة القلي كانت تهيم على عربته المزينة بالبقدونس والرشاد وحبات الطماطم .

– عجل عجل ، قال السائق ، انت محظوظ ، اكتمل العدد ، هيا .

حشرت جسدي في المقعد الخلفي مع رجلين آخرين ، كان بينهم واحد من الفلاحين . لكنه فلاح موسر . حليق اللحية والشاربين ، يرتدي غترة بيضاء نظيفة ، ودشداشة بيضاء ايضا وعقالا اسود بشرشوبة واحدة . عباءته من الصوف حمراء ذات نسيج دقيق . عباءة صوفية كالتي يمتلكها ابي ويضعها ايام الاعراس والزيارات والولائم المهمة . كان الرجل يحدث الجالسين عن امور السياسة قبل دخولي .

– منهم لا من غيرهم . هم الذين سببوا لنا هذه الورطة . ليس لديهم ذمة ولادين ، لايحترمون عاداتنا . كلنا مسلمون ، لكنهم اختاروا الخروج عن الطريق الحق . لولاهم لما قامت هذه الحرب ، فهم الذين وقفوا مع ايران وشجعوها على التحرش بنا . اتعرفون انهم لايمانعون من مضاجعة اخواتهم وامهاتهم ؟ اعوذ بالله . تخيل ناسا لايؤمنون بالله ، كلامهم ناعم لكنه مسموم . قال ماركس وحكى لينين ، ما لنا وماركس . نحن نملك عمر بن الخطاب والامام علي بن ابي طالب والقيادة الحالية التي على رأسها الرئيس . كلها افكار مستوردة ، وكأنهم يعيشون في موسكو وكوبا ، لا في هذا البلد الذي منّ الله عليه بالخيرات . قال الصراع الطبقي وحكى الصراع الطبقي . والغريب انهم يدعون الى تحرر المرأة . المرأة لها الحق في تطليق زوجها ، او لها الحق ان لاتتزوج . كيف ؟ هل نحن في لندن ، ياعالم!!!

كان الرجل يتكلم بلا انقطاع . يلعب بخرزات سبحته البايزهر كأنها تميمة ، او لسان آخر يساعده على اختيار الكلمات والأفكار . السيارة تخترق تخوم المدينة بعد ان عبرت الجسر . مضينا اذن في الاتجاه المعاكس تماما لبيت ام سعيد . المسكينة ظنتني سأمضي الى بغداد . امرأة جاهلة . البساتين تتكون من النخيل والبرتقال والعنب ، وحقول حنطة محصودة ، وتمر على الشارع بين حين وآخر قوافل من الحمير محملة بالحطب او الحشيش ، تتبعها فلاحات مرتديات عباءات سودا ويضعن صررا على رؤوسهن . كن يقفن جانبا كلما مرت سيارة حذاءهن . المدينة تنأى قليلا قليلا ، والطريق يصبح ترابيا يثير الغبار . الشمس فعلت فعلها في الارض . الجفاف واضح ، والأشجار خفت ولايلمح سوى عروق حلفاء او طرفاء . امتدادات شاسعة من الصفرة ، لاماء في هذه البيداء الجنوبية البعيدة . في امتداد اميال تراءت بيوت شعر سود وخمنت انها لبدو ، لكن لا توجد جمال جنبهم . اكثر من ثلاثة بيوت تسيّل سوادها مع السراب وحرارة الشمس التي صارت محسوسة . يواريها الغبار بين فترة واخرى لتعود رجراجة سائلة من

جديد .

مصير الغجر مثل مصير البدو ، هم في طريقهم الى الزوال . هكذا ورد في خاطري .

تذكرت قصة لكاتب من البصرة اسمه محمد خضير ، عنوانها تاج لطيبوثة . القصة تحكي عن موت صبية بدوية بفطر سام . كانت الصحراء التي أراها تشبه اجواء تلك القصة ، وفكرت انه يمكن ان اكتب خاطرة مشابهة عن هذه الرحلة . رحلة الفوار اسميها . وستكون عن اختفاء الغجر في هذا البلد المليء بالقتل والحروب والاحزان . لكن من يهتم لخاطرة عن الغجر في بحر هذا الضجيج المصنوع من توابيت ومدافع واشلاء وسواتر ترابية وطائرات ؟ سيختفي الغجر الحقيقيون ، اجل ، لكنهم اولاد الكلب ، سيحولوننا جميعا الى غجر . ان تكون غجريا هو ان لا تستقر في مكان ، تعيش حياتك راكضا من مدينة الى مدينة ، ومن منطقة الى منطقة . اذن الجميع هنا غجر . الجنود ، المقاولون ، الحزبيون ، المعارضون ، النساء ، بل حتى الطيور ، تحولوا الى غجر . الضباط غجر ، الطيارون غجر ، ام سعيد غجرية هي الاخرى .

راحت منازل الغجر الحقيقيين تلوح في الافق . وهذا الفلاح الموسر لم يكف عن الحكي .

– انها مدينة الفوار ، قال الرجل الانيق . الغجريات اصناف . هناك بيوت تقدم دقا ورقصا . تتمتع ساعة او اكثر مع كأس من البيرة ثم تدفع المقسوم . بامكانك ان تلمس قليلا ولكن دون ان تتعمق . وهناك بيوت مخصصة للمضاجعة ، تدخل من اجل قضاء وطرك مع امرأة الدار . وهناك غجريات للقبل واللمس والتفريك ، لكن دون مضاجعة . هناك الشابة والمرأة الناضجة والعجوز الكبيرة . نعم حتى العجائز يصبحن مرغوبات احيانا من بعض الرجال . العجوز لديها خبرة وتهتم بالرجل ، خاصة اذا كان شابا . كما ان هناك محلات تبيع البيرة على الواقف . ومطاعم للأكل . الزبائن من كل صنف ولون ، من مدن العراق اجمع ،

لكن في الفترة الاخيرة كثر الجنود . هؤلاء مساكين يظلون قابعين في المواضع اسابيع دون امراة ، لذلك تراهم ما ان يأخذوا اجازة حتى يأتوا الى هنا ليطفئوا ظمأهم قبل ان يروا عوائلهم . انهم ابطال ، والله ابطال جنودنا هؤلاء . ليت الدولة تصدر امرا تجعل فيه متعتهم بلاش . يستأهلون ، هؤلاء الصناديد .

. . . . . على حساب الرئيس ، كدت ان اقولها له ، الا انني لم اجرؤ .

* * *

بيوت الفوار كالحة ، مبنية بالطابوق الأصفر المجلوب من المعامل المحيطة بمدينة الديوانية . لون الابنية يشبه لون الصحراء المحيطة . الغبار يصبغ الجدران وليس هناك اشجار واضحة . علب صفراء تسورها الرمال والتربة السبخة والملح . هل حقا هؤلاء هم الغجر الذين عرفتهم ؟ الغجر الذين كانوا يجينون القرية راكبين حميرهم ، ملابسهم ملونة ونساؤهم يعلكن اللبان بمتعة ويطلين شفاههن بعود الدارسين ؟ نعم ليس هناك حمير قرب البيوت ، ولاخيام ولوكسات تفجر الضوء في جسد الليل . ليس هناك اشجار يوكالبتوس وتوت ولا حمام . القبّر يطير في الجو والغربان بعيدة في السماء . الصفرة طاغية . هل تقدم هذه المدينة الخربة متعة لاحد ؟ واي مصير كالح وقع فيه الغجر ، ووقع فيه اولئك الذين ارتبطت طفولتهم بالدربكات والرباب وأسنان الذهب اللامعة وحب الهال والقرنفل ؟

لم تكن مدينة بالمعنى الذي اعرفه . شوارع فيها بيوت من طابق واحد . بعض البيوت غير مكتملة ، لذلك بدت مثل فم مهدم الاسنان . تلال القمامة تنحشر في الزوايا . ذباب كثير يطن على القمامة او في الهواء . اعمدة كهربائية وأسلاك غير منتظمة تمتد الى البيوت . الشوارع خالية . الاشخاص الذين يظهرون مثل لمح البصر ويختفون ، اعطوا انطباعا انهم اشباح . اشباح هذا المكان ، يدخلون الى البيوت

علّهم يتخلصون من روائح البارود وعفن الجثث . لمحت ثلاثة اشخاص عند مدخل الشارع ، منتظرين سيارة تقلهم الى الديوانية . كانوا منطفئي الهيئة ، ذابلي العيون . امتصتهم الفوار ولفظتهم ، الى الصحراء المغبرة .

– انا متجه الى سمّوره .

قال الريفي ونفض عباءته الصوف من الغبار وتقدم مسرعا الى شارع جانبي . لم يكن حديثه موجها لأحد . ان الكل متواطئ هنا فلا احاديث تعرّف بالشخص ، ففرض المجيء معروف ، والهدف واحد . جاءوا غرباء وسيرحلون غرباء . لن يحكي احد عن تجربته التي عاشها في خضم هذه السويعات . تظل تجربة المرأة تجربة فردية مهما تكلم عنها الشخص . رحت ادور بين الشوارع غير مدرك اي الابواب اطرق . من سألتقي من النساء ؟ ماهي شكلها وعمرها ؟ وكم تطلب نقودا ؟ تلك امور اجهلها . فكرت لو سألت ذلك الرجل لزودني بكثير من المعلومات . انعطفت الى اليسار . واجهني دكان صغير على بابه غطاء من الخيش . ثمة صناديق بيرة ومشروبات مرطبة قريبا منه . عرجت الى هناك لاشرب شيئا . وجدت امرأة سمراء ، مربوعة القامة تقف في الواجهة ترتب البضاعة . معلبات ودخان وعلكة وسلع خفيفة . طلبت منها زجاجة كراش اصفر ، لازيل العطش . وقفت اتطلع بتلك المرأة . شعرها اسود فاحم ، عيناها سوداوان مكحلتان ، فمها عريض وشهواني . لم تتجاوز الثلاثين . هل اسألها عن النساء هنا ؟ لكن ماذا اقول لها ؟ دليني على امرأة انكحها ؟ كيف ؟ لايجوز .

فاجأتني بقولها ، اثناء ما كنت اخالسها النظر ، حيران اين الطريق :

– هل ترغب بالونسة ؟

وبشيء من الخجل والتردد وشعور المفاجأة اجبت :

- نعم . بكم ؟

- ديناران .

- موافق .

- اكمل الشرب وادخل الى هنا .

الشوارع القريبة كانت خالية . هل تجري الأمور هنا بهذه البساطة ؟ لو سلكت ام سعيد معي هكذا لما تجشمت عناء هذه الرحلة . تناهى الى سمعي ، من باب أزرق مغلق ، اصوات غناء ورباب ودربكة ، وكانت الاصوات كأنها خارجة من قبر . هذا ما اعطته لي الصحراء من احاسيس . لم اشعر بالجوع . كنت مستشارا من اللحظات القلقة لانتظاري والمغامرة المقدم عليها . تم الامر بسهولة لم اتوقعها . هاهي امرأة تقدم لي نفسها وتدعوني كي ادخل الى الدكان . المرأة سر مغلق ، كثيرا ما تصورتها كائنا يختلف عن الانسان العادي . وقبل ان اكمل الزجاجة تقدمت من العتمة ودخلت . مضت بي من باب داخل الدكان يقود الى بيت . دخلت غرفة صغيرة جنب الدكان تماما ، غرفة ضيقة فيها سرير ممدود على الارض . ليس هناك من ضوء . لم تخلع دشداشتها الطويلة وتمددت على السرير ودعتني اليها . قالت لي :

- لا تخلع ملابسك ، واسرع فانا اخاف ان يأتي زوجي .

لم تكن ترتدي لباسا داخليا . انها متأهبة اذا . هذه مهنتها على اية حال . انها تضاجع كل من يدفع . الغجريات في قريتنا لم يكنّ هكذا . اضطجعت فوقها ، وغبت عن دنيا البشر . اختفت اصوات الغربان وزعيق السيارات والهواء الذي كان يقرع بعض العلب الفارغة في سطح ما . اختفت اشباح الحرب والتوابيت واللافتات السوداء ونواح الامهات والاخوات والزوجات . في نفق غسقي سرت الى جنة لم اذقها منذ ان ولدتني امي . نفق من روائح عطرة ولهاث وأنفاس متسارعة ولزوجة ورواح ومجيء . تمنيت الغياب في ذلك الجسد الاسمر

المضطجع خارج الزمن . احسست انني ضاجعت الغجر جميعا ، سماهر وثريا وخالدة والدربكة والرباب والودع والملافع والاصوات الحزينة التي سمعتها طفلا ومراهقا وشابا ، وحتى اسراب البرغش التي كانت تهوم في ساحة مختار الحامضية ، وعلى سحن الفلاحين المالحة من العرق . احسست انني ضاجعت نساء قريتنا وحميرها ودجاجها وكلباتها وبقراتها . ضاجعت كل مخلوق انثى على الارض .

لم لاتكون الحياة هكذا دائما ، متعة لاتنتهي ؟ سألت نفسي هذا السؤال ، وانا اقف خارج الدكان ، غير مدرك كيف انتهيت من الرحلة السعيدة ، وكيف خرجت الى الهواء الطلق . رائحة تلك المرأة مازالت في انفي ، وهي خليط من القرنفل والريفدور التي كانت شائعة في الاسواق . لم اقبّلها ، ولم المس جسدها . انغلّ وجهي دون وعي في رقبتها الطرية الملساء المعطرة . وهي لم تكف عن دعوتي للاسراع وهذا ما فاقم اثارتي . كانت متعة الخوف ، متعة السرقة ، لذيذة بحد ذاتها . لم اسألها عن اسمها ، وكثيرا ما فكرت ان النساء جميعهن متشابهات ، خاصة حين يكون الانسان في لحظة مضاجعة . الاجساد هي التي تتحرك وتتخاطب ويعرف بعضها بعضا دون اسماء ، دون افكار . ثمة لغة اخرى تبدأ عملها ، لغة قاموسها الحرارة والرائحة والانفاس والخشونة والرقة والانفعالات الجسدية . الاصابع والافخاذ والسواعد والاقدام والسوائل الممتزجة لتوفر بحرا تنبعث منه حيوات لا احد يعرف من اين تأتي .

احسست بالارتواء . حققت شيئا من رجولة مفقودة عبر الأوامر والقهر والتقاليد والمحرمات . ان ثمة شوقا مكبوتا قد اشبع . انت في الفوار ياضايع ، قلت لنفسي ، وليس في مكان آخر . لقد ضاجعت سماهر . لم لا يكون اسمها هكذا ؟ ما الفرق ؟ سماهر الغجرية التي نلتها في عتمة الغرفة . سآتي بين فترة واخرى الى هنا بعد ان عرفت الطريق . اصبحت لدي خبرة فيما يجب القيام به في هذه الشوارع المغلقة على ناسها . فكرت ان اجلبك معي في المرة القادمة ، رغم انك مشغول بأشياء غامضة ، لم ادركها حتى الآن . لكنني لن اقص خبري

على العقيد طالب ، المغرم بسماع حكايات النساء . سوف يقول اعطيك اجازة لتنكح النساء ؟ وسيضحك ضحكته الجافة التي تزيد من تشويه انفه المتآكل . لو اجد هكذا لذة مع غجرك الساكنين قريبا من السعدية لما تجشمت هذا العناء . لكنهم لايقدمون سوى الدق والرقص والتفريك ، وتلك بضاعة لا تشبع . . . .اليس كذلك يا حلمي ؟

* * *

اهتمامي بخالتي جميلة بدأ منذ وقت مبكر من مراهقتي . ربما منذ ذلك اليوم البعيد ، حين جمعنا فيه البقر من البيوت ورحلنا به الى المراعي البعيدة . سمّونا الاطفال الرعاة ، ثم الاولاد الرعاة ، وتلك مهنة أسندها لنا اهالينا لنصبح اشخاصا مفيدين . كنا نقود البقر في الطريق الذي يخترق غابات النخيل ، ونتجه به الى الحقول . هناك في الشمال ، تبدأ البيوت بالاختفاء ، وتظهر المستنقعات المليئة بالبردي والبط والطيور . تبرز الصحراء ، ذات السراب والوحوش ونبات الحميض . قال جدي يوما ان اجدادنا جاءوا من هناك . لقد اسسوا لهذه القرية ، التي صار لديها مدرسة ابتدائية ومستوصف لمعالجة الناس . في اليمين ترقد المدرسة التي ودعناها في بداية الصيف واسترحنا . اخذنا البقر الى حقل محصود توا ، لاتزال فيه بقايا من الحشيش الاخضر والسنابل التي تركها الفلاحون . ذلك اليوم تركنا البقر يرعى واحتمينا من الشمس في ظل الحلفاء . كان بيت المختار القريب من السدة الترابية يلوح كئيبا مهجورا ، ليس فيه من خضرة سوى اشجار اليوكالبتوس . تلك الاشجار التي جلست تحتها مرارا اراقب الاجساد وهي تتلوى في الليل .

كان البقر يرعى على هواه ، بعضه مرقط وبعضه اسود مثل الفحم . وكنا نحن الصبية نتكلم عادة عن موسم الدراسة القادم ، او نتبادل اللكمات او نكذب لبعضنا . الى اليمين منا ، بعد الساقية ، حقل كبير للقت ، هو حقلنا . اعتقد انه آخر حقل مروي يجاور الصحراء . فالمياه لاتصل ابعد من ذلك . حتى السواقي لها طاقة محدودة للتوغل في

الارض . في ذلك الحقل لمحت خالتي تحش القت بمنجلها ، وحيدة . قلت لنفسي سأمضي الى خالتي وأسألها عن وجبة الغداء . تركت رفاقي ومضيت الى هناك . خالتي لم تعر تقدمي اية اهمية وظلت منشغلة بالحشيش . لاحظت اعداداً هائلة من الفراش الابيض تحوم على زهيرات القت الحمراء ، وهي تطير بفرح . جلست قريبا منها ورحت اقطف وريقات القت الطرية واحشو بها فمي . كنت استمتع بعصيرها الطازج ومذاقها الخاص . عرفت من خالتي جميلة ان امي اعدت للغداء وجبة من الخباز مع الطماطم ، وهي وجبة لم احبها قط . لم اكن جائعا ، ولكن هذا ما دأبنا عليه ، فما ان نجد قتا طازجا حتى نقطف منه ولو قطفة ونروح نعلكه . لا افعل ذلك انا فقط ، اغلب الاولاد وحتى الكبار يقومون بذلك . بعض العوائل الفقيرة في القرية تغتذي على الخبز الطازج والقت . لم اجرب انا هذا الطعام . وبينما كنت استمتع بالتهام القت وخالتي تدور بمنجلها على السيقان الغضة ، والبقر خلف الساقية يرعى ، والاطفال يلعبون قرب الحلفاء ، حانت مني التفاتة الى حيث تقعي خالتي . لمحت شيئا ابيض توهج تحت اشعة شمس الصيف . لمحت فخذيها بضين ، وفي نهايتهما ذلك الخيط الرفيع من القماش الذي يستر عضوها . لم يكن بارزا ، لكنني لمحت بعض الشعيرات السود خارج القماش . احسست بالدماء تتصاعد في جسدي . الحرارة تكتسح رأسي . هذا منظر لم اره سابقا . كيف اثارني لهذه الدرجة ؟ كيف انتصبت بشكل غير معقول حتى انني لم استطع النهوض من مكاني ؟ كنت ارتدي دشداشة ، واذا ما قمت فلسوف ترى خالتي ذلك الانتصاب غير الطبيعي . استولى علي خجل طاغ . ظللت جالسا في مكاني وعيناي لاتستطيعان مفارقة ذلك البياض . لم اعد اقدر على الكلام ، فصمت وصمتت خالتي . ابتعدت عني الى الطرف الآخر من لوح القت . قفزت راكضا الى الساقية وسط دهشة خالتي . تركت الفراش يستمتع وحده برؤية جسد خالتي . اختبأت في الساقية ، الموحلة . تملؤ خياشيمي رائحة الطين الحري والأشن وعطن الكائنات الصغيرة

المتفسخة . رحت اتلمس نفسي بقوة واصرار . سكبت انفعالاتي على الشوك والعاقول والاعشاب الطرية التي تنمو في الساقية . شاهدت ذبابة صغيرة تقع على ذلك السائل الابيض الثخين ، الذي سيندغم لاحقا بالطين والماء . شعرت بالراحة ، لكنني رحت ، طوال ذلك اليوم ، اشعر بأنني امتلك روحا وحشية . فصورة ذلك البياض لم تفارق خيالي .

هل فكرت بشيء اسمه الحرام ؟ كلا ، ربما بسبب سني الصغير . فأنا للتو بلغت المراهقة . في خالتي شيء يجذبني مثل مغناطيس ، ولا اتمكن من معاكسته . لكن ما ظل يؤرقني بعد ذلك ، هو السؤال : هل لاحظت شيئا ما ؟ هل تعمدت عرض فخذيها لي ؟ بعض النساء كما تقول القصص يستمتعن باثارة الرجل ، حتى لو كان ذلك من بعيد . يستمتعن لانهن امتلكن تأثيرا على شخص آخر . وقتها كانت خالتي تعيش معنا في البيت نفسه . هي وعمي ، قبل ان ينفصلا عنا بعد ان رزقا بالبنين والبنات . ذات يوم وكنت نائما على سطح بيتنا ، كان ذلك في الصيف نفسه ، وكان الوقت في ساعة الشروق . كنت انام عادة ، على الارض ، قريبا من اخوتي ، لا اتغطى بشيء ، فالليل حار . حتى الفجر يظل حارا في قريتنا ، لذلك لم نكن نتغطى . كنت ارقد صباحا في فراشي ، مستمتعا ببرودة الصباح . بين النوم الخفيف واليقظة فتحت عيني لاجد ظلا فوقي . اشعة الشمس بالكاد لامست سياج السطح . باص القرية لم يذهب الى المدينة بعد . كنت انام على ظهري . حدث ذلك بلمحة قصيرة رأيت الظل ينحني علي ، لم احس بملامسته . فتحت عيني و شاهدت خالتي متسمرة فوقي ، تنظر الي بعينيها السوداوين المائلتين الى البني ، نظرة عميقة لم استطع تفسيرها . فتحت عيني جيدا واستعدت وعيي . شعرت خالتي بانني افقت فقالت : استيقظ انهم ذاهبون الى مضخة المياه . عليك بالذهاب معهم لتشغيلها . كان الصيف يأخذ المياه بعيدا عن المضخات ، لذلك ، كثيرا ما نمضي رجالا ونساء لنحفر مجرى جديدا يوصل مياه النهر الى المضخة . هذا امر معتاد ، وان تأتي خالتي لتوقظني فهذا امر معتاد

ايضا ، الا انني شعرت بالحرج من شيء آخر . لقد كنت منتصبا جدا بشكل واضح . كم من الوقت ظلت خالتي واقفة فوقي تحدق في ؟ لا اعرف . هل مدت يدها لملامستي ام كان حلما او توهما ؟ استعدت وعيي كاملا ، وفتحت عيني ووجدتها واقفة برزانة وثبات . هذا يعني انها كانت هناك وكنت نائما . لكن لماذا ؟ انها مجرد شكوك ، وهواجس . في الحقيقة صار ثمة شيء سري وغامض يربطني بها .

حين تتلامس ايدينا ، وهي كثيرا ما تتلامس ، سواء حين اناولها شيئا او نعبئ القمح سوية او اساعدها في نقل القمح الى المطحنة او تقشير عرانيس الذرة ، احس ان ثمة كهرباء خفيفة تسري في يدي . كانت هي تستمتع ايضا بملامستي . ورغم انني لا اجد في ذلك غضاضة فهي خالتي ، الا انني كثيرا ما صمت بحضرتها حين نكون وحيدين . يسري في الجو بيننا تواطؤات واحاسيس تلجم كلينا من الحديث . اما في حضور الآخرين فهي عادة ما كانت تهتم بي وبأحاديثي لدرجة غير طبيعية . اشعر وكأنها تستقرئ ما يجول في داخلي من رغبات وافكار ، باحساس الانثى التي جذبت الرجل . كانت تحب شعري وتقول انه اجمل شعر في الحامضية ، وكثيرا ما كانت تضع اصابعها وسطه وتمسده . وكنت استمتع بذلك ، وارغب لو تستمر في ترتيب شعري حتى النهاية . لم اكن رجلا ، لست سوى مراهق في طريقه الى النضوج . تقف قربي ، واشعر بها تقترب مني اكثر من المعتاد . تتجاوز الحدود التي يمتلكها كل انسان حوله . تتجاوزها بفظاظة احيانا لا امتلك معها الا الانزياح خطوة ابعد .

لكن هل يعتقد احد ، من كل ذلك ، انني لم اكن احس بالذنب ؟ اجل ، انني اعاقر رجسا لا يرضي احدا . افكر بأمور محرمة وغير طبيعية . الا انني كنت مدفوعا اليها دون ارادتي ، خاصة في السنين اللاحقة . او رغم ارادتي التي تتحطم دائما في حضورها . عيناها تجذبانني . كثيرا ما حاولت أن لا انظر في عينيها ، فأخفقت . ما ان انغل في السواد حتى احس بالرعدة ، احس بشيء يخترق صدري .

انني احدق بعيني امرأة غريبة لاتربطني بها اية قرابة . لم يحصل ذلك معي ؟ هل ان السبب تكويني انا ام تكوينها هي ؟ اسئلة كنت افكر بها دائما وانا اقوم بهذه اللعبة غير المسلية التي تحولت مع مرور الايام الى لعبة خطرة لكلينا . وكان من العسير جدا البوح لاحد بتفاصيل تلك القصة الحزينة . حاولت اكثر من مرة ان اخبر حلمي بالامر علّه يشرح لي القضية ويفسر مجرياتها لكنني لم اجرؤ . اغلق فمي في آخر لحظة حتى وأنا متمتع من السكر . فلست متأكدا مما يجري . لعل القضية برمتها لاتعدو أن تكون وهما من اوهامي . الا اننا ذهبنا باللعبة بعيدا دون رحمة ، حتى تلك الفترة التي رأيت فيها رحمن داخل بيتها ، وصرت اشك بكل شيء .

ذات مساء ، وقد اكملت انا الجامعة وجلست في البيت ، انتظر استدعائي الى الجيش ، كنت اقف في حقل القت ذاك القريب منا . انه خلف السدة الترابية ليس بعيدا عن النهر . كان لنا حقلان للقت . واحد قرب الصحراء والآخر قرب النهر . وكنت اسقي الارض . عمي وخالتي وقتها ، انفصلا عنا وسكنا في الجوار . الشمس في الافق الغربي تنحدر ببطء خلف غابات النخيل الغربية . كانت خالتي معي تساعدني في توجيه الماء الى هذا القسم من الحقل او ذاك . وانا اتابع مرور الماء من الساقية واسهّل المجرى بازاحة الشنبلان والسعد والحلفاء ، وأراقب التسربات التي تحصل في السكور والسواقي الجانبية . كنا نتبادل الحديث القصير حول هذه الامور انا وخالتي . بين الحين والآخر تشمّر عن ثوبها وتخوض في الساقية لتسد منفذا او تفتح آخر . تضع ثوبها في لباسها وتكشف عن سيقانها والقسم الاعلى ، فوق الركبتين . كنت انظر بخوف الى حركات خالتي .

صراصير الحقول تطلق اصواتها المتقطعة . تنهّد الغروب باشارات حذرة . نعيق طير مهاجر ، ونقيق ضفادع بعيد ، وحمرة مسودة في الفضاء . بدأ الماشون في الحقول يغادرون الارض ويعودون الى منازلهم ، وخالتي مصرة على البقاء . حلت عتمة خفيفة في السماء ، لكنني كنت

ابصر جسد خالتي الابيض يمر قريبا مني . لا تعير التفاتا الى ما تحدثه في صدري . لماذا لا تذهب خالتي الى البيت ؟ لو كانت امرأة اخرى لآثار بقاؤها الريبة عند اي شخص يلمح المشهد . لكنها خالتي ودل الفلاحين يعرفون هذا . ثمة صمت خانف يلفنا بين الحين والآخر كلما وقفنا سوية على طرف الساقية . لا اعرف ما الذي افعله . فكرت ان خالتي تستفرد بي ، في هذه الامسية الربيعية المعتمة . ما الذي ينبغي علي كشاب القيام به في ظروف كهذه ؟ فكرت انني مربوط الرجلين واليدين ، انها خالتي جميلة . كلما نظرت الى ركبتيها وفخذيها العاريين وساقيها الملوثين بالأشن والوحل ، تقطر منهما المياه ، احسست بأنني اقف مع امرأة . لاتربطني معها رابطة قرابة . بين هذين الشعورين المتناقضين ، رحت ابتهل الى حدوث شيء ينقذني من الموقف . لم اعد استطيع التحمل . في هذه اللحظة بالذات جاءت التاكسي الى الطريق وانحدرت الى جهتنا . اضاءت مصابيحها عباءة الليل التي راحت تسترخي على الكائنات .

قالت خالتي بصوت راعش : هذا رحمن ، جاء من بغداد .

وبعد فترة صمت غسلت خالتي رجليها وأنزلت ثوبها ولبست حذاءها .

قالت : حلّ الليل ، عليّ العودة الى البيت .

صعدت السدة الترابية بثبات . انحدرت الى جهة بيوتنا . احسست بالغيرة ، والتذمر والقرف من نفسي . لم جاء رحمن بهذه اللحظة ؟ هل ذهبت خالتي الى هناك ؟ هل سلمت عليه وتواعدا على امر ما ؟ كانت مشاعر الغيرة تملؤني بشكل غير طبيعي . انهيت السقي على عجل وعدت الى البيت . واستولى علي بعد ذلك ، كابوس غريب ، لم استطع البوح به لاحد . سميته كابوس خالتي جميلة . ذلك المساء حدث قبل سنة من رؤيتي لهما داخل البيت منفردين . قبل سنة من بوحي لامي بالسر ، ذلك البوح الذي قوض علاقتي بالاهل والاقرباء

وبخالتي جميلة . هل كان علي ان اصمت ولا ابوح بما شعرت به ؟ هل عملت خيرا بفضح الامور ؟ حتى الآن لم اندم على ذلك . لقد قلت ما في قلبي وكفى ، سواء نتيجة غيرتي او بسبب شعوري بالمهانة كون خالتي جميلة زانية . لذلك جاءت فكرة الهروب من البلد ملائمة ، للخلاص من تلك الكوابيس . كابوس الحرب . كابوس خالتي . كابوس هذه القرية التي ما عدت اجد نفسي فيها حرا . لم تعد مكانا اشعر فيه بالطمأنينة .

. كان قراري في الرحيل حاسما ، رغم المخاطر التي يمكن ان يقودني اليها . وأقل تلك المخاطر هي الموت . لكن ما باليد حيلة كما يقال . وذات مساء وقفت وسط الغرفة بتعابير جدية ، وكانت اشعة الشمس الاولى تغسل اوراق البرتقال وتلفع مياه نهر خريسان بسحة حمراء ، ووسط الهدوء المميت للفندق والمدينة . قلت بصوت جاد وتعابير صارمة ، ودعت كل ماهو عزيز وجميل : حلمي اريد ان امضي الى الجبال . سأصبح مقاتلا ضد هذه الحرب ، انها ليست حربي . ولم اضف اية كلمة .

وقف حلمي بذهول وسط الغرفة ، وعيناه متألقتان بتأثير الخمرة .

بوركت . قال لي .

ثم اتفقنا على كل شيء .

لم يكن هناك من يسمع او يرى سوى الجدران ، وستائر النوافذ الشفيفة والتماعات السعف البعيد لغابات بعقوبة المجللة بالضوء . اتفقنا نهائيا على ان اصبح ، انا ضايع الجريان ، واحدا من غجر الارض الى ابد الآبدين . اخبرني حلمي عن كل ما يعرفه عن الجبال . قص علي ما خبره اثناء اقاماته القصيرة بين المقاتلين التي كان يقتنصها اثناء الاجازات . وذلك الكابوس الطويل الذي اعقب فشل ثورة البارزاني ، والبداية الجديدة للعمل مرة اخرى . وقال لي بوضوح : انني اسلمك رقبتي لان اي كلام عن الموضوع معناه النهاية لك ولي . وشعرت إنها

اللحظات الأكثر كآبة في حياتي ، وأنني سأفارق نهر حياتي المطرد ، الجاري بعنف مرة أو بانسياب بطيء مرة أخرى ، راحلاً عن الحامضية إلى الأبد . . . . .

* * *

كان جامعنا يرقبني بمئذنته الزرقاء .

الجامع الذي طالما أسرّ لي عن ضجر الليالي الباردة ونداءات الرجال وهي تنطلق معلنة ، عبر مكبرته الوحيدة ، عن القاضين دون أسف ، القاطنين جنات معرشة بالشجرالراقص على أغصانها ولدان وحور عين وأحلام . مضى اسبوع على حديثي مع حلمي . كنت انتظر سيارة تقلني إلى بغداد . سألتقي دليل رحلتي الذي سيقودني إلى الجبال ، جبال ستعصمني من الموت . لن يجرؤ أحد على مطاردتي فيها ، هي المتشعبة الدروب ، الخبيئة البيوت ، المستعصية الأغوار . الجبال التي تلامس الغيوم بقممها وتكسر حدة الآفاق . لا خالتي جميلة بعد اليوم ، ولا العقيد طالب او نهر خريسان . لن تسمع اذني انفجارات الصواريخ ، ولن ترى عيناي جثث القتلى على تلك الشاشة الملعونة التي ابكت الناس . لم اصطحب معي إلاّ أدوات حلاقة وكنزة صوفية تحميني من جمد الارتفاعات . كدت ادس كتاباً لأبي العلاء المعري في حقيبتي الصغيرة ، وانا استجمع أشيائي وشجاعتي للرحيل . سأترك مكتبتي الصغيرة لاخوتي ، علهم ينتفعون بعلومها بعد انتهاء الحرب . ولو اني اشك في ذلك . المدافع لاتعير اية اهمية للافكار . كما ان الخراب لايبنى بشكسبير وابي العلاء المعري وادونيس . قلت لنفسي ما حاجتي للقراءة . ستكون الأيام القادمة أيام عمل ، تشتغل خلالها اليدان والأطراف والصدر في دحرجة صخرةٍ أو قطع شجرة للوقود . في حفر موقع للحماية من الغارات أو بناء جدران تصدُّ ثلوج الشتاء . فللقراءة يوم ولطلاء جدار يوم آخر . لتقليب الفكر ساعة ولتشغيل مضخة مياه ساعة أخرى .

أمامي أيام وأسابيع وساعات لا تحصى ، اختبر معها إرادتي وصلابة أعضائي ، كما شرح لي حلمي في لقائه الأخير معي . الحياة نهر ، قال لي ، يمر حيناً بأجراف فظة وعروق سائبة وصخور ، وينساب حيناً مثل ضفتين ناعماً هادلاً ، لا تعكر ماءه سوى نسائم الهواء . الحياة تلتوي مثل نهر بانحناءة حادة لا نخمن ما سيأتي بعدها ، ومرة تسيرعلى هواها واضحة المسالك ، طلقة الجريان . رحيلك إلى الجبال انحناءة مفاجئة لن ترى ما وراءها إلا حين ينجلي لك الأفق .

تحول حلمي الى شخص آخر ، بعد ان اتضح كل شيء . صار اكثر شاعرية ووضوحا ، فآمنت بكلامه ، مع أن قلبي راعش وهواجسي موّراة ، في هذه اللحظات الكئيبة التي اقضيها منتظراً وصول سيارة ما ، ناظراً إلى دروب قريتنا القليلة ، وهي تتميز قيظاً من حرارة شمس لاهبة . على بعد مئتي متر يقع بيت حسن ابن المختار ، وشجرات اليوكالبتوس لازالت وارفة لكنها اكثر ارتفاعا وتظلل البيت المبني من الحجر الكلسي ، حيث تستكين سيارة صلاح ، ابنه المقاول ، في الظل . بالأمس القريب جلبوا خميس من جبهة الحرب جريحا في فخذه وقبل شهر كانت الضحية بسام ابن خالي . لكن الغريب ان مضخات المياه على الفرات لازالت تطلق مياهها وتقذف الفضاء بدخانها الكلسي . في الحقول بقر يرعى بسلام ، وفي النخيل يمامات تهدل باصوات حزينة . بيت عمي مغلق الابواب ، ولا ارى الاطفال في الحديقة . الحديقة التي راقبتها آلاف المرات مترصدا شكوكي بخالتي جميلة .

كدت ان اصدق ان الفجر وصلوا القرية مجددا حين شاهدت حمارين يقودهما فلاح يركب طفلا على واحد منهما متجها نحوي . الا ان ذلك لم يكن الا وهما . فثمة فراغ هش قلق ، غبار يهيم خلف النخيل له ارتعاشات سراب . أهواء وهيامات وود ، تغادر باباً وتدخل باباً ، رابطة بيوت البشر بلوامسها الرفيعة . هي رحلة البعاد ، ورحلة النأى عن مارشات العسكر ، أغاني الدم ، برودة البنادق ، الزنازين وقد تكاثرت كالفطر في أحلامي لتحوك منها كوابيس لم يألفها أي امرئ في

قريتنا . كانت وداعاتي فاترة . لم اخبر احدا برحيلي . ظل أبي يتوضأ وأمي تراقب حساء الباذنجان وأختي تكركر بمرح : لا تغب كثيراً في المعسكر ، واحمل لي في إجازتك القادمة ثوبا جديدا . شاهدت قرحة في حقل الذرة تفتش عن الحمقاء تطبخها حساء . اية قرية هذه ؟ لاتخرج لوداع واحد من ابنائها سيمضي دون رجعة ؟ لكن انّى لهم ان يعرفوا ، فأنا لم اخبر حتى اهلي بهروبي الكبير هذا ؟

* * *

– هل انتظرتني طويلاً ؟ سألت حلمي .

– أوشكت على المغادرة .

– دعنا نتحدث داخل المقهى .

– مستعجل ، سأتحول اليوم من غرفتي في الحيدرخانة إلى قبو في حي الأكراد . ثمة عيون راحت تراقب الزقاق . حامت شكوك . لا بد أن صاحب البيت السمين كان وراء تسعيرها . صار يزورني في الآونة الأخيرة كثير من الشباب : جنود ومدنيون ، عرب وأكراد وأشوريون ، ملتحون ومرد . آخر مرة سألت عني فتاة جامعية ، تود الخروج من العلبة هي الأخرى . في الليلة الفائتة لمحت رجلين يقفان عند عطفة الزقاق ، تحت الشناشيل . كل الرموز توحي بالريبة . سألقاك غداً ظهراً في كراج كركوك .

– هل هذا كل شيء ؟

– لحد الآن نعم ، وسنخطو الخطوة الثانية غداً فلا تقلق . في السليمانية رتبت كل شيء .

مضيت اتسكع حول مقهى البرلمان ، ولسعني ذلك الشوق القديم لرؤية الكتب ، والتطلع الى عناوينها .

ان كل كتاب عالم قائم بذاته . الرواية كون عاج بالضجيج والناس

والاصوات والروائح وهواجس القلوب القلقة . الشعر طيور هائمة في الفضاء ، وسماوات تهيم فيها غيوم ذات اشكال فريدة . كتب الرحلات بلدان ولغات وسفن وغابات وحيوانات عجيبة . نساء وخمور واطعمة بمذاق حريف او حامض ، حلو او مالح . البحث معضلات بحاجة الى حلول ، وعقد افكار وسيلانات احتمالات غير مفهومة احيانا . كتب وكتب وكتب . شارع المتنبي بأزقته مكتبات وعيون تنظر الى الارض حيث فرشت الاغلفة وتراصت اللغات . لايمكن . هل هناك احد يقرأ وسط ضجيج الطائرات والمدافع والدبابات ؟ فكرت انني ذات يوم ، وبعد ان تنتهي هذه الحرب ، او اذا ما خرجت من هذه العلبة حيا ، سأكتب رواية او كتاب مذكرات عن قرن روحي الموار بالوجوه والقلق والشوارع وقصص القتل والتعذيب .

نعم سأكتب كتبا ربما ، او سأرسم لوحات او اغني اغاني عن هذه الايام البغيضة السابح بها مثل قارب مشقق الخشب .

هكذا كنت اردد لنفسي وأنا اتجول وسط ازقة الكتب ، متلمسا طريقي نزولا الى المقهى .

* * *

وجدت نفسي في عالم المقهى الأليف . في الطرف القصي ، موقد القهوة والشاي : دلال ذهبية ، قوريات شاي صينية مرقشة بالزهور والشخوص الصغار المرتدين لقبعات مخروطية . دخان أزرق يتصاعد إلى فوق ، تمرره يد خفية إلى مدخنة من النحاس . النادل القصير بوجهه النحيف وعينيه الضيقتين ، الذي كانت تحوم الظنون حوله على أنه عميل لشرطة الأمن ، يتنصت إلى أحاديث الجالسين فيما يضع أقداح الشاي ببطء على الطاولة . باب المراحيض الخشب ، متسخ بالكتابة والأصباغ . طلبت شاياً ، ثم انتحيت زاوية ، نائية عن دلال القهوة والمدخنة النحاس . زاوية تطل على الشارع . كنت معتاداً على الجلوس فيها والحملقة بالمارة ، بتعابير وجوههم ، بملابسهم ، بجنسياتهم ، كأني

إلاه متعال يمتع بصره بمراقبة البشر الأرضيين يدبون على التراب . يركضون وراء الملذات . كيف اخفى حلمي عني امر غرفته في الحيدرخانة كل هذه الاشهر ؟ وكيف اخفى علاقته بمدينة السليمانية ؟ استغربت من وجود اشخاص عندهم كل هذه القدرة على كتمان السر . اجل كتمان السر ، هذا هو سبب نجاح المهمات الكبيرة . على اية حال ، سأفتش عن مكان انام فيه . اقضي ليلتي الأخيرة ؛ ليلة بغداد الغارقة بفوضاها ورذاذ دجلة الراعش تحت أضواء المساء . أي الفنادق تؤويني انا العازم على الخصام ، وأي الشوارع تغلبني بأمراسها انا الأسمر الناقر . . . . . ؟

طاف في خيالي وجه ام سعيد الملفع بالسواد ، ونهار الغجر وتلك العجوز التي سرقتني قبل اشهر ، وانا في فورة اللذة . لم اخبر حلمي بتلك القصة . لم اقل له انني رجعت الى الفوار لا لشيء الا لمضاجعة امرأة عجوز . ظلت كلمات ابو جليل ، الراكب الذي كان يرتدي العباءة الصوف ويمسك بمسبحته البايزهر تنقر في رأسي . نفذت مخططي في الجمعة . وصلت الفوار ودرت فيه اتفرج على البيوت والشوارع غير المنتظمة ، وحاذرت رؤية تلك المرأة التي ضاجعتها سابقا . وفيما انا دائر في الازقة المتربة ، اطلت امرأة في الخمسين بغتة من احد الابواب . اومأت لي بسرعة فدنوت . كانت الشمس حامية . الفوار مهجورة . اصبحت امتلك الشجاعة لمواجهة امرأة . كل هذا حسن وجميل في عيني الرب ، كما تقول التوراة . قالت العجوز وعيناها ترتجفان بخوف وتوسل : هل تدخل ؟ ووقفت اتطلع في قوامها ووجهها . امرأة عجفاء ترتدي ملابس سوداء ، وتضع شالا اسود على رأسها . عيناها صغيرتان وضعت عليهما الكحل بطريقة غير دقيقة . لابد انها كانت مستعجلة ، وهي تتطلع الى مرآتها الصغيرة المصنوعة في الصين والتي يجمّل ظهرها تنينان صينيان ينفثان اللهب ، كالتي تملكها خالتي جميلة . تذكرت قول ابو جليل ، الرجل المهذار الذي رافقنا في التاكسي . قال ان بعض الرجال يبحثون عن العجائز . ولم لا . انها تجربة ربما لن تسنح لي مرة اخرى .

تخيلت نفسي اضاجع امرأة مثل قرحة .

التفت يمينا والتفت شمالا . لا احد يعرفني هنا . انني في مدينة الغجر ، قدمت من بعد مئة كيلومتر ، ولا اصدقاء لي يمكن ان اصادفهم . بحذر وخجل دخلت الباب الضيق بعد ان اوسعت لي المدخل واغلقت الباب خلفها . هناك ممر اسمنتي يقود الى غرفتين او ثلاث تنفتح على الحوش ، في فضاء يطل على السماء . وثمة غرفة صغيرة في جانب الحوش ، قادتني المرأة اليها . الشيء الذي فاجأني عند دخولي البيت رؤية شاب ضخم الجثة يجلس على كرسي وأمامه طاولة صغيرة عليها صينية فضية اللون ، فيها طبق من اللوبياء جنبه بصل وخبز . كان الشاب يأكل بشهية . لم اتطلع فيه . ادخلتني المرأة الى الغرفة . سمعت الشاب يصيح بصوت عال مثل ثور : امي هاتي لي الماء .

راودني احساس بالعار ، والخجل . كيف لامراة تضاجع رجلا بحضور ابنها الكبير ؟ انهم غجر على اية حال . لا يعيرون اهتماما لهكذا امور . اقنعت نفسي وانا جالس على كرسي صغير انتظر ما سوف تقوم به المرأة . هناك بساط مهترئ على الارض ، والغرفة ليست مضاءة . رائحة عفنة تدوم في المكان . في الحوش ضوء شمس متوهج ، وأفياء لجدران ، والسماء البعيدة التي اراها من فتحة الباب متلونة بلون اصفر . غبار الفيافي المحيطة الذي ترفعه عن الارض اياد غير مرئية وترشه الى الاعلى ، انتقاما من غموض الامتداد الازرق . هل اخلع بنطالي وقميصي وحذائي ، كي اقف عاريا انتظر ، ام ابقى هكذا وانتظر اوامر المرأة ؟

جلست مثل اخرق على الكرسي . رحت اخالس الشاب الجالس ليس بعيدا عن الغرفة النظر . ماذا لو هجم علي وحاول استلاب نقودي ؟ الا يفعل الغجر ذلك بعض الاحيان ؟ او ماذا لو قتلني انتقاما لشرف امه الذي سيهدر امامه ؟ سمعت بحوادث كثيرة عن ذلك ، يتناقلها الفلاحون في قرية الحامضية كلما جاء الغجر الى القرية . حدثني حلمي

كثيرا عن قصص غريبة من حياة الفجر . دخلت المرأة واطبقت الباب وراءها . لاحظت انها لم تغلقه . مدت البساط وقالت : هات النقود . ناولتها دينارا ، وضعته في جيبها . اضطجعت على ظهرها وفتحت رجليها وقالت : هيا . كان هناك كيسان مركومان فوق بعضهما وطناجر عتيقة واباريق بلاستيكية وعدة غريبة لقلع الاسنان وتركيبها ، لكنها قديمة علاها الغبار وتستقر على كرسي مكسور . كان هناك ملابس عتيقة معلقة على الجدار بمسامير طويلة ، والسقف من قضبان حديدية بينهما طابوق معنكب . السقف ليس عاليا ، بانت الرطوبة فيه . قالت المرأة :

- هيا ، مالك ساهم .

اضطجعت فوقها دون ان اخلع بنطالي ولا قميصي ولا حذائي . اتصال موضعي بحت . حاولت استيعابي اليها ، وضمي بشدة الى حضنها . حالة مدهشة . هل يعقل ان تكون شبقة لهذه الدرجة ؟ لم تكن معطرة ، او على الاقل لم اشم اي رائحة معينة . كانت حواسي يقظة ترصد اي خطوة في الخارج . لا اريد ان اباغت من الشاب ، ابنها . اصوات السيارات والعصافير معلقة في اذني . انتهيت منهاعلى عجل . قمت سريعا مزررا بنطالي . ارشدتني الى الممر . الشاب لم يزل يأكل غداءه ولم يلتفت الي . وضعت رجلي في الشارع وهرولت نحو الموقف . سالت افكاري وخيالاتي خارج اللحظة . نقلتني الى احلام بعيدة . كيف لي ان اعيش الحياة مثل غجري حر لا يخضع لقانون ولا يفرض عليه العيش في بلد لا يحبه ؟ بل يكرهه في الحقيقة . لاشيء فيه يحب . ولم اكتشف ان تلك العجوز سرقت مني خمسة دنانير كانت في جيب بنطالي الامامي ، الا حين وصلت بغداد .

قلت لنفسي ، وأنا احدق الى المارة في شارع الرشيد . من زاويتي المهملة داخل المقهى : هكذا هي الحياة : سارق ومسروق ، ناكح ومنكوح ، قاتل ومقتول .

نعم ، هكذا هي الحياة يا حلمي!!!!

* * *

انني احمل حكم الإعدام في رقبتي التي تخلفت خمسة أيام عن اللحاق بقطار الموت ، المتجه شرقاً وجنوباً وشمالاً . لايمكن لي الندم على هروبي هذا . لايمكن لي الاحساس بالعار او تأنيب الضمير . هل تصدقون لو قلت لكم انني كرهت البلد اجمع ؟ كرهت بشره ونظراتهم الزائغة وتعابيرهم المذعورة . كرهت نساءه الخانعات ، وحقوله المخضرة وصحفه واذاعاته وامجاده . اكثر شيء كرهته فيه ، فريقه الرياضي الوطني ، وذلك التبجح الفج الذي يطلقونه كلما فاز في واحدة من المباريات . آه لو قدر لي ان امسك زمام السلطة في هذا البلد ، لكنت منعت اول ما منعت هذه اللعبة التافهة ، المغرورة ، لعبة كرة القدم .

قال لي احد اقرباني قبل ايام ، وقد شم رائحة الخمر التي تفوح مني : مالي اراك مهموما وكأنك تخطط لشيء ؟ البشر يقرأون الافكار ، الا انني لم ارد عليه . حين يعرف الشخص انه سيغادر مكانا الى الابد لا يعود يفكر بصغائر الامور . صغائر الامور تهم الناس المستقرين ، الذين يمضون ايامهم في مراقبة الاشياء الصغيرة وتحسين شروط الحياة من حولهم . وانا لست كذلك . انا سأتحول الى غجري حتى النهاية .

الحياة هكذا . سارق ومسروق . ناكح ومنكوح . قاتل ومقتول .

- لا مكان إلا في السطح .

هتف لي كاتب فندق الزعماء بعد أن أفضى بي الدرج الملتوي إلى كابينة الخشب .

قلت له : موافق . فرشت أمامه إجازتي المزورة بحذق . قلت له ايضا : احتفظ بالحقيبة ، سأذهب لتناول وجبة ما ، وسأرجع بعد ساعة . تسللت إلى سوق السراي ، وكان الليل ينحدر على شبابيك البيوت وطابوق الجدران ووجوه البشر وأمواه دجلة مثل صخرة ثقيلة : خانقاً

كأن فيه رائحة للموت ، للحب ، للخوف ، للهواجس ، وهي تقتحم الروح في متاهاتها المحصورة بين خيارات مرة . كان ليلاً يخلو من العبير . تعرش على مسلته ضوضاء مصمة لتكسّر أعضاء المدينة وانفلاشها . ثمة نافذة بعيدة توشح الأرض بنهنهات معذبين وزفرات مغلوبين ، يؤطرها رعب مصمت ينثال على جسور وماش وأبنية وأزقة حائرة . سيل من البشر . ينبع من مكان ما ليصب في بحر . عيون تحدق بعضها في البعض . عن شمالي آلات ضخمة تحفر الأرض وتقيم أبنية ، وقدامي ماكنة عملاقة تسفلت رصيفاً ملياً بالحفر . عمال من كافة الجنسيات . جلب هذا العدد منهم له مغزى بلا شك . الكل على جبهة الحرب وثمة نقص في الايدي العاملة . قلق شاسع يخيم على الجميع . قلق من كارثة قادمة لكن لايراها احد ، ولا يدرك كنهها . انها هناك ، في الافق البعيد .

كانت الليالي السعيدة التي سرقناها ، انا وحلمي ، من عاصفة هذا الزمن . فجوات في نسيج الخوف المفروش على البلد . هي التي دفعتني لمواصلة الحياة والطموح في البحث عن خلاص . فكرت انها كانت تعني ، وبوضوح ، ان هناك امكانيات اخرى للعيش ، غير القتل والحروب والتدريب والسلاح والاستمناء اليومي .

بغداد تحت باصري . شريحة يكمن في نسيجها قلق البلد وموته وضوضاؤه . تتظاهر ببناء نفسها ، تتظاهر بترميم أعضائها فيما هي تدخل ساحة الخراب من أوسع الجنبات . ترمم شارعاً وتبيد قرية ، تستقدم بشراً من جميع البلدان وترسل أبناءها إلى الموت . ضوضاء هذا الليل لا تنتهي . شوارع تهتز تحت قدمي ، روائح شواء في أنفي ، لزوجة تمسحني بالدهن . وعلى حصان من إسمنت يقف الرصافي مشيراً إلى النهر ، مجللاً بمخلفات الطيور ومسخماً بدخان المطاعم . تذكرت الجواهري ايضا . كرهت الشعراء والصحافيين والكتب والافلام . دب الصدأ في الكلمات والجمل . تشوهت اللغة التي احببتها ذات يوم . امتد التشوه الى حديث الفلاحين في قريتنا . اصبحت ملينة بالمداهنة

والمراوغة والمديح للحكام وأزلامهم . جسد الرصافي بدا زائدا في هذه المدينة . لم يعد له اية دلالة . ربما وضعوه هنا ليزيدوا في اذلاله . رغبة الجوع قتلها التوحد . الإحساس بمجانية الزمن ينمّي في داخلي عبث انتظار الغد . غد شجرة اللوز ، غد قنة الجبل المحاصر بالغيوم والبرد ، غد الأرغفة المحمصة على نار البلوط والاسبندار والعفص الجبلي .

لكن ماذا لو فشل المخطط وامسكوا بي ؟ في الطريق الى السليمانية ، او في احدى نقاط التفتيش ، او ربما في الطريق الى الجبل ؟ سمعت انهم ينصبون الكمائن في الدروب والمنعطفات . اجابة حلمي كانت قاطعة . قال لي قبل ايام في الفندق ان الخطة ناجحة منة بالمئة . سألته لكن ماذا لو فشلت ؟ وكعادته نظر الي بتلكما العينين الحادتين الساخرتين ، وبعد ان عب كأسه المترع ، راح يقص لي قصة غريبة ادخلت الرعب في اوصالي .

قال : سيدلونك بحبل الى الغول ، وسيأكلك نينا . قلت له ما هي حكاية الغول ، قال : انه في سجن من سجون البصرة . احتجزوه ذات يوم لانه معارض للسلطة ، وأوصلوه الى الجنون . كان ضخم الجثة . اجاعوه الى ان فقد انسانيته ، وبدأوا يقذفون له ببقايا اللحم المتعفن ، فاعتاد ذلك ، ثم اجاعوه ثانية وراحوا يضعون له حيوانات نافقة كالجرذان والقطط والكلاب ، كان يلتهمها من الجوع ويعوي وحيدا في تلك الغرفة الرهيبة . زنزانته مثل قبة الجامع ، مغلقة الا من الاعلى . تركوا فتحة فيها لادلاء الطعام . بعد ان اعتاد الغول على اكل الحيوانات النافقة ، روضوه على اكل لحوم البشر . والبشر هم المعارضون الذين لم ينفع معهم التعذيب للاعتراف والبوح . يترك السجانون الغول بلا طعام لايام ، ثم يمسكون شخصا ويدلونه له بحبل من فتحة الغرفة . يهجم عليه الغول ليأكله . وهم يحدقون الى المشهد من شباك صغير في الجدار . يمسك الشخص . يقتلع بقوة متوحشة فخذه ويلتهمها . يقتلع الساعد او البطن . يبدأ الدم ينزف من الضحية مما يضاعف شهية الغول . يترك الجسد طريحا على الارض . ينام ولا يفيق الا بعد ان يمضه

الجوع ثانية . يقوم الى بقية الجسد ويلتهم اجزاء اخرى منه وهكذا . . . . .

ان امسكوك ، يرسلونك الى البصرة . الى الغول ، قال حلمي ضاحكا وجاريته بالضحك ، لكنني في الحقيقة كنت ممتلئا رعبا . كعادتي اخذ ذهني يعيش مع الغول في تلك الغرفة بشكل تفصيلي . متى اتخلص من اتساع خيالي ؟ بعد ان ادلوني بالحبل ووصلت الارضية عاريا كان الغول ينام في الزاوية . شخيره يتعالى الى السماء مثل رعد . كان عاريا ايضا . اين اذهب ؟ شاهدت مصطبة خشبية في اقصى الغرفة ، فتوجهت اليها وجلست . احس الغول بوجودي . نهض . استولى علي الرعب . ركض نحوي . فمه يتقاطر منه اللعاب . شعره مثل عش غراب . وانا ، بجسدي الضئيل ، كأنني جرذ يدور في الغرفة . اكثر من مرة كاد ان يمسكني الا انني انفلت من بين رجليه او من بين كفيه كأنني طير يبحث عن النجاة . ثم ينعطف فكري الى جهة اخرى اكثر ارعابا . افترض انه امسكني فما الذي سيعمله بي . اضع في هذه الحالة سخانا داخل الغرفة وأسياخا من الحديد . اضع بهارا وملحا وارغفة خبز كي تتم وليمة الغول الذي حوله البرابرة الى مسخ لانتزاع الاعترافات من الناس .

اعود اليه في مناماتي لانه يجتذبني مثل مغناطيس . اتخيله بوضوح وهو يقتلع فخذا مني ويقطعها ثم يشكها في الاسياخ . يشوي لحمي على النار حتى ينضج . ما هو طعم لحمي في فم الغول ؟ الوّن الصورة بتكوينات طريفة . لم اطلع حلمي على قصتي مع الغول . سيهزأ مني ويعتقد انني رحت اجتنب المغامرة . اراهم يجلبون له رزا وزبيبا ، بهارات ومعطرات ، قرفة وقشور دارسين . يفتض بطني ، يخرج معدتي ، يحشوها بالرز ، يطبخها على نار هادئة . لم لا . ثمة كثير من الطبخات يمكن للغول ان يصنعها من جسدي المسكين . وهذا يحصل فقط لو امسكوني وانا اهرب من البلد . البارحة في الحامضية لم استطع النوم وانا اتخيل نفسي بين يدي الغول واسنانه . حاولت الرجوع الى زمن الغجر ومضافة حسن ابن المختار واسترجعت اصوات الدربكات وعطر

الريفدور الذي ترشه خالتي جميلة على جيدها ، لكي اصرف ذهني عن الغول فلم اوفق .

اقسم حلمي ان قصة الغول حقيقية . رواها له واحد من ضحاياه ، انتشلوه في اللحظة الاخيرة من بين اظافره . ليس رحمة به لكنه يمتلك معلومات خطيرة عن تنظيم اسلامي . لم يفرطوا به . حين رأى الجدران الملوثة وشاهد تلك الخلقة المهولة ، وشم رائحة المكان ، اعطاهم كل شيء فعفوا عنه وخرج بعد سنة .

لست خائفا من الغول الآن ، لم تعد دوريات الانضباط العسكري ترهبني كالسابق . اشبعونا بقصد او بدون قصد من حكايات التعذيب في السجون والزنازين والسيارات الغامضة . كانت الدوريات الامنية تترصد المارة في الشوارع . انحرف عنهم رغم انني امتلك اجازة مزورة تزويرا حاذقا . تلك الوريقة تقيني من شر الغول . قال لي حلمي وظفوا في السليمانية شخصا في شرطة الامن ، مهمته اغتصاب النساء . تلك وظيفة رسمية ، وفق بها كونه يمتلك عضوا طوله خمسة وعشرون سنتيما . المرأة التي تسقط في ايديهم يخترقونها بتلك الآلة مثلما تخترق السكين الزبدة .

الحمد لله انني لست امرأة .

* * *

شجرة في سفح . تنمو على جبل شامخ . تاجها هائل ، بني اللون ، يفترش مساحة واسعة من الفضاء .

في الجبل خلاء محترق لقصف سابق . آثار قرى مهشمة . قرى فلاحين أكراد قطفوا العنب وحاشوا التين . ألقوا بذورهم في تربة سوداء وجمعوا الصخور . وفي الأسفل ، وسط السهل ، تبين قلعة لعيني . تبين أينما انعطفت بنا السيارة . لقد اصبح الحلم بالخلاص حقيقة . حلمي لم يخلف الوعد . هو رجل يستحق التقدير . يحمل دمه على كفه . مضت

ليالي بعقوبة وأنسها ، كما تمضي غيمة شاردة في ذرى الجبال . اقتنعت انني محروس من قبل قوة عليا ، اذ لم تصادفني اية عقبة منذ ركوبي السيارة في كراج النهضة حتى وصولي الى كركوك . الامر الوحيد الذي اشعرني بالأسى ، هو حين حاذيت مدينة بعقوبة وعرفت انني لن ارى بساتينها ونهرها وحاناتها وجسرها العملاق . لا اريد الموت في الحرب . ضايع يحب النساء يا اخوتنا العسكريين . يحب الغجر . يحب الذرى العالية . لذلك ادار قفاه الى الوطن . يممت وجهي الى الجبل . الجبل حرية كما كان حلمي يردد كلما دب فيه السكر . لن ارى خيم الغجر ولا اشم عبير الراقصات . من اليوم وصاعدا سيكون الوطن قبضة احداث ومشاهد وروائح متخفية في صدري . هل سأندم انني فارقته ؟ لحد الآن انا مقتنع انني لن اندم مستقبلا على ذلك . هناك اماكن تطردك طردا ، وفي هذه الحالة ينبغي على الانسان امتلاك قليل من الكرامة فيدير لها ظهره .

شجرة وقلعة لأحد أغوات الأكراد ، شاهدان أبديان لا يمحيان ، مهما دارت الطرق وتعددت سلاسل الجبال . ومن أيما جهة ينظر المرء منها : شجرة للحكمة القديمة ، للخلود يضرب عروقه في وعورة الجبال . شجرة للمعادن الأرضية ومغاور الكهوف وأشلاء الماضي والثورات المندحرة وأوهام بني البشر ، وهم يفتحون ثغرة في صخرة أو ينحتون تمثالاً لسيمائهم ، ولا يخالطهم شك بقدوم الموت .

شجرة تجاور قلعة ، احدق بهما انا وحلمي ، من نافذة الزجاج ، لسيارة تنطلق نحو السليمانية .

- كم سألبث في المدينة ، سألته بصوت خافت .

- ربما ترحل هذه الليلة ، هل أنت خائف ؟

- كلا ، وضعت قدمي على المرتقى وعليّ أن أصل القمة .

في القمة شجرة حياة ذات تاج عملاق . طيور كناري ،

وباشقات ، وحدآت ، وعناقيد من ثمار ؛ شجرة سأطل منها على مديات وفسح وسهوب ومدن بارقة بالضوء ، اروم الضياع فيها .اليس اسمي ضايع ؟ حوصر الطريق خلفنا بالسلاسل الجبلية وأشجار العفص ، ولفّع السراب منحدرات وسبلاً وأعشاشاً ومزارع صغيرة شهدت آثار من مروا خلال آلاف السنين . السليمانية ، ملفعة بغلالة من ضباب ، من دخان معمل الإسمنت والسكر ، من بارود بنادق أشعلها الليل وتركت مخلفاتها على هذه اللحظة .

تجلت وراء المنحدر مثل عش هائل ، تناثرت فيه البيوض .

أوقفتنا مفرزة تفتيش . صعد رجل مدجج ببندقية كلاشنكوف . أجال البصر متفرساً كما لو كان يبحث عن لقية متوارية خلف وجوه الركاب . راودتني رغبة عارمة بلكمه على وجهه ، لا ادري لماذا . قدرت ان هناك اكثر من مليون مفرزة تفتيش في هذا البلد . على الطريقات ، في مداخل المدن ، عند تقاطعات الطرق ، قرب الجسور ، على القناطر . مفارز في غرف النوم ، تحت المخدات ، وراء الاشجار ، فوق اسطح البيوت . انهم يراقبون كل ما يدب على هذه الارض . لماذا ؟

كان الراكبون ؛ انا وحلمي ، ونساء كرديات بثياب فضفاضة ، مزركشة ، منمنمة ، تنفتح عند الجيد لتكشف صدوراً ناعمة وحناجر كأنها عقد در وأقراط ملونة بعيدة المهوى . أطفال يرتدون الشراويل ، يظهرون للعين كدمى ، ورؤوسهم مفلطحة قصيرة الشعر . عيونهم سود بها بقايا من رعب وثمالات من خوف . جنود وضعوا بيرياتهم على الرأس ما ان دخل الانضباط العسكري . شيوخ يعتمرون الجمدانيات ، وجوههم ناحلة ، مخددة بالتعب ، مشعرة تنوء بسنين مقبورة الآمال ، وهزائم متوالية تجلت في الجبين .

طلب الرجل ، حامل الرشاش ، من الجميع إبراز الهويات .

أبرزت هويتي ، مادة حياتي وإكسيرها ، والتعويذة المصاغة جيداً من نديم طاولة ، عرفته في احد البارات ، صدفة ، كان اسمه جوهر .

اشتغل كاتباً في ادارة إحدى الألوية العسكرية . وصل إلي فناولته ورقة الإجازة بحركة لا أبالية . قلبها بين أصابعه وسألني بنزق :

- إلى أين ؟

- إلى السليمانية .

- لماذا ؟

- زيارة خاطفة لصديق .

خرج صوتي دون عاطفة تذكر ، جافاً ، راعشاً ، حمل في ذبذباته أيام القلق وهزائم الروح والذعر ، الأيام التي عشتها في المعسكر وفي حضرة الضباط الكبار . في ازقة المدن ودروب القرى الواخزة الشوك ، والشوارع المغبرة وهي تومئ لي بالرحيل . وجه حلمي تندى بالراحة ، وكانت عيناه ترمقان وجهي بثبات ، كأنما تشجعانني على مواصلة المغامرة . الغريب ان الجندي لم يطلب من حلمي ابراز هويته . ربما يكمن السر في سيمائه الكردية ، لذلك فان سفره بين الجبال امر طبيعي لايجلب الريبة . ولجنا المدينة ولوج فاتحين حققا انتصاراً على جيش لا يقهر .

* * *

جو السليمانية ضاغط ، هواؤها ثقيل . يمكن أدراك ذلك في الوجوه والشجر والجبال والواجهات : كأن قمم الجبال استطالت ، وكأن أشجارها السود في شقوق الجبال تضاءل عددها ، وكأن الطيور التي كانت تحوم في فضائها قررت جميعاً الهجرة إلى فضاءات أعمق سكينة وأشد أمناً . باقات نرجس ضمرت وجفت . عيون صبايا مطفأة البريق . حدائق مهجورة غطت مراتها الأوراق الجافة وقشور البيض المتساقطة من الأعشاش . البيوت ملتمة على بعضها . كانت ايام الجامعة اياما ذهبية . قال لي حلمي ونحن نسير في شوارع غريبة علي . درست هنا في هذه المدينة المطوقة بالجبال . طلاب من كافة مدن العراق ، اجمل

مافيها فصل الصيف . كنت اجيء اليها في تموز ، واسكن في فندق الى ان تفتح الجامعة ابوابها . في الليل نسهر ، وفي النهار نقرأ ، كانت اسواق البطيخ والتين والعنب مفتوحة لايتعرض لها احد . اما فتيات السليمانية فهن اقمار ، يتجولن عصرا مثل عرائس . احببت فتاة اسمها شيرين ، كانت طالبة في كلية التربية ، وهي من اربيل . احببتها سنتين دون ان اكلمها ، حب من بعيد . ربما تزوجت اليوم . وربما رحلت الى ايران او الى اوربا . في هذا الوقت المضطرب لا احد يعرف المصائر . على اية حال كانت احلامنا كبيرة ، احلام بالزواج والثراء وتغيير وجه الوطن واقامة العدل للجميع . كل ذلك كان اوهاما .

كنت مسحورا لذكريات حلمي في السليمانية ، وهي من الحنين والصدق والدقة حتى ظننت اني عشت معه تلك الحقبة انا الآخر . استغربت ان حلمي يمتلك امكانية للصعود الى الجبل الا انه لايفعل . سألته اكثر من مرة حول الموضوع لكنه لم يعطني اجابة محددة . احيانا يقول سيأتي الوقت لذلك ، واحيانا يقول انه لايحب حياة الجبال . ومرات يرد ساخرا : كيف اترك نساء المدن وغجريات البلد وارحل الى الجبال ؟ اجابات مراوغة ، لكنني متأكد ان في الامر سرا لا ادركه . كنت استمع الى حلمي وهو يحدثني عن حبيبته شيرين بمتعة . انا امتلك ملكة اصغاء كبيرة . استمتع بالاصغاء الى حديث لذيذ اكثر من استمتاعي بالكلام . كثير من البشر يحبون من يصغي اليهم ، وكان حلمي من هؤلاء ، وربما هذا ما جعله يميل الي ويعمق معي صداقته . بل ويشاركني اسراره . تساءلت في داخلي ان كان هناك غجر في السليمانية ايضا ؟ وهممت ان اسأل حلمي حول الموضوع .

تلوت الطرق بين بيوت طينية ومساجد ودكاكين . النساء الواقفات في الأبواب كن يحدقن بفضول . متاهة تلك الأزقة لم تكن مألوفة لي : أزقة للمطاردات الليلية ، للاختباء لتوجيه قذيفة نحو معسكر أو ربيئة ، أزقة لعائلات تتكدس مع بعضها ولمهاجرين من القرى المخربة ولطلبة مدارس وعاهرات سريات وعملاء أمن وتجار عملة وأواني فضة

ومعوقين . أزقة يعشش فيها قمل وبراغيث وذباب أخضر يتلاصف بأشعة الغروب المنسكبة من كوة أو شرفة أو نافذة . للبيوت المتشابهة سمة لا توارى . أوقفني حلمي أمام واحد منها ، واطئ السقف ، ضيق الشبابيك ، كأنه مخبأ سري أو حفرة شاسعة . باب خشبي لونه أخضر ، طرقه طرقتين وعم السكون . لا بد أن تكون علامة متفقاً عليها . سمعنا بعد ذلك خطى تزحف ونيداً ثم نحنحة خافتة . فتح الباب رجل في الثلاثين ، ذو وجه طلق وشاربين أشقرين وشعر مدهون بالزيت نظيف : لم اكن بحضرة كاوه الحداد المفتول العضلات إذن ، بل مع معلم أو طبيب أو مرشد زراعي . كان استقباله حاراً أليفاً .

حديقة مزروعة بالثيل تنتصب وسطها شجرة تين ، بأوراق خشنة عميقة الخضرة ، يحيط ساقها حوض زرعت على حافاته شتلات باميا لم تزل غضة . وإضافة إلى الحديقة وشجرة التين ، كان السياج يضم بيتاً صغيراً وغرفة يفصلها عن البيت ممشى مسقوف بدالية عنب ، وردية مجللة بالغبار . باب البيت موصد ، باب الغرفة مفتوح ، واليها قادني الرجل . قال حلمي لي في الباب قبل ان يغادرني :

– لاتنسنا ، ستمضي الى الجبال ويصبح كل ما عشته سابقا مجرد ذكريات . لكن ينبغي ان لايغيب عنك انك تركت اصدقاء واهلا ومدنا خربة وسجونا وجلادين . احمل هذا البلد امانة في رقبتك . الخلاص لن يكون فرديا .

مضى حلمي الى الكراج بعد ان قبلني . شاهدت عينيه تترقرقان بالدموع . لم اتخيل ان حلمي يبكي . انه قوي مثل صخرة جبل ، لايعير كثير اهمية للعواطف . هكذا خبرته سابقا على الاقل . ابتلعته الازقة الموحشة ، وكان له سمة شخص عازم على المضي الى هدفه حتى النهاية .

اغلق مضيفي الباب وقال بهدوء :

– هذه غرفتك ، اختبئ بها كي لا تقع عليك أعين الجيران .

كانت الغرفة مسقوفة بأعواد السنديان مع القش المضفور غلف بطبقة من الورق المحترق بأكثر من موضع .

غرفتان ، واحدة تائهة بأزقة الخيدرخانة ملفوفة بسيلوفان العيون وشباك الشكوك يقطنها حلمي ، رباط الوصل بين المدن والجبال ، وغرفة تسورها جبال عالية : بيره مكرون ، قرادغ ، سياج بنادق متأهبة ، رجال سريون يتخذون من الجبال شقوق مأوى ومن الكهوف مخازن عتاد ومن المنحدرات المبسوطة على حافات قلقة مزارع طماطم وباذنجان وخيار . على الجدار المقابل لعيني علقت لوحة ذات إطار خشبي عتيق : جبال مكللة بالثلج يتراكب بعضها على بعض . تعرش خلالها دروب ضيقة سود تتقاطع وتتجاور . تغيب في دنيا البياض أو تميتها قمة مدببة تطعن فضاء أزرق . سماء ملساء عارية . يشرق على الكل ، على الدروب والقمم والسماء والثلج وريشة الرسام قمر كامل الاستدارة ، فضي السطح كأنه درهم مسكوك . كنت اتلفت حولي باحثا عما ازجي به الوقت . امامي ساعات وساعات . لو كان لدي كتب لتسليت بها . منذ اليوم سأبدا بقراءة الكتب الثورية ، لماركس وانجلز ولينين . فالافكار تغير الواقع دون شك ، خاصة اذا كانت افكارا حادة وثورية وتقطع مع الماضي لتبني حاضرا مشرقا . لكن هل يمكن للورق ان يزيح عن كاهل البشر كل تلك المواجع والآلام والعذابات ؟ وكيف تقف الكلمات ، تلك الاشكال البسيطة الحاملة للصور والافكار والاحلام والعواطف ، كيف لها الوقوف بوجه حرارة القذيفة الهائلة او فرقعة صاروخ مروعة او سرعة خارقة لاطلاقة ؟

لا املك ورقا او قلما ، وليس هناك كتب في الغرفة . وليس ثمة رجال مسلحون ، ملتحون ، غاضبو التعابير . هناك صورة المنظر تلك . لم يبن فيها قطيع غزلان برية أو ثعالب رمادية . ثمة فقط المثال المطلق الذي تجلى لبصيرة الفنان عن عالم الجبال .

وشعرت أن هذا الإطار الرخيص ينقلني عبر رموزه إلى العالم

البعيد ، الموجود خارج الغرفة والمدينة . خارج البلد التعيس هذا ، لكن لابد لي من المرور عبر الجبال اولا . . . . .

* * *

كيف ربط حلمي علاقته بهذا البيت ، وكم مرة زاره قبل هذا اليوم ؟ اين التقى بالرجل ، في كركوك ام السليمانية ، ام انه كان يزوره في بغداد ؟ ربما رآني في غرفة حلمي الكائنة في الحيدرخانة دون ان اعرفه ، وربما لم التق به الا اليوم . حين كنت انا منشغلا بهموم خالتي وتقولات العمات والاعمام والاقرباء ، منهوك القوى بتتبع مسارات اقدام خالتي الليلية ، كان حلمي دون شك ينسج خيوطا بين بغداد والجبال ، ليضخ منها البشر الى حيث الكهوف والسفوح الصخرية والطرق الوعرة .

عرفت دون تفاصيل متشعبة ، ان صديقي ، فتى كركوك ، مرتبط بتنظيم حزبي صغير ، له خلايا في بغداد وبعض المدن الأخرى . مهمتهم الرئيسية ، عدا توزيع المناشير في بغداد وبعقوبة وكركوك والبصرة احيانا ، انقاذ الاشخاص المطلوبين من السلطة ، بتسهيل خروجهم الى الجبال . لكن هذا يتعين عليه التزامات كبيرة اولها وأهمها على الاطلاق الثقة الكلية . فانكشاف الخطط تجر المعني الى الموت حتما . هذا يعني ان حلمي كان يوهمني بالنزول الى بغداد ، في حين كان في الحقيقة يأتي الى هنا . ينسق رحيل هذا الشخص او ذاك . يقوم بمهماته في ايام الجمع خاصة ، او عند اخذه اجازة من العقيد طالب . فهمت منه ايضا انه سيصعد الى الجبل اذا ما نقلوه الى الجبهات الامامية . لن يكون غبيا كي يموت في حرب لا تخصه ، وليس مقتنعا بها .

اذن كان سكره وعبثه مع الغجر ، وبحثه عن اللذة ، وسخريته الدائمة من الاشياء ، ما هي الا تمويه للأعين المترصدة . ففي المعسكر لا يتكلم حلمي الا عن العرق والكاولية والطعام . وحين يمر ذكر بغداد يمضي به الحديث دائما الى حاناتها وموبقاتها . ومن يسمعه يعتقد ان

هذا الشاب غير معني لا بالحرب ولا بالحياة الجادة . يرفض الزواج ويحلم ، كما كان يكرر دائما أن يصبح مقاولا مثل صديقنا عقيل . لكنه لايملك بقرا ولا ثيرانا ، يقول ثم ينفجر بضحكة عالية عميقة ، وتلتمع عيناه بالريبة .

هذه الحياة مليئة بالاسرار ، ومنذ اليوم يجب علي ان لا اصدر احكاما سريعة .

عليك بالاحتراس يا ضايع!!!

قلت لنفسي وأنا في تلك الغرفة محبوسا مثل جرذ ، محدقا برسمة الجبال تلك .

* * *

في الليل المتأخر طرق الرجل بابي وطلب مني الجلوس معه في الحديقة .

سألته بقلق :

- هل سأقضي الليلة هنا ؟

- كلا ، سترحل عند انتصاف الليل مع شخص سيأتي لأخذك .

كان هناك مصباح أصفر معلق بغصن متدل من شجرة التين ، حولنا إلى كتلتين شمعيتين ، الى جرمين عتيقين بلا زمن . أحاطنا الليل بالسرية والغموض ، في عالم وجدت نفسي فيه نابياً عن نسيجه ، جديداً وسط أرض كل ما فيها عتيق ضارب الجذور . قراص في حقل برسيم ، بقعة على بحر بياض ، فكرة ناشزة وسط حديث محبوك ، ولولة ساقطة من خرم في سقف يظلل عرساً . انا ضايع الجريان المقدم على مغامرة حياتي الأولى ، التي لا اعرف الى اين ستنتهي . سألت رب البيت بصوت واهن غير واثق :

- لقد شعرت بالألم لفراق حلمي ؟

- من هو حلمي ؟

- هذا الذي اوصلني اليك .

- يمر يومياً عشرات الرجال ، فكيف لي أن أعرف : قصار ، طوال ، ملتحون ، والنهر يسري والباب مفتوح ، وكلنا في قبضة حديد محمى ، كيف لي أن أعرف ؟

- كان زميلي الوحيد في المعسكر . قضيت معه ليالي جميلة وكثيرا ما كان يحدثني عن الجبال . كان ايضا يجالسني في مقهى البرلمان ، انها مقهى في بغداد .

- لم أزر بغداد إلا مرة واحدة .

انقطع الحديث بيننا لحظات ثم اسرّ الرجل بخفوت :

- هنا في الجبال لا تشر الى شخص باسمه الصريح ، خاصة اذا كان يعيش في المدينة . حتى انت حاول تغيير اسمك الحقيقي . تعرف انها ضرورات امنية . رغم ان الأغلبية متمردون على السلطة لكن يوجد بينهم مندسون . مهمتهم هكذا ، ولدتهم امهاتهم كي يصبحوا جواسيس .

لم ينقذني من الحرج ، الذي اوقعت نفسي فيه ، وانا استمع الى توجيهات الرجل وشروحاته ، الا قرع الباب الخفيف الذي سمعناه .

- وصل .

همس . إشارات ، متسارعة . غموض له طعم مالح لكنه بلا رائحة . هنا يمكن لي رؤية التخوم ، الحدود الفاصلة مابين السجن والحرية . المدينة جراب هائل تتناسل فيه أحياء وتختصم . انها لحظة فاصلة بين حياتين ، تقود الى المجهول . ورغم انني اخاف من لحظات حاسمة مثل تلك ، الا انني اود مجيئها لما تحمله من مغامرة وفضول ومعرفة . مواجهة الخطر خير من انتظاره .

– انهض يا كاكا سلام ، أشار لي صاحب المنزل . نهضت . همس لي : سيكون اسمك منذ اللحظة كاكا سلام فلا تنس هذا .

كانت دهشتي لاتوصف . بثانية واحدة لم اعد ادعى ضايع بل سلام . احببت الاسم . تخلصت من ذلك الاسم المزعج . تخلصت من استمنائه وشذوذه ، من تاريخه المليء بالخوف والقهر . سيبدأ سلام حياة ثانية . جبال وعيون وثلوج . مدن ونساء وغجر وقطارات . لغات اخرى ، بحار ومحيطات واشجار مدارية . حياة سيكرسها كاكا سلام الى المعرفة والمغامرة والحرية ، في ان يتطابق دائما مع نفسه . لا يخون ذاته ابدا . لست ضايع ، الذي يتلصص على النساء ، ويغار على خالته جميلة . لست من شعر بالخصاء وهو يكشف عن مؤخرة ام سعيد الغطاء ، بل كاكا سلام المقذوف الى الجبل دون خبرة سابقة .

وجدت رجلاً بملابس سود أشار لي بمرافقته دون كلمات .

– سآخذك إلى خان قريب ، ستكون القافلة هناك . قال هامساً متعجلا . لم يعطني اي فرصة لوداع مضيفي .

عبرنا في البدء حارات ذوات بيوت متداخلة . كأن هذه المدينة مخلوقة منذ الازل . سماء الليل تبين فيها خطوط طولانية مكللة بالنجوم ، بعيدة الغور . شوارعها خيالات . عطفاتها بقع إسفلت عميق السواد . لا إنارة فيها إلا غمازات النجوم وهي تأتلق لثانية واحدة بذلك السيف الناري الذي يقطع الأمداء العلوية المظلمة . في اي عالم انا ؟ تساءلت مع نفسي ، وانا المح بداية الطريق . البداية التي لاعرف ما سيأتي بعدها . كان الطريق يخرج رويداً رويداً عن تخوم المدينة : مزامير السيارات خفّت وغابت حركة الإطارات . الالتزاز بين البيوت تنحى فاسحا المجال للخلاءات الواسعة والفضاءات الأرضية . السماء تقترب . أخذ الخلاء يداعب أقدامنا . تلك هي الجبال : مع إني لا ارها ، لكني احسها . احسها كما لو كانت ماردا يقف ساتراً نفسه بطلسم .

ومن بعيد تشق ذلك التيه إطلاقات نارية لا اسمع دويها . يرى

منها فقط لمعان ذيولها .

– انتبه ، فاجأني رفيقي هامساً . نحن على مشارف الخان .

خلاء شاسع وحمحمة بغال وهمس ورائحة . سألملم مجساتي وأسبح دون وعي في هذا الخضم القادم . كانت ثمة أنوار وظلمة وعتمات . ظلال وأطياف . باب عريض أعرض من ورقة تين يتخيلها بزاق ، يلتصق بجانبيه سور من اللبن يضيع طرفاه في الظلام . وجدناه مفتوحاً فدخلنا . وراء الباب فسحة نحتتها شموع موقدة داخل غرف واطئة بلا أبواب . فسحة من الصعب إدراك أين تنتهي ولكن للغرف أسرارها أيضاً ، لا تعرضها إلا لمن تنال ثقتهم ، فهي تطوي أجنحتها على مهربين وهاربين وعصاة وثوار ومتطفلين ومغامرين وكسبة ، جاؤوا الخان تدفعهم أهواؤهم . وقفوا يتجادلون حول بضاعة أو طريق . لا يستطيع غريب فك مغاليق إشاراتهم إذا لم يكن جزءا من المكان : من المدينة والجبال ، من الأرض التي أشعلت حروباً ورمست جماجم ، أثمت فستقاً وأنشأت مسالك . غرف متآكلة مسقوفة بالجنفاص وخشب الجوز وعساليج العنب . تكومت أمامها أحمال وأكداس من الصناديق وأكياس تحتوي بضائع مهربة ستباع في مدن أخرى بأضعاف أثمانها ، وبعملات غير التي يتعاملون بها . يقف حولها ووسطها رجال غامضون . وعلى بعد أمتار منهم تعنقدت مجموعات من البغال مجهزة للرحيل . عشرات العيون اللاصقة لبغال ورجال وحشرات أرضية تتمترس في ضفيرة المدينة . سيقع النهار القادم عليها وهي تدب في طريق ضيق أو مضيق بين جبلين أو رحاب مدينة صغيرة لا توجد في الخرائط .

ضاع صاحبي بين البغال والرجال . لا شك أنه ولج عديداً من الغرف وتكلم مع كثير من الرجال ، فالقافلة متأهبة والقلوب ناطرة والليل عميق . لقد انتهى عهد ، قلت لنفسي . تناولت ورقة الإجازة من جيبي ثم مزقتها إرباً أربا . على إشعاعات الشموع الواهنة ، الحزينة ، رأيت المزق تتحدر بخفة على المياه الآسنة وروث البغال وآثار الأقدام وحرشفة

الأرض السميكة ذات الجوف الرطب . مزقا تحمل تواقيع ضباط وهميين ، ودمغات وحدات عسكرية مجهزة للقتال ، وحروف آلة طابعة اصدرت يوما اوامر بالاعدام والترحيل والتهجير والقصف والابادة والسجن . دقت الكلمات في ذهني مثل نواقيس كنائس : أين نقاط التفتيش ، أين العساكر ، أين قبضة المدن الحديدية ، أين الغول ، أين وحشة الموت التي عانقتها آلاف الأيام ؟ سقطت جميعها ، دون اسف او احترام ، في بركة هذا الأسن المحاط بأصابع الجبال . عاد صاحبي بعد دقائق مع رجل مسلح يقود بغلاً داكن اللون ، مثقلاً بالأحمال . قال لي :

- اركب .

ركبت البغل ، وتلك هي المرة الأولى التي امتطي فيها دابة ، منذ اكثر من عشر سنوات ، منذ ان فارق الغجر قريتنا ولاذوا بالفرار من النور والبارود وهيجانات المراهقين السافرة . سأتبع ذلك النداء السري الذي ظل ينغز في داخلي . علي ان ارحل عن هذه البلاد . ثمة حياة ثانية كتب علي أن اراها . سيكون هناك ايضا غجر آخرون ، ونساء سأستمني عليهن ما ان اريح رأسي على مخدة ، وانهار سآكل من سمكها وأسبح في امواهها . الحياة نهر وعليك ان تنحت قاربك الذي سيحملك الى احراشه وقراه ومهاويه . قال لي حلمي ذات مساء . الركود يعني الموت . الدنيا اوسع من قرية الحامضية . اوسع من مؤخرة امونة وقرحة وخالتي جميلة ، وكل الغجريات الجميلات .

ارتقيت ظهر البغل . حشرت جسدي الناحل بين علب الكارتون وأكياس النايلون . من ثمّ اتجه بنا قطيع البغال الذي يقوده رجال مسلحون ، الى ممر مظلم ، بدأ يحفر طريقه في الليل نحو الجبال .

السماء الليلية البعيدة ، معبأة بالنجوم . ينيرها قمر كأنه روح قديمة تسخر من البشر . انتصب مثل تمثال ميدي ، ليس بعيدا عن جماعتي ، غير مصدق انني دخلت العراق ثانية . الجزيرة ، سماهر ، دنيا الراقصة ، مسلم ، نوري ، السفينة العجيبة التي اعادتني سالما مثل السندباد ، وتلك الأحلام والرؤى والأحداث التي عشتها . اعود الى الارض التي فكرت بها طويلا ، وتذكرت مدنها ونخيلها وغجرها ونساءها وحروبها . بدت الجبال تحت ضوء القمر عماليق لها حياتها السرية ودروبها واشجارها ، قراها المختبئة تحت الصخور ، وجنودها الخائفون من الظلام والثوار ، ووحوشها التي تربت على اكل الجثث والبغال النافقة .

كان من الصعب رؤية اضواء في الأرض . النجوم وذلك القمر المطروق مثل درهم ذهبي . الهمس بين رفاقي ، الحنين الى ما رأيته وعشته ، في السنوات التي مرت مثل اغماضة . حنين الى صواري السفن ، التجول في الشوارع الضاجة بالموسيقى والنساء . السفر في القطارات والسيارات بين الحقول تحت ضوء قمر يتحرك دائما معي .

قمر يجلب الاحلام والخيالات والأحزان . ما يهم اليوم هو القرار الكبير الذي اتخذته بالعودة . لم افكر بالعاقبة او الجدوى من كل ذلك . الخلاص من الغربة الخانقة والضياع دون هدف بين البلدان والبحار والسنين . وضع ضايع الكبير رأس امه تحت القدر وهو يخاطبه بفورة من الغضب : اقتلها ايها القدر . ضحك الأقرباء والجيران وهم يتفرجون على المشهد الذي يدور امامهم في ساحة القرية . لماذا سماني ابي ضايع ؟ هل ضحك كثيرا في ذلك المساء وهو يرى رأس العجوز تحت القدر ؟ ربما تيمنا باسم ضايع الكبير الذي اصبح رجل مرور في المدينة ؟ هل كان يستقرئ مصير الضياع الذي سأعيشه في هذا العالم القاسي والفظ ؟ كيف لو ولدت قبل مئة سنة من عصر الحروب هذا ؟ او بعد مئة سنة من الآن ؟ هل كنت سأعيش مصيرا وتفاصيل حياة مختلفين ؟

وجود الفرد لايمكن ادراكه على حقيقته . ان قوة مجهولة هي التي تزرع الاشخاص في مكان ما وزمان ما بعينهما . في حياتي مئات من التفاصيل الصغيرة ، غيرت مجرى المغامرة التي عشتها . تفاصيل قد تكون حلما مرعبا او مصادفة بائسة او تعبيرا من تعابير الوجه ، او سلوكا غير مقصود . لو لم التق بحلمي ذلك اللقاء الحميمي في ليلة غجر بعقوبة لكنت ميتا اليوم في واحدة من متاريس الجبهة . لو لم اجد نفسي على تلك الجزيرة صدفة لما عرفت سماهر . او لو كانت امي اقل سمنة ربما ما فكر ابي بالزواج منها وما تنفست هواء قرية الحامضية المعبأ برائحة النفل والتوت والنخيل . ثم لو لم تكن خالتي جميلة جميلة لهذا الحد اكنت وقعت في متاهة القرب منها ؟ كلها تفاصيل صغيرة مرت ، الا انها صنعتني ثم قذفتني الى هذا التيه المسمى حياة ضايع الجريان .

انا واحد من مجموعة ستعبر النهر ، متجهة الى الجبال والسهول والوديان لتواجه قدرها المكتوب منذ الأزل . واحد من غجر هذا الوقت الموبوئين بالتشرد والحب والمغامرة . جيم جبل ، سين سماهر ، ضاد ضايع ، ثاء ثعلب يصيح بين ادغال التين ، باء بحر مليء بالسفن . عين

عبد الفرحان الذي اتذكره شابا ينطلق بالغناء في بيت مليء بالنساء والدخان وسعال قرحة ، المفتشة دائما عن النباتات . العالم مصنوع من كلمات تغري باللعب . ماذا افعل والكلمات تسحرني ؟ قسوة التجربة تصبح اخف حين احولها الى كلمات . لهذا اصبحت مسحورا بالحديث ؟

قال الدليل :

– لايمكن العبور جماعة . هناك جنود يترصدون النهر . يباغتون العابرين فجأة من وراء صخرة او من تحت شجرة جوز ، او من وسط حرش لايرى . سأجلس على الحافة واطلق صوت قبج جبلي . كلما سمعتم الصوت يعبر واحد منكم .

سيتحول دليلنا الى طائر جبلي اسمه القبج . لقد رأيته مرارا في رحلتي الأولى بين الجبال حين غادرت السليمانية هاربا من الحرب . كانت رحلة شيقة ، رغم ما فيها من خوف وتوقع وحنين . تصورت انني بخروجي من البلد سأولد من جديد كائنا مختلفا ، الا انني اكتشفت ذلك الوهم على مراحل . اكتشاف الشخص لاوهامه عملية مؤلمة . لم يفدني كثيرا تغير اسمي الى سلام . عدت الى اسمي الحقيقي فور خروجي من الجبال ووصولي الى سورية اول مرة . ضايع الجريان الذي ولدته الحامضية قبل بضعة عقود ، ثم اطلقته في فضاء الارض . . . . وحيدا .

على الامواج واغصان العليق الجاف وحافات الصخور المنتصبة في الجوار مثل بنادق متأهبة ، تسامق فجأة صوت الدليل . صوت قبج لايمكن تمييزه عن صوت الطائر الحقيقي . عبر الأول . تأكد الدليل من وصوله الى الضفة الثانية . اطلق الصوت من جديد ، فعبر الثاني . ظل الصوت البشري يهدل وسط الليل متماهيا مع كائنات الجبل الغامضة ووحشة القمر الطالع من عل . كانت المياه باردة ، والليل اسود حالكا ، والتيار جارفا . صرار ليل ونقيق ولبطات اسماك يبتلعها الموج ، يتلوى صوتها في الآذان . كان الهدوء يخيم على الضفاف . صوت الهدير

وحده يشرخ هدوء ذلك الليل المصنوع من خوف وخطى وحيوات لاتكشف عن هويتها . نحن غجر هذه الاصقاع ، الحالمين بالنوم ، وصلنا الضفة الثانية . تجمعنا في نقطة قريبة من قرية تتكون من ثلاثة بيوت . ان واحدا من تلك البيوت سيكون مستقرا لنا . هذا مانعرفه جيدا . ينتظرنا فراش من الصوف ، وغطاء يجلب الدفء وطعام يتصاعد منه البخار . حلمت بشوربة العدس الساخنة ، التي اتذكر طعمها جيدا مذ كنت جنديا في بعقوبة . عادة ما اتناول صحنا منها في كراج النهضة قبل توجهي الى بعقوبة . اكاد الآن ارى بخار ذلك القدر الكبير في مدخل الكراج .

دخلنا العراق متسللين بين الجبال وعبر دروب ضيقة لايراها الجنود . الجنود في كل مكان . تحت شجرة الجوز ، فوق الرابية ، على قمة الجبل الابيض النافث للبخار ، وعند ضفاف النهر . الجنود غير المرئيين ، المتربصون للعائدين ، الجنود الذين يتقنون القتل . قال الدليل ان مذبحة حدثت قبل اسبوعين على ضفة النهر . رأى الدماء تسيل مع التيار . دماء وماء غادرت نحو الجنوب ، الى غابات نخيل لم تبق منها سوى اطياف ومستنقعات بردي يطير فوقها البط ، ومقابر ممتلئة بالجثث . تصريح الدليل لم يبعث الخوف في القلوب . الغجر يتقبلون مصيرهم ، من اي جهة جاء .

القمر في السماء ازرق ، له استدارة لماعة محاطة بهالة من ضباب . تذكرت لوركا الاندلس ، وراقصة الفلامنكو ، ومحمد الماغوط ، وسعدي يوسف . تراءى لي طيف الجزيرة التي غادرتها في ليلة عاصفة مرتسمة في ذلك الوجه البرتقالي الضاحك الطالع على شجرة اللوز وجثة القنفذ وفوهة الكهف المليء بغاز الخردل . كان القمر شاحبا كما لو كان خارجا للتو من مذبحة . قمر التشرد والبلدان البعيدة . الانسان مصنوع من مدن . الانسان يتسع باتساع المدن التي عاش فيها . توصلت الى هذه البديهية ليس من مدة طويلة . ربما أوحت لي سماهر بذلك . الانسان يتسع بالمدن والنساء . سماهر اين انت الآن ؟ اعادني البحر

الى طرطوس وكان ذلك في زمن ماض . وجدت سماء من نمط آخر . هناك سنونوات ترسم خرائط غير مفهومة . نوارس لاتزعق بل تفرد اجنحتها على مويجات ريح رخية . نفاش بردي او ازهار ناعمة تتلوى في الفضاء .

كيف جرت الأحداث وعدت ثانية الى سورية ؟

هذا لا يهم كثيرا . كان ثمة سفينة وبحر وطيور بيض .

اقتربت السفينة من مرفأ ، لجزيرة صغيرة . هل رجعنا الى الجزيرة نفسها التي غادرتها ؟ لكن السماء تختلف ، وكذلك الرائحة . لكل بحر رائحته . البحارة مشغولون بتهيئة الحبال وتنظيف السطح والاستعداد للرسو . الجزيرة مأهولة بالبشر ، وفيها شجر متناثر بين البيوت ، وهناك قلعة من الحجر القديم تحاذي الساحل . كان هناك مساجد ، وقوارب صيد منتشرة في عرض البحر . اقواس مزينة بالمرمر الأبيض ، الذي كتب عليه الغزاة احلامهم ، ترتفع فيها قلعتها ذات الابراج . نزلت متسللا من السفينة ودخلت السوق . شاهدت الفخاريات والنقود النحاسية والبرونزية والفضية تناهت الى ايدي ابنائها بعد ان لامستها راحات لاتحصى . صدفيات بحرية ونماذج من الصناعات البحرية واشكال من الفخار . لوحات فسيفساء مرسوم عليها امبراطور روماني وجهه يشبه وجه امرأة جميلة ، وعمود اثري دونت عليه كتابات قديمة ، ادراج تقود الى بيوت حجرية واخرى تقود الى اقبية وقنوات تحت الارض .

القوارب من كل حجم ولون ترقد على المياه الزرقاء الرائقة . الصيادون والعمال يروحون ويجيئون حاملين الحبال والصفائح المليئة بالزيوت ، شباك وحبال ودواليب واشرعة وابراج مراقبة . شختورات ولنشات وفلوكات وسويحات فوقها نوارس تطير بهدوء . عن يميني تجلس فتاة صبوحة الوجه وحيدة ، على طاولتها اوراق ومجلات واقلام . كانت ترتشف القهوة ، وتدخن سكائر المارلبورو ، وتضع على رأسها قبعة صغيرة ذات لون تبني ، جذبني فيها عيناها السوداوان وكانتا

لاتستقران على مكان . اصطدت نظراتها بعيني فأشاحت منشغلة بأوراقها وجرائدها . مسحت الفضاءات بعينين قلقتين او مستثارتين . فكرت ان اتبادل الحديث معها ، وترددت . لكنني حين تأكدت انها وحيدة تشجعت وسألتها :

– عفوا هل يوجد فندق للنوم هنا ؟

– كلا . يمكنك الذهاب الى طرطوس .

– الجزيرة اعجبتني وبي رغبة للبقاء فيها يوما او يومين .

– يبدو عليك انك لست من هنا .

– نعم انا غجري اطوف في البلدان . هل يمكن ان اعرف اسمك ؟

– انا سماهر . اشتغل صحفية . جئت كي اكتب تحقيقا عن الجزيرة .

– يمكننا مشاهدة الجزيرة سوية اذا رغبت . انا ايضا ارغب برؤية المكان .

– لست محظوظا ، انجزت الجولة للتو . اصبح لدي معلومات ومشاهدات كافية لكتابة التحقيق . ما اسمك انت ؟

– اسمي ضايع ، ضايع الجريان .

هناك اشياء تفرض علينا كما اظن وليس لنا الا عيشها والوصول بها الى نهاياتها . يجذبك شخص من النظرة الاولى . من حركة او ايماءة او تعبير ارتسم ربما بغتة على الوجه او الجسد . ثم تقع في سلسلة من الانجذابات لا تعود بعدها قادرا على الفكاك . هذا ما حصل مع سماهر . ظل اسم سماهر يرن في رأسي دائما . رقم تلفونها في دفتري . اؤجل الاتصال بها يوما بعد آخر . الشيء الوحيد الذي ظل في خاطري هو عيناها . لم استطع نسيانهما . عينا سماهر تشبه عيني الفرس . كيف ؟ الا توجد نساء لهن عيون بهذا الشكل ؟ اجل . انها عين سوداء ، في

السواد التماعة حادة ، تكوّن ظلا آخر للعين . تكون عينا شبحية ان صح القول . الطرف القريب من الانف عريض ، يتقوس في الاعلى بامتداد واسع ، وفي الطرف المقابل يلتقي الرمشان ليبتعدا نحو صفحة الخد . الرموش مثل نخيل في المساء ، لذلك فهي حين تغلق عينيها وتفتحهما يحس الجالس قبالتها وكأنه يتلقى سرب فراشات تطير نحوه . كلما عنّ اسم سماهر في ذهني انغمر كلية بسرب فراشات سود .

* * *

في دمشق استأجرت بيتا صغيرا . ولم اكن بحاجة الى نقود ، فما معي يكفي ان اعيش اشهرا متبطرا دون عمل . رحت استكشف الزوايا والحارات والأزقة . اجلس في المقاهي واسكر في البارات واتعرف بين حين وآخر الى اصدقاء جدد . في كل مدينة يوجد اصدقاء ، بل يمكن القول انهم في كل مكان . الأنسان يجذب اليه ، مثل مغناطيس ، الارواح المقاربة الى مزاجه سواء من الرجال او النساء . اصبحت حياتي الماضية مثل حلم لشخص آخر . قررت الغاءها من خاطري واحلال قصص اخرى واحداث وشخوص واصدقاء محلها .

ذات يوم ، وبينما كنت اتفرج على لوحات فنية في احد المعارض ، وكانت الصالة تجذب كثيرا من الجميلات ، رأيت سماهر ثانية . هذه المرة برفقة شابة في عمرها اسمها نادية . كانتا تغطيان المعرض الى جريدة محلية . بدأنا حديثا حارا . عتبت علي لاني لم اتصل بها . فهمت ان لديها ميلا الى معرفتي . تريد الاقتراب مني اكثر ، لتعرف ما اختزن خلف هدوئي العميق ونظراتي الحادة وشعري الطويل وشفتي الحليقتين المزمومتين . انا ضايع الجريان اصبحت على ما يبدو مغريا للبنات . هذا ما لا احسه انا ، لكن الآخرين يقرأون الايحاءات بشكل مختلف . اول شيء لاحظته في سماهر انها تعرف كثيرين ممن جاءوا الى المعرض . تتهامس مع هذا وتضحك مع ذاك ، امام لوحة او

قرب تمثال . تطرف بعينيها وتحدق دون استقرار . شعرها احمر ، كث وقصير . تضع نظارة طبية على انفها فتبدو عيناها اكثر اتساعا . اقترحت سماهر بعد ان رأينا اللوحات بعمق ، وبدأ الزوار ينصرفون ، المضي الى مقصف قريب ، اسمه مرمر . يقع في حارات الشام القديمة . لم افهم السبب الذي دعاها الى ان توجه لي الدعوة . فهمت الامر انهما ، هي وصديقتها ، اتفقتا على تمضية الليل هناك وهما بحاجة الى مرافق لهما . على اية حال لم اكن املك برنامجا آخر ، فوافقت في الحال . اكتشاف مكان جديد افضل من الرجوع الى البيت والانزواء بين الكتب .

ما جذبني تلك الليلة ليس المرقص ذاك ، بطاولاته الخشب وموسيقاه وديكوره العتيق المتناغم مع دمشق القديمة . لم يجذبني اكتظاظ المكان بالشباب والصبايا ، ولا روحه المعتمة . ما جذبني هو شيء آخر . ذلك الشيء رقص سماهر . رقصت دون توقف . رقصت وحدها . هل ثمة شيء خاص في رقصها ؟ كلا . ترقص مثل البنات الاخريات . هل ابتكرت طريقة جديدة في تحريك الجسد ؟ كلا . ماهو الشيء الخاص اذن ، سألت نفسي اكثر من مرة وانا اجلس قرب نادية نراقب سماهر . انه روحها . هي التي كانت ترقص . ورقص الروح هو الذي يمتلك الخصوصية . هو الذي يميز هذا عن ذاك . لكن كيف ؟

من خلال الرقص كانت سماهر تروم الهيمنة على الجالسين ، لكي تصبح مركز العيون . تهز الردف بقوة وتنقل قدميها الصغيرتين اماما وخلفا . قدمان للزينة لا للمشي . تتثنى وترقص نهديها وتطلق تلك النظرات السود بين الفينة والثانية الى وجه من الوجوه ، كأنها تدعوه الى رؤية جسدها . نداء من الاعماق يلفت ابصار الرجال الى آلهة الخصب العريضة الردفين ، والأم الرؤوم التي تبارك ابناءها وتغريهم في الآن ذاته . دعتني كي اراقصها فقمت الى الفسحة مثل اخرق ، ورحت اهز جسدي دون انتظام . لم اتبع ايقاع الاغنية اللبنانية بل اتبعت ايقاعات سماهر ودقات قدميها وحركة جسدها المتنقل من هذا الجانب

الى ذاك . هل كانت تلك الليلة ايحاء لما سأعيشه مع سماهر ؟ فهي التي قادتني في الرقص ، وفرضت علي ايقاعها ، وهي التي ستقودني لاحقا الى حياتها الغريبة التي لم استطع التآلف معها .

جلسنا الى الطاولة ثانية . ساد السكون علينا نحن الثلاثة . نادية منكمشة على نفسها ، تحدق الى الموجودين بعينين فارغتين من المشاعر . كانت باردة معي وكأنها سلمت انني من نصيب سماهر . رحنا نحتسي البيرة بهدوء ونتسمع الى الاغاني ونراقب الراقصين الجدد . بان على سماهر التعب والارهاق وكأنها استنفدت طاقتها المختزنة . جاء الى الطاولة شاب ناحل الجسد وطلب من سماهر الحديث جانبا . قامت معه ووشوشها بضع كلمات ثم رجعت باسمة . قالت دون ان اسألها : انه زميلي ايام الدراسة . لم اعقب بشيء فالامر لايعنيني ولكنني استغربت من ان ذلك الشاب ظل مثبتا نظراته علي طول السهرة . السهرة التي انتهت في الحادية عشرة ليلا . طلبت سماهر ونادية العودة الى البيت ، فظروف البنت لاتسمح بأكثر من ذلك .

احببت في سماهر عدة اشياء . منها حنكها الصغير المدور ، وكانت حين تبتسم يبرز قليلا الى الاسفل لتنفرج شفتاها عن اسنان صغيرة بيضاء ، توحي بروح طفولية جعلتني اعاملها كما لو كانت اختا صغيرة بحاجة الى رعاية ودلال . اما عيناها السوداوان فقد ابتلعتاني كليا ، خاصة وهما تتغيران في التعابير والالوان حسب حالتها التي تعيشها . حين تفرح تضيقان وتلتمعان بلون عسلي . تستطيل الرموش فأحس كما لو اني اطل على بئرين غميقي الغور . حين تفكر بامر ما تصبحان سوداوين مثل فحم طازج ، فيصعب علي عندها التخمين بما يدور في رأسها . تبرقان بألق غريب حين اقبلها خلسة تحت اشجار الحدائق او عند منعطفات الشوارع . ارى فيهما المرأة الناضجة المترعة باللذة . اقبل عارضيها الناعمين الواسعي الاستدارة ، وهما اكثر ما كان يجذبني الى روحها . احس اني امتلكها تماما حين امرر فمي على كل عارض ثم اصعد الى العين فالامس رموشها الطويلة التي تنطبق عادة لاستقبال شفتي .

في حديقة الجاحظ جالسين على التلة الترابية حولنا البط في البحيرات والاشجار وازواج العشاق ، راحت سماهر تقرأ لي وللمرة الاولى اشعارها . كانت تكتب اشعارا منذ ان اكملت الاعدادية ، فيها بوح المراهقين وهواجس الفتيات الصغيرات وطموحاتهن ورؤاهن عن الحياة . وهي وان لم تكن ناضجة كفاية لتكون قصائد شعرية لكنها كشفت عن روح متمردة تطمح الى ان تصنع من نفسها شيئا مهما . سددت لها بعض الملاحظات عن اللغة والنحو اللذين اتقنهما جيدا فشعرت بالامتعاض ، فهي لا ترغب بالنقد . لا تود ان توجه لها اية ملاحظة حول ما تقوم به . روح ظامئة الى الاشادة والغزل والرعاية .

ذلك المساء الصيفي الجميل ، اقتربت منها الى حد كبير . شعرت انني سأحب هذه الفتاة الجامحة ، وستدخل قلبي دون اذن . وفي الساعة السابعة قالت لي ان عليها الرحيل فهي على موعد مع مراسل احدى الصحف في منتدى الرواق . دهشت في البدء . كيف تتركني وتذهب الى شخص آخر ، خاصة ونحن نعيش حالة من الود والصفاء معا . قالت الشغل شغل ، والعاطفة عاطفة . اذن فهي تستطيع فصل الاشياء عن بعضها ، وهذا ما أثار استغرابي . تذكرت مقطعا من احدى قصائدها التي قرأتها لي . قالت مخاطبة دمشق : ايتها المدينة العاهرة انني أدير مؤخرتي اليك .

انها فتاة تدير مؤخرتها لأي كان وتمضي .

خرجنا من الحديقة . مشينا باتجاه الرواق . قلت لها دعيني امضي معك الى الموعد فرفضت . تركتني بعد ان لامست اصابعي برفق ، وهذا ما جعلني اشعر بالاحباط . مشيت تائها لوحدي في الشوارع . خفت ان اذهب الى الرواق كي لا تقع عيني على سماهر وهي جالسة مع ذلك الرجل . لم تكن مشاعر غيرة ما احسست بها ، فانا لا اغار على المراة اذا لم اكن احبها . العلاقة بيني وبين سماهر لم تصل الى درجة الحب . نود بعضنا كثيرا . نرتاح حين نتكلم معا ، وسماهر لديها موهبة هائلة

بالحديث . تستطيع اختلاق موضوع يستغرق ساعات من حادثة بسيطة او طرفة . لا اعرف كيف تولّد الكلمات والتساؤلات والمفارقات . تجد المفارقات من احاديث بسيطة لا ينتبه لها الذهن العادي . قلب الكلمات او اخذ المعنى البعيد لها او وضعها جنب بعضها البعض او ما تعطيه من ايحاءات جنسية ، لا يلتفت لها في الحديث العادي . تعرف كيف تحول ابسط نكتة عندها الى نكتة مضحكة . انها موهبة كما قدرت مع نفسي . واضافة الى الجماليات التي وجدتها في جسد سماهر ووجهها وعينيها ، استولت علي ايضا بطريقة حديثها . بعد كل ذلك مضيت الى دكان قريب من بيتي واشتريت عرقا ريانا ولبنة وزيتونا وعلبة سمك طون ثم جلست أسكر مع وجه سماهر ، الذي كان يطوف حولي في فضاء الغرفة . كما اراه الآن مرتسما على صفحة القمر ، وهو يطل على الجبال .

انه حارسي الذي لا ينام .

* * *

كان اجتياز النهر ذروة الخطر . عادة ماتكون الكمائن على الضفاف . انها تجربة سنرويها لاحفادنا ، لاحقا . طبعا فيما لو نجونا من براثن الموت . اذا متنا فلسوف تكون ميتة لن يعرف بها احد الا عبر هذه الكلمات ، بعد ان روى القصص اكثر من شخص ، دون ان يعرف الرواة ان كانوا شهودا ام جواسيس ام مدعين . الحياة استحالت الى قصص في هذه الاصقاع . حين يهم المتسللون بعبور النهر ليلا ، يطل الموت من خلف الجبل . مياه باردة ، وازيز خافت لم نعرف من اين يصدر ، ظننا انه ازيز التيار الا انه كان في الحقيقة ، ازيز الخوف والافكار المنسربة من رؤوسنا . لم تثر اطلاقة ولا تعكرت رخاوة الاشياء . كيف تسللت سماهر الى هنا ، في ظروف قاسية كهذه ؟ هل سترافقني في رحلتي هذه حتى النهاية ؟ هل ستكون وحدها ام مع ذلك الجمع من الوجوه الأليفة ؟ حلمي ، خالتي جميلة ، نوري ، ام سعيد ،

مسلم ، وغيرهم وغيرهم . . . .

ان حياة ثانية كتبت لنا . سنعيش ازمانا طويلة ونواجه احداثا ونحكي قصصا لاحفادنا . هل كان ذلك واحدا من اوهامنا الكثيرة ؟ وهم الخلود ، وهم اقامة العدل في الوطن . كل ذلك كان وهما ؟ لقد قدر علينا الانتماء الى تلك الفصيلة الغامضة ، فصيلة الغجر . لكن من يدرك او يستقرئ او يرى غيبا ، ما سوف يأتي ؟ وها انني ارى حمارا راكضا في درب ضيق ، وفي الأسفل هاوية ستبتلع الجميع . اشجار ملتفة ومياه جارية وهياكل من عظام ورؤوس من حجر . واذرع تتلقف الساقطين في ذلك المهوى . الضوء لاهو بالعتمة ولا هو بالنور . في جبال كأنها شفرات حادة تحلق رؤوس المارين . الهواء اراه ذرات متطايرة وكائنات صغيرة ، تحمل الموت في ثناياها . هل يستطيع احدكم رؤية الهواء ؟

وكانت الخطى حذرة والخواطر في امكنة اخرى .

نوري ، الشخص القصير المدخن بافراط ، الساكت دائما عن الكلام . عيناه قلقتان ، وصوته متكسر ينم عن عدم الثقة بالنفس . ثمة يأس قاتل يحتل اعضاءه اجمع . انه لا يرغب حتى بتحريك اصبعه اذا لم يتطلب الامر ذلك . كان يؤمن ان الانسان لايمكن له عيش حياته مثلما يرغب ، عليه الانتماء الى القطيع والا مات . انه بحاجة الى مخدة من الريش يضع عليها رأسه المتعب . واستشففت منه ان مجيئه الى هذه الجبال لم يكن بمحض ارادته . من اجبره على ذلك ، وما هي الاسباب الكامنة وراء مجيئه ؟

كان نوري يردد كلما تكلمنا حول مصائرنا ان ثمة قدرا يسيّر شؤون الحياة ولا يمكن الهروب منه . يمشي بتكاسل دائما ، يظل الاخير في القافلة ، وكأن كل ما يدور حوله لايعنيه او لايستحق الركض من اجله .

نبح كلب صغير خائفا . هل يدرك ان الليل يجلب الأخطار ، الأخطار والذئاب والغرباء ؟ الهواء ثلجي ، والنجمة تتشظى على قمم

بعيدة ، تترك خلفها نثارا من الضوء . اجتزنا مخازن حطب مكتظة بخشب الجوز والعفص والاسبندار . كانت ذبالات مصابيح خافتة تنوس في شبابيك ضيقة ، لاحت محفورة في الصخور . تبينا شخصا يقف بانتظارنا ، في عالم شبحي كأنه ناتئ من مملكة الخيال . بدا خائف الصوت مرتجفا وهو يسلم علينا .

– لانستطيع استقبالكم في القرية .

–لماذا ؟ الاتفاق مسبق حول الموضوع .

– الجنود منتشرون في كل مكان . رأينا ثلة منهم تنحدر من جبل ماني موس القريب ، باتجاه الطريق الذي يقود الى المدينة . وهم في اي ساعة يمكن ان يكونوا هنا . اذا ما وجدوكم في القرية مع بنادقكم ، ستكون معركة . وستباد القرية عن بكرة ابيها . سيرسلون طائرات سمتية تفجر البيوت وتقتل الدواب والرجال وتغتصب النساء ، كما حصل ذلك في امكنة اخرى واوقات ثانية ، في هذه الجبال الموبوءة بالكوارث . نعم ، سيردمون الحقول ويرشون عليها مادة كيمياوية لن تقوم لها بعدها قائمة . القمح لن ينمو ، والتين يباد والعنب يتحول الى عساليج سود ، تروي قصة هذا المكان جيلا بعد جيل . . . .عليكم ان ترحلوا من القرية .

– لكن الى اين ؟ تساءل الدليل . ساعات ، ونحن نحلم طوالها بالراحة هنا .

قال الرجل الواقف في ظلام جدار ، ولم يتبين ملامحه احد من الواقفين :

– سأدلكم على مكان تبيتون فيه ، اكثر أمانا ، لكم وللقرية .

– قبلنا . . . . .هل هو قريب ؟

نادى الرجل الشبح شابا لاترى قسماته ، نحيف الجسد ، طويلا ،

يحمل بندقية كلاشنكوف في يده ، وربما كان كامنا فوق احد السطوح ، يراقب تحركات الكائنات حول القرية ، البشرية منها والحيوانية ، بروح تبحث عن الأمان .

– خذهم الى وادي العنب . قال الرجل الغائب الملامح .

ياله من اسم شاعري ، يوحي بالنبيذ والمعصرة ، بالكأس والفاكهة وهزة البطن . قال واحد من الفجر مع نفسه : الا ايها الساقي ادر كأسا وناولها/ متى ماتلق من احببت دع الدنيا واهملها . وقال آخر هامسا : ولما شربناها ودب دبيبها/ الى موطن الأسرار قلت لها قفي .

اختفى الرجل من مكانه بغتة . وجدنا انفسنا بين يدي الشاب الذي اخرجنا من القرية بأقصر الطرق . مشينا واحدا بعد آخر . كان الدليل اكثرنا جرأة على السؤال والاعتراض والمناورة . الطرقات ضيقة تتغلغل بين الصخور وتزاغل التلال الخفيضة . القمر في السماء ، كان يتبع الخطى . ارواحنا هائمة في امكنة ماضية . في مدن باذخة الضوء تركناها خلفنا ، في وجوه نساء شقراوات وبارات ضاجة بالموسيقا وفنادق مريحة تقدم النساء والخمور والاطعمة . اخبرني نوري ، وكنا نسير متحاذيين انه عاش مدرسا للتاريخ ، وكانت له زوجة وطفلان . كانت حياته مستقرة بعض الشيء . ولكن زوجته راحت تفتعل المشاكل لسبب لايعرفه ، ربما لانها اخذت تتصل بامها وابيها في العراق كل اسبوع تقريبا . وذات يوم حين عاد من المدرسة الى البيت فتح الباب ولم يجد احدا . كان البيت فارغا من اي انسان . ظل كما هو لم يتغير فيه شيء ولم يؤخذ منه شيء . البراد مليء بالاطعمة . الخزائن مكتظة بالالبسة له ولطفليه ولزوجته . حتى اكلة الغداء كانت معدة على الطباخ . شك ان زوجته ذهبت لزيارة الجيران . انتظر ساعات . تلفن الى معارفه واصدقائه في المدينة . سأل عن زوجته الا ان احدا لم يعطه جوابا . خمن انها رحلت الى هناك ، الى البلد الذي لايمكن له دخوله . كان محكوما بالاعدام ، والتهم كثيرة . فعلتها اذن ، قال لنفسه وهو

يتنقل بين الصالون وغرفة النوم والمطبخ . .

شرب عرقا وخمورا وبكى كثيرا . اخرج كل الالبومات التي وجدها ، وفرشها على الاريكة . وضع في المسجلة اغاني قديمة لزهور حسين وناظم الغزالي وسعدي الحلي وداخل حسن وجبار عكار . بكى على نوحها كل تلك الليلة المشؤومة . احس انه لم يعد يربطه احد بهذه الحياة . عاش اشهرا كما لو كان محموما .اشهر من اللعنة الحقيقية ، التي تتصاعد الى الرأس وتفور هناك كأنها زئبق وتحرق الشعر . تحوله الى قطن ابيض بعد ان كان غرابا . لم تعد هناك اية جدوى للحياة . الحياة كانت فارغة . لم يعد يأكل الا ليعيش ، وكان غذاؤه الدخان والخمرة المغشوشة والمصنعة يدويا . صحيح ان بينهما كثيراً من المشادات والمشاكل الا ان ذلك يحدث بين كل زوجين . لاحظ في الفترة الاخيرة قبل رحيلها انها لم تعد تراه . كان ذهنها هناك في البلد ، عند امها وابيها واخوتها . لم تعد تحتمل فكرة ان امها او اباها سيموت دون ان تراه . ثم كانت تبكي بصمت وتحتضن اطفالها مثل حمامة جريحة .

– الحنين ، قال نوري ، لعنة الفراعنة . انه لوثة لايمكن الشفاء منها . خاصة اذا لم يستطع الحاضر ان يقدم لك البديل . عيناك تظلان موجهتين الى الخلف ، دون كلل . عقلك يصبح قناة لا تسير الا باتجاه واحد . الى ذلك الشيء الذي افتقدته وتروم استرجاعه ، لايهم حتى لو كان الامر مستحيلا .

قصته عجيبة . قصة قذفته الى هذه الجبال . قال انه امر اشبه بالحلم ، من يتوقع انه سيرحل عن البلد الذي احبه . قال ذهبت الى مديرية الهجرة لاجدد اقامتي وكانت منقضية منذ فترة دون ان انتبه لها . تلك حال اكثر العراقيين اليوم ، فالقصص متشابهة ، والبلدان ايضا ، فكرت وانا استمع اليه . قال لم افق على نفسي الا وأنا بين يدي الشرطة . قالوا سنخرجك من البلد كما خرجت من امك . غريب وتخالف النظام ؟ ربطوه مع اشخاص آخرين بسلسلة طويلة واركبوه في

سيارة مغلقة اخذتهم الى القاضي . وصلوا الى بناء فخم عظيم ، مكتظ بالناس . مشوا في الممرات وسط دهشة العيون . كانوا مثل قافلة عبيد في طريقها الى سوق نخاسة . والله يا اخي ضايع فهمت وقتها فقط لماذا نحن متخلفون ، افضل من قراءة ملايين الكتب حول الموضوع . فشؤوننا تسيّر من قبل شرطة اميين لا غير . كانوا ينظرون الينا على اننا جحوش ومجرمون وقوادون . لم نكن بشرا في عيونهم . ساقونا مثل الدواب الى القاضي . هل سألنا القاضي عن شيء ؟ كلا ، حتى ولم يتطلع في وجوهنا .

قرأ ذلك القاضي المخنث اسماءنا فقط . قال للشرطة خذوهم الى السجن للتسفير . ليس هنا المشكلة ، التسفير امر طبيعي ، لمن خالف القوانين ، لكن المعاملة . كانوا يعاملوننا كأننا حيوانات . لافرق بيني انا المدرس الذي شاب شعر استه من الدراسة والقراءة والتجارب ، وبين اللص الذي لايفك الحرف . قادونا الى مكان على اطراف البلد وحشرونا في زنزانة . لايمكن القول انها زنزانة ، فهي صالة مساحتها عشرون مترا في ثلاثين . وكنا حوالي مائة شخص . من العراق ومصر وسورية والسودان وجيبوتي وتركيا وايران والهند . من جميع ام الارض . كل مجموعة تمثل بلدا ، وهكذا وضعوني انا مع شلة من العراقيين ، مزوري جوازات ومتجاوزي حدود ومهربي غنم عبر الموصل ، ومهربي بشر من العراق الى الخارج . ارضية السجن مفروشة بالبطانيات العتيقة ، وليس هناك مخدات فما كان مني الا ان وضعت سترتي تحت رأسي ونمت . وفي لحظة خاطفة ، وانا احدق الى الجدار المقابل ، بين اليقظة والمنام ، رأيت تحت النافذة فخذ انسان معلق هناك . يا الهي ، ما الذي جلب فخذ الانسان الى هذا المكان ؟ فخذ سمين ، ينتهي بحذاء اسود ، وجورب اسود ايضا . هل قطعوا جسد احدهم وعرضوه في الشباك ؟ هل هو شخص يقوم بلعبة ما ؟ لكن اين رأسه ، واين اطرافه ؟ خالطني الرعب من المنظر . فزرت واقفا من بين النائمين وادهش ذلك سائق السيارة المهرب فسألني ما الذي يجري . قلت له الا ترى الفخذ المقطوع

هناك . قال لاعليك ، انه رجل اصطناعية لاحد المسفرين المصريين .

نظرت الى الاسفل . وجدت رجلا سمينا كهلا يتكئ على الجدار . كان ينظر اليّ بابتسامة غامضة . ربما حدس عجبي من المشهد . تخيل شخصا بمثل هذه الحالة موضوعا في زنزانة . لم لا يحترمون عاهته ؟ لم جلبوه الى هذا الجحر المكتظ ؟ بعد ذلك رأيت اشخاصا من اغرب ما يكون . سمعت قصصا لم يدونها احد في الكتب . قصص الحياة ، التي تحدث كل يوم . آمنت ان في هذه الدنيا عالمين ، واحد ظاهر وآخر مستتر . وبما ان الشرطة والامن يتعاملون مع العالم السفلي ، عالم المجرمين والمخالفين واللواطيين والمعارضين والعاهرات والنشالين ، فقد اكتسبوا بالمخالطة سمات ذالك العالم . من عاشر القوم اربعين يوما صار منهم كما تعلمنا من المثل الشعبي . وفي ذلك المكان لم يكن هناك اغطية الا بطانيات عتيقة وسخة ، نتغطى بها كل اربعة سوية .

ذات مرة افقت في الليل من نوم قلق . نظرت الى المهجع . منظر البشر النائمين على جنوبهم مثل منظر السردين المعلب . تخيل مائة شخص يرقدون صفوفا صفوفا ويحلمون . يحلمون بالحرية التي سينالونها حسب امزجة الشرطة . كانوا يعدوننا كل يوم مرتين ، وكنت استغرب من الامر . الباب مغلق باقفال ، وبعد الباب حرس من الشرطة ، وثمة باب خارجي مغلق ايضا ، فكيف نهرب ؟ اما الطعام فيجلبونه بتنكات زيت كبيرة . رز مع بطاطا لاطعم لها وليس من رائحة للحم . يقدمون وجبة واحدة لنا كما يقدمون العلف للحيوانات . كل طقوس هذا المكان رتبت لسحق كرامة الانسان . التواليت ، الحمام ، توزيع الطعام ، النوم ، الكلمات البذيئة ، السباب ، اشبه بالمطارق الثقيلة التي تنزل يوميا على معادن البشر لتشكلهم حسبما يريدون . هل تستطيع محاورة شرطي ؟ كلا . سيلقمك بحجر ضخم من الكلمات المهينة ، وان شاء اخرجك من الزنزانة ليلقمك ضربا مبرحا بواسطة حزام سميك . وان شاء يجعلك تنظف المراحيض او تنقل الزبالة الى الخارج وتنظف براميلها . تلك ابسط العقوبات .

لم يكن لي اهل ، ولا معارف . رحلت زوجتي وتركتني اواجه هذه الحياة وحيدا . احسست انني يائس حقا . دودة سهلة السحق . يوم ويومان . ليلة وليلتان ، وانا دودة صغيرة بين عشرات الديدان التي تنتظر الفرج . او تنتظر جزمة شرطي ثقيلة لترسلها الى العالم الآخر . لا الى العالم السفلي ولا الى العلوي ، انما الى ضباب السماء . قلت لنفسي انك لن تخرج من هنا ابدا يا نوري . لابد ان ينسوك في زحمة هؤلاء البشر والقضايا المختلفة التي بين ايديهم . كانت السيجارة صديقتي . وكان الارق والكوابيس جنتي . وفي احدى الليالي نمت باكرا ، وكانت الشلة مجتمعة حولي ، يتحدثون عن السفر والعراق والشرطة والنساء . تركتهم ونمت . وفي لحظة من اللحظات لم اع بنفسي الا وانا اصرخ . صراخا مرعبا غير بشري ، جاء من مكامن عتيقة عمرها آلاف السنين . فتحت عيني واذا الشلة تحدق بي بعيون مندهشة وسمات متعجبة . قالوا ما الذي يحصل لك يانوري ؟ قلت انه كابوس . قالوا اروه لنا . قلت هل رأيتم شيئا ؟ قالوا اجل كنت تتمتم مع نفسك ، عيناك مقلوبتان من الرعب بياضهما كان واضحا . كنت كمن يحاول الخروج من شبكة محكمة او من نفق مظلم ، او هوة عميقة الغور . استمر هذا الوضع اقل من دقيقة وخفنا ان تموت فايقظناك .

قلت لهم اسمعوا اذن : لقد رأيت كابوسا غير معقول . رأيتهم وقد وضعوا جسدي في دولاب سيارة وقلبوني . كان هناك غرفة دون نوافذ ، فيها مصباح اصفر ضوؤه مرعب ، وطاولة عليها كرابيج . اصبحت رجلاي في الاعلى ورأسي في الاسفل . وكانوا ثلاثة يحملون كيبلات مطاطية راحوا ينهالون على رجلي بالتعاقب . يرددون بغضب : اعترف ياقواد . وانا احاول النطق دون فائدة . انعقد لساني كما يحدث عادة في الكوابيس وهم ماضون في الضرب مثل وحوش جائعة . على ماذا اعترف ، لست ادري . انني لست مجرما . ربما لانهم اعتبروني مجرما رحت احس داخليا بانني مجرم . اخبرتهم بهروب زوجتي مع الاطفال ، واخبرتهم كيف كنت اضاجعها ، وما هو لباسها الداخلي ،

والقصص التي حدثت لي منذ الولادة حتى تلك اللحظة ، دون ان يعني لهم ذلك شيئا . الامر الوحيد الذي كانوا يرددونه هو اعترف ياقوّاد . وكانوا يتعاقبون علي دون كلل ، حتى همّ احدهم باغتصابي . في هذه اللحظة اطلقت صرخة رعب ، وأفقت على عيونكم الخائفة .

جلبوا لي كأسا من الشاي . اشعلوا لي سيجارة . رحت ادخن بنهم . تلك يا ضايع ، عينة مما عشته قبل ان يقذفوا بي الى الحدود . قالوا انقلع عنا ولا نريد رؤيتك ثانية في البلد . فلم اجد نفسي الا وانا بينكم على ضفة النهر . وأنا بعد هذا الفصل ، الذي اعتقد الآن انه حلم كئيب لاغير ، آمنت ان هناك عالمين في مجتمعاتنا . لاتنس ذلك ، عالم سفلي وآخر علوي . وكل من يدعي غير ذلك فهو كذّاب . كذّاب وزنيم وابن قحبة .

* * *

غجر ، نور ، كاولية ، مشردون ، ضالون ، جاءوا من دمشق وبودابست وموسكو وبرلين واليمن ولبنان وعمان . غادروا الوطن منذ زمن لم يعد مهما لديهم . زمن كان يختصر نفسه كلما غار في الماضي . لكن تظل منه نقطة متوهجة هادية ليس من السهل تجاهلها . كانوا يحلمون اثناء مرافقتهم للقمر كأي كائنات بشرية ، مصنوعة من دماء وعظام واعصاب وتلافيف خلوية سابحة في محيط ارضي . يحلمون بحياة كاملة . يحلمون بعنقود عنب ، بكأس من النبيذ الاحمر ، باصابع امراة مطلية الاظافر ، بالشوربة وفخذ الدجاج والسفينة المتجهة الى بلاد افريقيا والنجمة المتلألئة فوق سطح البيت وخبز التنور وسلال التمر المركونة على الارصفة . يحلمون بأطفال يقاسمونهم دفء الفراش في الصباحات اينما كانت . لم يتبق لديهم وسط هذه الجبال سوى الحلم . يتفننون باختلاقه وعيش تفاصيله . كانوا في الحقيقة احلاما تمشي على قدمين . وسط هذه المتاهة لايبقى امام المرء الا الحكايات . الحكايات ممتعة وتستحق ان تعاش .

– لماذا تفكر بها ، لقد تزوجت ثانية ، لانها فقدت الامل برجوعك . كنت كابوسا لها طوال حياتها .

سألني نوري ، كيف عرفت ذلك ؟

– لانك تتعثر بالصخور وذهنك شارد في بغداد .

كان الشاب المسلح يقودنا في طريق جبلي محاط باشجار خفيضة مجهولة الاسم . صرار الليل يغرد من اجمة ، وافعى تنفخ تحت اغصان ساكنة والجرذ يخشخش تحت صخرة تحاذي الطريق . العالم اختصر بطريق ضيق ونجوم بعيدة وانفاس متعبة تتنشق هواء باردا واحلاما .

–وصلنا ، قال الشاب ونحن ننحدر من التل الى الوادي .

لم نر الوادي ، بل رأينا صحراء من ظلمة ، تتوسطها ذبالة تكاد تشبه سيجارة مستعرة . في الاسفل كانانات عملاقة تتمايل يمينا وشمالا ، تحت نور خفيف . من مكان بعيد يأتي خرير ماء مثل موسيقى ناعمة . تقدمنا نحو نار في القعر ، حالمين بالدفء . الدفء في الجبال فاكهة الفجر . الارض تتلوى من البرد تحت اقدامنا . النعاس يستولي على الابدان . اصوات المواشي ، التي لم نتبينها قبلئذ فاجأتنا . كانت راقدة على الارض محاطة بسياج خفيض من اغصان العفص والجوز ، شكلت مصدا للرياح ودرعا امام الحيوانات المفترسة في الجبل . الدب والذئب والثعلب والكلب البري . الضبع المترصد تحت اقدام الصخور وامام بوابة الكهف ، وتحت دالية العنب الملتفة على ساق شجرة التين . . . . .

عند مدخل الزريبة اقعى شيخ لاعمر له ، على موقد مليء بالجمر ، تتصاعد منه السنة نار ، تتسامق الى الاعلى مع دخان ، لاعشاب مجمعة حول الموقد واغصان جاهزة للحرق . ثمرات البلوط التي وضعها الرجل في الموقد كانت تنز في النار . تتصاعد منها رائحة لذيذة تشبه رائحة البخور . رائحة تعبق في المكان والسهل والسفوح . تصعد نحو القمر

السهران في اعالي السماء . احسست ، مقارنا مااراه من دعة وسلام مع سرعة جرياني الموهوم في الأمكنة السابقة ، ان لكل مكان رائحته ، مثلما لكل شخص سيماؤه . ثمة ديمومة تتجسد في لحظة الزمن هذه . اهذا ما ابحث عنه حقيقة ؟

سلمنا وجلسنا حول النار . قدم الشيخ الشبيه بصخرة داكنة مخددة السطح ، كأسا من الشاي ، وقطعة مكعبة من السكر لكل واحد منا . كان الشاي يغلي في ابريق كبير دس بين جمر الموقد ، يتصاعد منه البخار وتنتشر رائحته في الهواء . قدم لنا ايضا ، ثمار بلوط مملحة ساخنة ، التهمناها بشهية عارمة . كانت سخونتها مع الشاي ، تدفئ اجسادنا وتشيع فيها حرارة لذيذة . بلوط ساخن مملح ، ووجه الشيخ المليء بالخرائط ، ورائحة الماشية والليل . الظلال المتراقصة ، التي هي نفسها في كل زمان ومكان منذ ان دب الانسان على الارض . انها صورة متكررة وغير مفهومة لا ينقصها سوى راقصين وراقصات ، مطبلين وعازفي رباب وطبلات .

الكلب الذي سمعنا نباحه قبل الوصول . اضفى صوته حياة اليفة على الارض والسماء . كان يربض على مبعدة خطوات من النار . لسانه يتدلى احمر ، بدا عقيقيا مع لهيب النار ، واذناه تصيخان السمع الى دبيب الحياة في الجبال . كلما ثغت نعجة انتصبت اذناه ، كما لو كان يحدس ان هناك ذئبا يقترب ، او ارنبا فز من مكمنه او ضبعا يخطو نحو رائحة البلوط .

– سينام الجماعة هنا ، انهم جوالون ، يتجهون الى العراق مع بنادقهم . لايمكن لهم المبيت في القرية ، بسبب الاوضاع المعروفة .

قال الشاب بعد نيل كفايته من الراحة والدفء ، ثم نهض متجها نحو الجبل . نحو عين الماء الجارية وأثر الافعى التي ماتت قبل قرنين وعيني الذئب المترصد خلف حاجز المرجان . نحو هموم تدرج على نسيج الكلس وعذابات تنوح في الكهوف وأسماء تلف مثل دوامة من

قمة الى قمة ومن واد الى واد ، كي تسكن في قعر هوة لم يصلها بشر . تركنا الشاب ومضى . تركنا مع شيخ الجبل ، ذي العينين الكهرمانيتين الشبيهتين بعيني قبج الجبال . هذا المخلوق المكوع على الجمر الذي يمص سيجارته من مشرب طويل من خشب الزان ، ماهو الا ذلك المقاتل الاسطورة الذي اوقف زحف فرقة من الجيش وهي تتوغل في الجبال . اسمه على كل لسان . السيد علي برنو . في ذلك الزمن ، زمن صعودي الى الجبل ، كان علي برنو غيمة تلف الجبال من حصاروست الى حمرين . الجميع يتحدث عن بطولاته وفنونه القتالية . سموه جيفارا الجبل . وودت لو التقيه واشاهد وجهه . جميل ان يواجه المرء الاسطورة عيانا . لكن علي برونو لم يمتهن الرعي ، الا اذا كان الامر تمويها . الارواح كانت ترف على الاغنام الغافية في السهل وفوق اغصان الزريبة . تنفرش على جمر العفص ، مائلة نحو سهوب النعاس .

قال الشيخ :

– حدثوني عن بلاد الله البعيدة . من اين جئتم وماهي قصصكم ؟ لاتبدون من غجر هذه الجبال . لم يبق امامنا سوى الكلام ، نعبر به محيط هذا الزمن . انتم رغم مظهركم البائس محشوون بالقصص . وانا بعد هذا العمر المديد ، والعزلة التي اعيشها مع اغنامي لا اطلب من العابرين سوى الكلام . انهم يحكون ويعبرون . يغيبون في هذه الجبال ولا اعود اعرف مصائرهم . لصوص ، مهربون ، ثوار ، مهاجرون ، جواسيس ، مزارعون ، نور ، كلهم يروون حين يجلسون على موقدي هذا . انا لا اطلب الحقيقة ، بل الكلام . لرجل شيخ مثلي لم تعد الحقيقة تعني كثيرا .

قلت له : اسمع يا عم هذه الحكاية .

استدارت الرؤوس نحوي ، فطفقت اقص حكايتي .

ذات يوم شعشع القمر فوق سفوح قاسيون ، كاشفا ظلال الصخور البعيدة . اعين كثيرة تتطلع الى هناك ، وتقرر مصيرها بعد سرحان من

التأمل والهيام في النجوم والفضاءات . وسط البشر الذين يسيرون يمينا او شمالا ، كان بضعة قرباطيين ، قرروا بعد جلسات خمر وحكايات ومتاعب عاشوها طوال سنتين ، الرحيل غربا . لايملكون حميرا وخياما كالغجر الذين يعرفهم الناس منذ مئات السنين . ليس لديهم سوى حقائب صغيرة وقطع نقود بالكاد تكفي للرحيل . بعد يومين من رؤيتهم لذلك القمر الغريب ، على سفح قاسيون ، جاؤوا مطار دمشق للسفر الى بلاد اسوج بأي ثمن كان . حان الرحيل . وهذه المرة لابد ان تنجح المحاولة . كنت انا واحدا منهم . انا ضايع الجريان . الذي دشن تشرده بالوصول الى سورية اول مرة ، قادما من جبال كردستان . ارجعونا في الاسبوع الماضي من المطار بحجة اننا لا نملك الأوكي ، لكننا سندخل ونطير في الفضاء دون شك . كنا مصممين ونمتلك ارادة الرحيل . وفوق هذا ، هنالك توصية بنا من شرطة المطار . نوري ظل يردد منذ ان دخلت فكرة السفر الى رأسه انه سيحل عقدة المرأة الى الأبد . فهو خلال حياته كلها لم يعرف من النساء سوى الغجريات والعاهرات . مسلم صاحب معمل الميكانيك ترك عائلته في بعقوبة ، ووائل قدم توا من روسيا بعد ان درس الاقتصاد . سليم المحامي ، جاء من كردستان بعد بقائه ثماني سنوات في الجبال . سليم ووائل كانا بلحى كثة ومنظرهما اثار فضول رجال المطار ، وجاءوا اكثر من مرة للتأكد من جوازيهما .

قرباطيون معاصرون يمسكون حقائبهم خائفين . هذه المرة لابد من دخول البوابة . لايمكن لهم الرجوع ثانية الى دمشق ، صفوا كل حساباتهم مع المدينة . ودّعوا الصحاب والخلان وجهزوا انفسهم للرحيل . انتشرت حمى السفر بيننا مثل وباء ، لم يعد اثنان يجتمعان في مقهى او بيت او بار الا وينعطف الحديث الى السفر .

اشار شرطي التفتيش الى التقدم فمضينا مجموعة واحدة ، يتقدمنا نوري الاكثر حكمة بيننا . قال للشرطي :

– نحن عراقيون مقطوعون من شجرة ، وغجر لم يعودوا يملكون وطنا . ونود الذهاب الى اسوج . سهلوا امرنا يرحمكم الله . لايمكن ان نعود ثانية .

قال لنا الشرطي :

– اروني ماتحملون من وثائق .

كان نوري يحمل قصاصة من ورق يسمونه الليزاباس اعطتها له ايران بعد ان امضى سنتين في طهران . ومسلم كذلك ، في حين احمل انا جوازا مزورا واضح التزوير حصلت عليه في الست زينب ، بعد ان دفعت الفي ليرة . اما وائل وسليم فيمتلكان جوازين عراقيين عتيقين ، من ذلك النمط الكارتوني الغلاف ، الذي لم يعد صالحا . قال الشرطي :

– هاتوا بطاقات السفر ، سأمرركم فتوكلوا على الله . اذكرونا حين تصلون الى البلد التي نسيت اسمه .

بدا الأمر اشبه بالحلم . الغجر الحالمون ، قرباط هذا الزمان ، نور الأرض ، اجتازوا حاجز التفتيش اخيرا . مضينا الى صالة الانتظار ، ونحن بالكاد نتنفس . لانريد جذب الانظار الينا . نغمض اجفاننا كلما تقدم واحد من شرطة المطار في جولته العادية . نحدق في بؤرة مجهولة في الارض او على الجدران او في السقف ، خوف ان يلمس ريبة او ذعرا فينا . غجر هذا المطار ، كانوا يحسبون الدقائق سنوات ، ويخشون من كل خطوة تتقدم نحوهم . كل مايجري امامنا كابوس صغير سينقضي حتما مثلما انقضت كوابيس غيرها . تحولت الحياة الى سلسلة طويلة من الكوابيس . كابوس العمل ، كابوس الاقامة ، كابوس الزواج ، كابوس السفر ، كابوس ايجاد بيت ، وهكذا دواليك كما يقولون . كل ما عرفناه عن ارض اسوج هو انها شاسعة ومشمسة وفيها كثير من الابقار التي تعطي الزبدة والجبنة . كم سنة ستمضي قبل العودة الى الشرق ؟ اذا عشنا هناك وتعلمنا اللغة واحببنا نساء وربما انجبنا ، هل سيرغب

بعدها احد بالعودة ؟ ماهو المستقبل ، وكيف ستمر سنوات العمر ؟ تلك اسئلة ارتسمت امام كل واحد منا .

نادوا على المسافرين فنهضنا . شعرت انني اترك جزءا من نفسي في دمشق . عجيب كيف تتغلغل المدن في ارواحنا . دخلنا الطائرة . هناك رهبة في الطائرة ، وكأن رائحة الموت تدرج بين المقاعد . ماذا لو اصاب المحركات خلل ما ؟ عندها سنرقص في الهواء على ارتفاع الفي متر رقصة الدلعونة . كان علينا احضار دربكة ورباب . سنسمع السماء اغاني لم تألفها قبلئذ . . . . اسرع من الريح واخف من الهوا العالي/ اجيك تالي الليل يالعذبت حالي . . . . طرنا اخيرا ، نفذنا من روتين دولة وشرطتها وقوانينها . تحولنا فجأة طيور سنونو خارج الارض وحدودها واعرافها . طيور مهاجرة تبحث عن الدفء والطعام والبيت والمرأة الحانية . طيور لاتريد الموت في الحروب . علينا التفكير في المراحل القادمة ، قبل الوصول الى بلد الجليد والبقر الابيض المبقع بالسواد . شرب قليل من الخمرة امر ضروري لتهدئة الاعصاب . ثمة نبيذ احمر من ايطاليا وويسكي من سكتلندة وبيرة من هامبورغ .

قال نوري الذي كاد يطير من الفرح حين اقلعت الطائرة :

– ليتهم يملكون عرقا ريانا كنت طلبت بطحة كاملة . لكنهم يخشون رائحتها النفاذة فيما يبدو .

وكان نوري جالسا جنبي ، يدخن سيجارته مثل امبراطور افريقي .

شربت قنينة من البيرة بينما طلب نوري قدحا من الويسكي . ونوري هو الوحيد الذي لايملك نقودا . كنت احمل منة دولار . وهو مبلغ خرافي لنور وغجر وقرباط مثلنا . ثمة كثير من العرب وعدد قليل من الاوربيين .

سلمنا بطاقاتنا الى شخص سوري سينزل في برلين . قلنا له ضع البطاقات في مغلف وارسله الى هذا العنوان . اعطيناه عنوان عمران

الحلاق في مساكن برزة كي يستلم مرجع البطاقات ويتصرف به . فقد ساعدنا بابقائنا في شقته اسبوعا بعد ان ارجعونا من المطار في المرة الاولى . تلك الليلة سكرنا حتى الصباح ، وشبعنا ضحكا على ارواحنا الحالمة بالبارات والبيوت المكيفة والنساء والسفر . ما الذي نفعله بتلك الظروف غير السكر والنواح وسماع الاغاني الحزينة ؟ لكننا لم نفقد الأمل . فسيل اللاجئين يتدفق نحو الشمال دون انقطاع . لبنانيون وفلسطينيون وايرانيون وعراقيون واتراك واكراد كلهم شتتتهم الحروب . في ذلك الاسبوع تحاشينا الاختلاط بالعراقيين والاصدقاء العرب . سمونا هاربين ، او ذاهبين الى اوربا لاستجداء اللجوء السياسي . انتشر خبر ارجاعنا من المطار بين كافة المعارف . قال واحد من اعدائنا في جلسة سكر حين سمع بالخبر :

– هؤلاء الجواسيس سوف تستقبلهم شعوبهم بالاحذية . انهم يقتاتون على موائد الامبريالية .

اما صديقي الفلسطيني محمد ، وكان عضوا في جبهة تحرير فلسطين فصرح لصديق مشترك لنا ان من يرحل سينتهي بعد سنوات . سينسى اصوله ولغته وربما يطلب جنسية البلد . وحين سمع وائل بما قاله محمد همس لي اثناء جلوسنا في بيت عمران الحلاق نحتسي العرق :

– هذا ما اطمح اليه حقا . انني اطمح الوصول الى جزيرة نائية . جزيرة وسط المحيط ، سكانها لايتكلمون العربية اطلاقا ولم يسمعوا بها .لا اريد ان يعرفني احد . هناك اشتغل واتزوج وانسى تاريخي المر . انسى البلد الذي يسمونه العراق .

وائل لم ير اهله منذ عشر سنوات . لا رسائل ولا هواتف ولا اي خبر . وهو يخشى ان يكون اخوته قد قتلوا في الحروب او اختفوا في السجون . بقاء الانسان في ذلك البلد معجزة ، قال وائل لنا وهو يمسد شعر لحيته الكث ويمج سيكارته بعنف . والفجر مثل وائل ، رغم انهم يحنون الى الاهل والطفولة ورفاق الدراسة ، ورائحة النخيل والشواطئ ،

الا انهم يحرقون المراحل خلفهم دائما . انهم لاينظرون الى الوراء ، اعينهم دائما الى الامام . الى بلدان جديدة ومدن وشوارع وبحار وغابات ونساء . الماضي يرعب الغجر ، يجعلهم يفكرون ، والغجر لايرغبون بالتفكير . انهم يرومون العيش فقط . منذورون للرقص والمتعة والخمور والنظر في اصقاع الارض .

* * *

في لحظة غامضة انسللنا واحدا بعد واحد الى المرحاض . بهدوء لايجلب الريبة . يمضي الشخص الى هناك ، يلبث دقائق ثم يعود وعلى شفتيه ابتسامة الانتصار . لقد تمت العملية بنجاح . كانوا يمزقون وثائق السفر التي يحملونها . يمزقونها قطعا صغيرة ويشمرونها في منفذ التواليت ، ويسحبون الماء خلفها فتغور الى الاسفل ، اسماؤهم ومدنهم التي قدموا منها والاشجار التي رأوها وذكرياتهم ومواليدهم ولون بشراتهم ومهنهم . كل شيء يكشف عن اصولهم الماضية ، كي يصبحوا غجرا حقيقيين لايملكون من هذه الحياة الا قلبا ينبض وروحا ظامئة وعقلا وثابا . لانريد ان يرجعونا الى البلد الذي قدمنا منه ، فيما لو خابت مساعينا في الحصول على اللجوء السياسي . هكذا اوصانا الغجر السابقون الذين مضوا الى الشمال . اوصونا عبر الهاتف والرسائل ، وعن طريق القادمين للسياحة بعد ليل الغربة الطويل . الطرق التي راحت تتدفق لم يعد لاحد القدرة على ايقافها .

في مكان ما من العالم حطت الطائرة مرة اخرى . قيل لنا عبر المايكريفون : لقد وصلتم . انفتح الباب على البوابة الطويلة فمشينا خائفين . الخمسة فقط ، القرباط العراقيون الذين رحلوا الى ارض الجليد والبقر . كانت المفاجأة الكبرى حين شاهدنا اول رجل من البلد . اشقر الشعر ، ابيض الوجه ، ازرق العينين ، على وجهه تعابير جامدة الا انه كان يبتسم للجميع . لانعرف ماذا يجب علينا فعله . قالوا لنا ما ان يسألوكم عن هويتكم حتى تقولوا لهم نحن لاجئون سياسيون ، باللغة

الانجليزية . اقوام هذا البلد يتكلمون الانجليزية . بعد خروجنا من فوهة الممر توجهنا الى قاعة دافئة واخترنا المقاعد المتجاورة . القاعة خالية من البشر . يمرق بين الحين والآخر شرطي او شرطية ، وهذا هو الاعجب في ما رأينا . لايتطلعون الينا الا على سبيل الفضول . هل ظنوا انهم يرون اشباحا قادمة من العالم السفلي ؟ او من مجاهيل افريقيا التي لم تصل اليها امواس الحلاقة ؟ في رأسي ترن الكلبشات ، والعصي ، والبصاق والركل والمراوح ، وتندلق برك الزرنيخ والسيانيد لتغرق كل الذكريات . نتأ في رأسي جبل من الاشلاء . وثمة عاصفة غبارية خانقة تحتل قحفي . ولم يسألنا احد عمن نكون الا بعد مرور اكثر من ساعة . لقد لفتنا انظارهم اخيرا . بسحناتنا السمراء واللحى الكثة والنظرات الخائفة ، والدهشة العميقة من هذا المكان النظيف . جاء شرطي طويل ومعه شرطية شقراء بملابس بنية وزرقاء ، سألنا الرجل عن هوياتنا . كنا مرتبكين ، فتبرعت بالاجابة سريعا ، كمن يريد ازاحة عبء عن كاهله .

– نحن لاجئون سياسيون .

هز الشرطي العملاق رأسه وقال :

– الحقوني .

في سري اجبت نفسي بكلمة طز . اي سياسيين واي بطيخ . لم نكن سوى مشردين . كلمة سياسة صار لها معنى تافه في شرقنا . السياسيون هم قبضايات ومتآمرون ومدبرو انقلابات وكذبة . فما بالكم بشلة جيوبها فارغة ووجوهها كثة الشعر وانفاسها ملوثة بالتبغ ! طز . انها نكتة حقا . بل كذبة . لكن ينبغي على الانسان الكذب احيانا ، وفي احيان كثيرة ينبغي تصديق كذبه أيضا . تلك معادلة الحياة وليس نحن من صنعها .

في غرفة صغيرة ناعمة الاثاث جلسنا . راح الشرطي يستجوبنا عن اسمائنا وبلداننا وجوازات سفرنا والدولة التي قدمنا منها . يقوم

بعمله بشكل روتيني ، كمن اعتاد عليه يوميا . اجرى جردة للحقائب ومحتوياتها والنقود والوثائق . دوّن المعلومات في اوراق تحتوي على اسئلة باللغتين الانجليزية واللغة المحلية . انهى المحقق مايريد . تناول الهاتف وطلب شخصا ما . تحدث معه دقائق وهو يتطلع في وجوهنا ويحاول الابتسام بتكلف . خارج الغرفة ممرات مضاءة باللون الذهبي ونظافة غير مألوفة ورائحة منظفات وموسيقى تأتي من مكان ما من تلك الدهاليز الكثيرة . بين الحين والآخر يطل وجه عامل نظافة او شرطي يرمقنا لحظة ويمضي الى غرفة ما . قرود ، من يرغب بالفرجة على قرود . الفرجة مجانا . والبشر هنا يتراطنون بلغة ثقيلة الوقع على الأذن كما لو كانت نقيق ضفادع او لهوجة انسان اعجم . لم استطع امساك ايقاعها ، بل لم استطع فرز حتى كلمة واحدة . فهم يتكلمونها برشاش سريع ، متداخل الألفاظ . لم نتكلم فيما بيننا الا في الضروريات . نخشى ان نخطئ بحركة ما او تعبير فظ سيكون ذريعة لهم في ارجاعنا . لكل هذا لم يعد امامنا سوى التدخين بشراهة . نحن الآن غجر لاغير . سنمتلك رقما واسما وقسيمة ، ونعيش حسب اهواء البلد . وائل يمسد لحيته وينتف شعر عارضيه او يقضم شعر شاربيه . سليم عيناه جمرتان تتطايران شررا . فمه غاضب من أمر ما لم يستطع احد معرفته . ظهر في الممر فجأة شرطي آخر اقصر من الأول . تكلم مع الشرطية والشرطي ثم اومأ لنا وقال بالانجليزية :

– لنمض .

جرجرنا حقائبنا وراءهم وكان عدد من الاشخاص يحدقون بنا باستغراب . توجهنا خارج الصالة الرئيسية للمطار باتجاه الباب . عالم آخر . عالم لم يخطر على بالي مطلقا . هواء بارد ، كان يسفع الوجه كما لو انه سوط من الحديد . يتغلغل في الملابس دون عائق ، لم تصده الكنزة الخفيفة ولا الجاكيت الشتوي . السماء بيضاء ، كأن الفجر موشك على البزوغ . الاشجار اشباح بيض تتناثر فوق مسطحات بيضاء ركنت فيها سيارات بمختلف الاحجام والاشكال ، كلها مغطاة بالثلج . بلد

شبحي بامتياز ، لاخيام ثمة ولا نخيل ، لا انهار تجري او خيول . سهب شاسع من بياض وسكون مطلق . صعدنا سيارة ميكروباص ، وافهمونا بانهم سيأخذوننا الى مخيم تابع للصليب الاحمر ، ففرحنا . سنلتقي اخيرا بابناء جلدتنا . بانت الفرحة بوضوح على وجه وائل وسليم ونوري ومسلم ، فهذا يعني انهم قبلوا بنا للدخول الى هذه الارض . لن نرجع الى الوراء ، سنكون عجرا مخلصين لتاريخنا . الى الامام دائما . لا رجوع الى الماضي .

وقفت السيارة ، بعد نصف ساعة من السير ، في مكان ما . برودة غير معقولة ، وغربة . بناء ضخم ، مسيج بشبك من الحديد . ثلج وراءنا وثلج خلفنا . اين القصب والبردي والفالات والحبال ؟ اين النخيل والصفصاف ورغيف الخبز ؟ اين النساء الملفعات بعباءاتهن ، اللابسات ذهبا وخزامى وخزا ؟ الارض ثلج والسماء بيضاء ثلجية . الاشجار ثلوج متراكمة على بعضها ولا طيور في الفضاء . كم الساعة ؟ تغير الوقت بعد طيران طويل فوق ارض محدّبة غير متناسقة الزمن . فوق غيوم تشع كأنها در منثور . الحقول المجاورة لابد ان تكون غاصة بالدببة والذئاب والضباع ، فسيقان الاشجار طويلة ومليئة بالظلال ، والسكون مريب يولد الافكار . ظلال تترجرج وصفير واصوات . كتل الثلج تنهار في مكان قريب بصوت اجش مرعب ، من السقوف واشجار السرو وذؤابات الجوز البري . قمر السماء يكاد المرء يناله بين فكيه . ثمة نجيمات في سماء غريبة الضوء . سماء لاهي بالغائمة ولا هي بالصاحية .

استقبلنا عدد آخر من التائهين الغجر الذين وصلوا قبلنا . عرفنا منهم ان هذا المكان نقطة عبور مؤقتة يتم فيها استجواب القادمين وبعدها يغادرون الى الجزيرة . عن اي جزيرة يتحدثون ؟ هل سأعيش طوال حياتي في جزيرة ؟ هل يفصلوننا عن البشر الآخرين ؟ هل نحن موبوءون كي يعاملونا هكذا ؟ الم يخبرونا انهم يدللون اللاجئين السياسيين ؟ كان هناك نساء واطفال ورجال وكهول . قدموا من روسيا

ويوغسلافيا وبولندة وايران وتركيا وايطاليا ولبنان . عراقيون ولبنانيون وصوماليون وارتيريون واثيوبيون وايرانيون ، والمخيم الغجري خليط من لغات واجناس وسحنات . ادخلونا الى مطعم غريب الهيئة تشتغل فيه امرأة ذات شعر اصفر قصير . كانت ترتدي معطفا ابيض شفافا يكشف لباسها الداخلي الاحمر . قدموا لنا خبزا مستطيلا اصفر اللون ، وشوربة خضار ذات نكهة محببة ، وشرائح لحم باردة من اللحم البقري ، مع سلطة غريبة تتألف من الطماطم والذرة وجذور الرشاد الشبيهة بالخيوط مع المايونيس الطيب الطعم . قال مسلم هامسا :

– هل تعتقد ان ما نأكله لحم خنزير ؟

– انا الآن جائع ، واستطيع اكل ذئب حتى .

قدموا علبتين من الكارتون . الكارتون ذو شكل جميل ، رسمت فيه ازهار بيض على خلفية زرقاء ، وثمة بقرة مرقطة تنحشر في زاوية العلبة . قالوا انه لبن . انها اول مرة ارى فيها لبنا معبأ بالكارتون . تذكرت قدر امي المعبأ باللبن الخاثر . ليس هناك مقارنة . قدر اللبن كان مشبعا بروح امي وملمس يدي خالتي جميلة ودخان جدي الثقيل . فيه رائحة حقولنا المحمصة بأشعة الشمس . اما هذا ، فلا يعدو ان يكون عصيرا الكترونيا ، فيه رائحة المطاط والابخرة الكيمياوية والصقيع . الصقيع عنوان اسوج على ما يبدو . ماهو اكيد اننا نسير في نفق ، لايمكن الرجوع منه ، ولا المضي يمينا او شمالا . ليس من اتجاه سوى الامام . لابد من المسير .

ظلت الحركة حية حتى ساعة متأخرة من الليل . بعض يأكل ، وبعض يتسامر مع صاحبه ، وبعض يحتسي الخمرة في المطعم وهو يشاهد التلفزيون . هنا كل شيء مباح . الا ان الاضواء في قاعات النوم كانت خافتة جدا ، وفي الخارج هدوء عجيب . شيء واحد كان يوحد اللاجئين ، ذلك هو فرح الوصول ودخول البلد . اما كيف يقضي الواحد ليلته او هل يستغل وقته كما يجب ، او ينام كفاية ، امور لم يحن اوانها

بعد . ولم يلتفت لها احد . الفردية هنا شبه مغيبة . عليك الانسلاك ضمن جماعة مختلفة الامزجة والسلوكيات . كلها حالات مؤقتة ماداموا لم يحصلوا بعد على الاقامة . والاقامة ستأتي بعد اشهر ، وربما اقل ، واحيانا تتأخر سنة او اكثر لبعض الحالات المريبة او غير المقنعة . اما من يحدد ذلك فلا احد يعرف بالضبط . قسم يجزم انها المخابرات الامريكية وقسم يقول الموساد ، والقسم الآخر يصر انه الصليب الاحمر الدولي ، التابع للامم المتحدة ، وهذه ليست لها علاقة بالسياسة .

لا صوت زمور يسمع ابدا . حتى اصوات السيارات المارة خافتة جدا . لا طيور لا بوم لا صرار الليل . ثلوج وبرد واشجار ميتة . ليس هناك صفارات حرس ليلي او ضوضاء اسعاف . وكأن الموت ضرب بجناحيه هذه الاصقاع من الأرض . كنت استلقي قرب النافذة ، وكان وائل ينام تحتي ، فالسرير من طابقين ، وهو لايكف عن التدخين . بلور النافذة اصبح ابيض ، غطته طبقة خفيفة من الجليد . قيل ان درجة الحرارة عشر درجات تحت الصفر . الغرف دافئة والسرير العالي المكون من عدد من البطانيات والمخدات يوفر نوما لذيذا . الهمسات البعيدة تخترق اذني . يقول البعض انهم سيرحلوننا قريبا الى الجزيرة . حاولت جاهدا تخيل الجزيرة فلم استطع . لم ازر جزيرة في حياتي . هناك قصة طريفة لكاتبة سورية حول فتاة وجدت نفسها في جزيرة ، وحيدة ، تذكرتها . ذات يوم شاهدت غواصة قريبة منها فرفعت تنورتها على عصا كي ينقذوها . ومرة اخرى شاهدت سفينة في عرض البحر فرفعت كنزتها ، او قميصها . وفي المرة الاخيرة شاهدت قاربا فرفعت سروالها الداخلي الابيض ، فاذا بالسفن تنهمر على الجزيرة ، والطائرات تحط والقطارات تتوافد لانقاذها من الوحدة .

تلك شذرة ياعم من شذرات حياتي الماضية .

ليلة واحدة لاتكفي لرواية القصة كاملة .

اما ضايع الجريان فملىء بالحكايات . . . .

* * *

وظلت الكلمات تتساقط من افواه بعضنا في اللهب مباشرة ، مثل فراش . كلمات لها اجنحة رقيقة ، ولوامس بعيون مركبة وحراشف سميكة تروي ما درج عليها من ايام . المدن كلمات مستطيلة ، والبحار كلمات مبعثرة الحروف ، متموجة ، والشوارع انثيالات غير مترابطة ، والشجر الغريب تأتأة غير مفهومة . كلمات وكلمات يجر بعضها بعضا ، واذا الكائنات البشرية كتلة هلامية من حروف لا عد لها . تعبت من الكلام وسكت على مضض . اعطيت خيط الحكاية لغيري . سلمته مثل راية خفاقة الى نوري . اخبرنا عن قصته مع زوجته بحذافيرها . الدليل ايضا شارك في وليمة النار . قدم ملخصا لعشر سنوات قضاها متجولا في حقل الغام . هذا ما اطلقه على الجبال . لقد اعجبنا الشيخ بحضورنا وبدت في عينيه التماعات فرح طفولية . اختفت الرائحة العطرة في الفضاء الاسود ، وبدأ القمر يودع القاطنين . يودع املود الاسبندار وباب الكهف المسكون بالدببة وطرق الغجر السريين الذين يتوغلون في تلك اللحظة بين المدن الجبلية ، هم وبنادقهم وبغالهم وخيمهم ومؤنهم المكونة من الرز والسكر والطحين والتبغ والملح والمعلبات .

واحدا اثر واحد تمددنا . التففنا بتعبنا ، بكنزاتنا الصوف ، بأكياسنا الخاوية لما قل من الملابس . وكان النعاس يتمشى حول كلب الشيخ ، والذئاب تعوي في البعيد . القمر ينسحب ونحن نسقط في هلام بحري ، بين قوائم الغنم وعند سياجات الاسبندار والجوز . الشيخ يغمض عينيه دقائق ثم يفتحهما . اغماضة الذئب كما ورد الى خاطري . كان جدي الذي خبر حياة الصحراء يقول ان الذئب ينام بعين مفتوحة . صمت الشيخ بألم ، بعد ان راقب العيون تغمض اجفانها والالم يعبر مثل غيمة صيف على تعابير الوجوه . لم تعد عينا الشيخ تريان شيئا ، فالنار قد انطفأت . الا ان سمعه يرى ماحوله بوضوح . يرى بريق عين الافعى ، وذيل الضب المتلصص لالتقاط قشور البلوط ،

وحركة الاقدام الزاحفة التي تفتش عن غجر البلاد ، اقدام الجند المدججين بالرشاشات والراجمات وقاذفات الصواريخ والطلقات المضيئة التي تبرق بين لحظة واخرى في مديات خلف ذرى الجبال . منظر شبيه شاهدته قبل سنوات ، حين عبرت من كردستان الى سورية . لكنني كنت مع نوري الآخر وليس صديقي الكسول هذا .

خلف القرية والسهل وعند معابر النهر . كانت البغال تسير في طرق سرية . مهربون وفلاحون وزراع وقطافون ولصوص وجندرمة وجواسيس واغوات ودراويش ، ينتمون الى الطريقة الرفاعية والكزنزانية والقادرية . الكل يتجه الى مسارب الجبال وعيونها وقراها ومخابئها وثغورها المؤدية الى بلدان اخرى ومدن تتكلم بلغات ، لايشبه بعضها بعضا .

صيادون ينصبون شباكهم للقبج والسلوى ، متنبئون يمضون الى الجوامع والصوامع والكنائس بغية الحصول على مغفلين يشترون الحجب والدرابيش والدفوف . عشاق ومجانين وهاربون . وكانت النجوم تمضي الى كهوفها كي تغيب وراء ذؤابات الاسبندار واشجار الجوز . في القرية تصيح الديوك معلنة عودة الغجر الى البلاد . الغجر الجوالون الحاملون للبنادق وقد جاءوا من كل بقاع العالم . كانوا نائمين في لفح الفجر البارد ، يلتفون بين النعاج واصوافها ، يحلمون بالحرية التي جاءوا لقطفها .

الشمس اعلى من اغصان الزريبة ، واخفض من قمة الجبل البعيد المكلل بالثلج . الشمس قادت عربة الزمن ، بعد ان سكن كل حي وآب الى جحره . الا ان القافلة كانت تسير . غير عابئة بالمصائر .

* * *

على طريق دبق صار طينا وثلجا وآثار اقدام وحوافر كانت القافلة تسير ، غير عابئة بالمصائر . يسري في الدماء صقيع صباحي بارد لجبال مكسوة بهياكل اشجار البلوط والعفص والاسبندار . سقف من غيوم

خفيضة بلون الرماد ، وثمة ثلوج بعيدة في الافق ومطر . عن اليمين يجري نهر صغير راكضا ، احصنة من مياه محمحمة تنشر اعرافها بين صخور منقوشة بالسنين والمعادن . سلسلة من الفضة الهابة من كل واد ، من السوق وجذور الجبال وعروق اشجار الجوز الضاربة في الاعماق . سلسلة تمرق خلل الصفصاف حيث القبج والدراج والقبر .

لاحت دكاكين سوق بين الجبال . قال الدليل انه سوق يبيع كل شيء . في السوق وفي المسالك الجبلية وعند ضفاف النهر والوديان وعند حافات القمم ، كنا نرى بغالا تسير ورجالا مسلحين ومهربين ومشردين وباعة ومخبرين . هذا هو عالم الجبل الحقيقي ، اعود اليه مرة اخرى . اعود الى علي برنو وخانات المهربين والربايا العسكرية والقنابل المضيئة . عيوننا تعلقت في السوق ، في بغاله وبضائعه . قادتنا قنطرة الى بوابة السوق . لغط وذباب ورجال مسلحون . وعلى السفح المقابل دخان متكاسل . لم يرغب احد بشراء شيء ، ولم يلفت مرآنا نظر احد . يبدو ان الناس هنا معتادون على رؤية الغرباء . قلت لنفسي ان هذا السوق يمكن ان يصبح موضوعا شيقا لتحقيق صحفي . لكن كيف لي بجلب سماهر الى هنا . الكاميرا والمسجلة والقلم ، وسنسمي التحقيق سوق غريب بين الجبال . تلك المجلة الخليجية سترحب بالتحقيق حتما مثلما رحبت بالتحقيق الذي اجريناه انا وسماهر حول غجر العاصي .

اخذت اصوات السوق تخفت في آذاننا . وراء تلة تشبه بيضة عملاقة لم يبق سوى دوي النهر ووحشة الجبال . في الطريق الضيق قوافل تتأرجح صعودا ونزولا . تصاعدت رائحة نرجس مفتت وعليق متفسخ مطمور تحت الثلوج المتخلفة في الظلال . في الافق كرات من الثلج وعند المنحدر ذلك النهر الذي صار اقرب فأقرب . ينحدر الطريق ويقترب النهر . تقترب السراطين الجبلية وطفيليات المياه العالقة بالصخور وفضلات الاسواق . فوق شجرة جوز ضخمة غرد دوري لحنا حزينا وصوصأت عظايا من مكمن سري اهاجها اقترابنا الطارئ ونقرات المطر على التلافيف الصلدة الموشاة بالعيدان وخيوط العنكبوت ومزق

الملابس . تدحرجت صخور صغيرة من قمة الجبل . سقطت في النهر بوقع ارتطام ثخين . بعثرت المياه المتجلدة وراء حافة النهر . رفع الجميع رؤوسهم الى الاعلى حيث الحافة الاخدودية . كان عنز الجبل يندس بين صخرتين مثل خيط حرير اسود . هل سيسقط في الهاوية ؟ تلمظت الافواه وهي تحلم بالتهام ذلك اللحم الطازج بشهية المسير والتعب . . . . . ولكن كيف ؟

عنز بري ظل معلقا في الصخور ، مشبوكا بالغيوم ، لا انيس له ، مشغول بنفسه ، حائر من رؤية تلك القافلة الصغيرة المتجهة الى لامكان . كان يمطرنا بنظرات لانراها ، رغم اننا نهجسها . اعترضتنا بغال في منتصف النهر الضحضاح ، حوافرها تقرع القاع بقسوة . وبمواجهتنا برزت قمة جبل منعزل عن جبال الممر ، سالت منها السنة صخرية اوشكت على ملامسة النهر ، تخللتها مهاو سود واخاديد وكهوف مثلجة وسكون وشجر يتدلى مقلوبا مثل جرز البقدونس . احسست كأننا داخلون الى ملكوت طاله سحر عظيم . ملكوت صخور واشجار عتيقة تحولت سيقانها الضخمة الى ملاجئ للحيوانات .

كان النهر يفور من قاعدة الجبل . الجبل سيبتلعنا مثلما ابتلع المطر وثمار الجوز وعظام الآدميين ، المتخلفة عن الحروب . ليس ذلك مستغربا كما اوحى الصمت والانغلاق المضروبان على الممر .

قبل ان يدخل الطريق الى احشاء الجبل المنفرد ، انفتح فجأة ، بعد انعطافة حادة ، الى سهل قاسم رش ، العاج بالبارود وصهيل البغال والعطن . توغلنا بين اشجار الاسبندار والحور ، ورسمت اقدامنا دربا واضحا في الارض . درنا ، متوغلين بين اكوام الحطب واغصان العشب الجاف المغطاة بالنايلون ، ومرت علينا اكواخ واطئة لقرية نائية منسية ، واشجار بارزة الجذور . سمعنا خوار ابقار يأتي من العمق ، حيث ترقد حظائر الفلاحين الملأى بالبق والنتن . وعبر خياشيمها الحديدية كانت المداخن ترسل دخانها الازرق الخارج من الفة البيوت ، محملا بروائح

الطعام واجساد القرويات واحلام اطفال مزقتها العزلة والحروب . في فضاء القرية حوّم غراب بغتة ، ثم ابتلعه الثلج . نبح كلب نباحا مسعورا . كانت ابواب البيوت تقطر ماء ينحدر برتابة الدخان . تنث مشاهد خيل لي ، انا ضايع الجريان الذي لم اعد ادرك في اي مكان اسير ، ولا من انا ولم انا هنا وسط هذا المشهد ، خيل لي انني رأيت كل ذلك قبل سنوات طويلة . كانت المشاهد مثل حلم منسي ، يعود الى سطح ذاكرتي بغتة ، فأنا اقوم برحلة معاكسة . لم اتخيل حتى في الأحلام ، انني سأسير بطريق معاكس ذات يوم . اشتاق الى رؤية البلد الذي بذلت مرة حياتي للخروج منه . امر يبعث على الابتسام ، او الحكمة ، او السخرية ، او اي شيء آخر . خطر حلمي في ذهني مثل برق ، وسرعان ما ذاب في ضجة الكاولية ورائحة العرق المستكي ودوي المدافع .

بعد ساعة من المسير ، وسط الجبال ، وقفنا نتفرج على قطيع صغير من الماعز . كان يحاول ايجاد شيئ يأكله في هذه البيداء الثلجية . في الجبال يهاجم الجوع الانسان بغتة ، كما لو كان كامنا خلف صخرة ، او وراء شجرة عفص عتيقة .

– لم لا نشتري سخلة ونأكلها ؟ صحت للرفاق بنبرة مازحة .

قال الدليل : انه اقتراح جيد ، ولكننا لا نملك خبزا .

قال نوري : سنجمع النقود ونشتري السخلة .

اتفقنا على ارسال واحد الى القرية لجلب الخبز والملح . ساومنا الراعي فباعنا سخلة لايزيد عمرها على السنة . لم اكن اتصور ان اقتراحي سيقابل بجدية مثل تلك . اخذ الراعي النقود وترك السخلة معنا ثم انسحب بقطيعه نحو تخوم قريته . كنا واقفين على تلة تشرف على القرية ، والتلة محاطة بغابة من العفص والجوز ، رطبة الأغصان . قال واحد منا :

- المشكلة انه كيف نوقد النار بحطب اخضر!

اقترح نوري ان يقوم هو بجمع بعض الاغصان ، والقش والاشواك ، وسيدبر امر اشعال النار . ربط الدليل السخلة بحزامه ومددها على الارض . في جرة سريعة من سكين حادة ذات مقبض عاجي مرسوم عليه رأس غزال ، سالت الدماء الحمراء ، وتشربتها التربة المثلجة سريعا . لون احمر على بساط ابيض . حومت في الجو طيور شمت ، ربما ، رائحة الدم . رأت الحيوان الرافس بين ايدي الرجال .

راح الدم يسيل ، ثم بدأت السخلة رحيلها الشاق عن هذا العالم . لكن كيف نشويها وليس لدينا اسياخ ، وليس ثمة موقد معد لذلك ؟ كيف نأكل لحما ملوثا بالسخام . هل استسيغ اكلة مثل هذه بعد تلك الحياة الحضارية التي عشتها في المدن المضيئة والمطاعم ذات الاتكيت والكرسونات الجاهزين للخدمة ؟ حدقت الى يد الدليل وهي تسلخ الجلد بمهارة ، وتضعه تحت الجسد كي لايتلوث بالارض والقش . ثم خلال لحظات كانت الأحشاء قد اخرجت وتم فرز الكرشة عن باقي الاعضاء . وفي هذه الاثناء جاء نوري محملا باغصان شبه جافة ، كومها على التلة ، وبدأ يفرك القش والاوراق الصفراء ويحاول جعلها مادة لحرق الحطب .

قال الدليل لنوري :

- لا تشعل النار الآن . دعني انتهي من عملي اولا .

ما الذي سيقوله حلمي لو رآني وأنا اعيش هذا المشهد وسط الجبال ؟ تساءلت مع نفسي وانا احدق باعجاب الى يد الدليل تنظف المعدة من الفضلات وتنقّيها بالثلج و لاادرك لماذا ؟ لم يقوم الدليل بكل هذا الاهتمام بكرشة السخلة ؟ وددت لو ادفع نصف النساء اللواتي عرفتهن في حياتي لادرك مايفكر به هذا الرجل .

وضع الدليل الكرشة النظيفة على كيس من النايلون ، ثم بدأ يقطع الجسد . قطع الظهر واليدين والرجلين الى قطع صغيرة ، بدراية وخبرة . ثم امر نوري ان يشعل النار على عجل وكان الجميع يشعر بالجوع ، ويحلم لو يمتلك اسياخا حديدية يشوي بها اللحم . قال لي حلمي ذات يوم : انك سترى حياة الجبال والفلاحين ، وستجرب حياة اخرى لم ترها سابقا . ستذهب الى مقرنا في ناوزنك وهناك تشترك في النضال لاسقاط النظام وتحرير البلد . سأكون مناضلا ، وأجد هدفا في حياتي يسوغ لي الاستمرار في العيش . اخبرتني سماهر اكثر من مرة ان البقاء معي مستحيل لانني احمل كثيرا من العقد ، وانا مثقل بالماضي . قالت لي لا ارغب ان استمر بصداقة مع شخص لديه كل هذا الحنين الى الاهل والمدن والاشخاص . يمتلك مثل هذا الزخم من الظنون والشكوك . انك شخص فاقد الايمان بشيء . قالت ذلك في آخر لقاء معها . في اليوم الذي تركتني فيه شعرت بدمشق فارغة تماما ، مدينة لم تعد تعنيني بشيء . جلبت قنينة عرق الى بيتي ، ورتبت مائدة عامرة بالمازة ، واخترت اشرطة لاغاني بلغات مختلفة ثم رحت اسكر واسمع الاغاني واستعيد اللحظات المنسربة وابكي ، الى ان طلعت علي جحافل الضوء . ليس من السهولة على الاطلاق التخلص من الماضي . يبدو ان الانسان موبوء بالذكريات ، ويظل موبوءا الى ان تقوده ايادي الموت الى القبر . في تلك الليلة قررت الرجوع الى البلد ، هيمنت على تفكيري تلك الظهيرة التي ضاجعت فيها سماهر اول مرة . المضاجعة ترفع الحواجز بين الرجل والمرأة مرة والى الابد . التقيتها في مقهى النوفرة ، وشربنا الشاي ودخنا الاركيلة وطلبت منها ان نمضي الى البيت . كانت ترتدي تنورة نبيذية مشجرة وكنزة مفتوحة عند الصدر ، وقد طلت شعرها بالاحمر الوهاج . كانت شهية وآسرة . كنت اظنها فتاة بكرا ، حتى تلك الظهيرة . لقد تم كل شيء بسرعة ومفاجأة . قالت لي في البدء عليك الاحتراس . فاحترست كثيرا ولم انسق الى شهوتي العارمة . لكن في لحظة خالدة وانا فوق سماهر احسست به ينزلق الى الداخل كما لو ان

يدا قادته برغبة الى هناك . انتهيت ثم نظرت بدهشة اليها . لكنها اقنعتني انها ولدت منذ الطفولة هكذا . لم اشأ احراجها . بقيت افكر بين الشك واليقين ، اثناء تلك الليلة الجحيمية ، واتساءل هل خدعتني سماهر ام هي الحقيقة ؟

* * *

حطت ثلاثة غربان قربنا . راحت تتقافز حولنا لتختطف شيئا من الاحشاء التي قذفها الدليل بعيدا على حافة التل . كانت عيونها شرهة ، ونظراتها حادة وحذرة تترقب اي حركة يقوم بها الرجال . الدخان ينطلق كثيفا من كومة الحطب الرطبة ، وكان نوري يهوّي على النار بقطعة من القماش ، ويحاول ان يسعّر الجميرات المتنائية تحت العروق والاغصان والورق الاصفر . جوز وعفص وبلوط ، عساليج عنب وأماليد تين . جذمورات من اشجار قطعها المهربون والتجار والثوار وابناء القرية ، وبعض من ورق الجرائد القديمة التي اخرجها نوري من حقيبة يحملها . كانت الجرائد وقودا ملائما لاشعال النار لانها لم تكن رطبة . اشعل الحطب ووضع الدليل امام اسراره .

– اريد نارا صافية . جمر فقط ، وسنتم شي السخلة . قال الدليل بثقة مطلقة .

لكن كيف ؟

على حين غرة بدأ بوضع قطع اللحم في الكرشة وراح يحشوها حشوا . صارت الكرشة تنتفخ قليلا قليلا . تتمدد وتتسع . الدليل يضع القطع ويملح ، حتى انتهى من كومة اللحم ولم يبق سوى الجلد . في هذه الاثناء تحولت النار الى تلة من الجمر ، كنا نحيطها بحب ، نتدفأ بنارها مدهوشين من افاعيل الدليل الذي وقف بعد انهاء عمله وركن المعدة الممتلئة على الجلد . تناول غصنا طويلا من شجرة عفص وراح يلعب بالجمر لعب خبير . صنع مهادا من الجمر المتلاهث . غوّره في الوسط ودس فيه المعدة المنتفخة ، ثم غطاها بطبقة من الجمر . قال لنوري :

– ستضع ما تبقى من الحطب على الجمر وتدعه يشتعل اليس كذلك ؟ لقد شوينا بهذه الطريقة ذات يوم في واحة من واحات ليبيا . طرق الانسان بطهي طعامه متشابهة على ما يبدو . والحاجة ام الاختراع .

هذه الطريقة عجيبة في شواء اللحم . لم ار مثلها في حياتي . سآكل بعد دقائق كتلا من اللحم المتفحم ليس غير . ستأكل النار جلد المعدة وتحرق اللحم ، هذا ما لا اشك به . ان هذا الدليل معتوه ، وسيقودنا لا محالة الى كمين نقتل فيه بأيدي الجيش او جحوش السلطة . نوري يقف جنبي يدخن سيجارته بلذة . عيناه الواسعتان تمسحان اللهب بفضول وعجب . قال بفرح :

– المهم اكل اللحم ، بأي طريقة كانت . انت في الجبال ، ولابد لك من التكيف مع حياتها .

الجملة ذاتها قالها حلمي على ضفاف خريسان . الحوارات تتشابه ، والنبرات في بعض الاحيان هي نفسها . كيف يحصل هذا ؟ يكلمك شخص وتحس بغتة انك سمعت هذا الكلام من قبل ، اين ومتى لا تعرف . القرية لاحت غامضة ، غير مفهومة ، ربما تحدق الى الدخان المتصاعد على تخومها بشيء من الريبة . هذا زمن الريبة ، خاصة في مناطق مهددة بالقتل والتدمير والتسلل والرصد . اما الراعي فقد غاب منذ ساعة متجها الى الجنوب ، دون ان يخمن احد وجهته او غرضه من السفر . صوت نشيش اللحم راح يتصاعد في الموقد . رائحة القتار تشعل البطون بالجوع . لقد توارت لفافة اللحم تحت اللهب ، وكانت الدهونات تغلي في مكان ما تحت الجمر . والدليل يقف بعصاه الطويلة يحرك غصنا مشتعلا من هذا الجانب الى ذاك ، يفرش الجمر او يلملمه . يتأمل الآفاق المطوقة بالقمم والاشجار والغيوم البعيدة . وكأنه يتقرى في دفتر الكون ذاك ، مصائر هذا الحشد الذي يأخذه الى ناوزنك .

– لو رآنا الأوربيون نشوي اللحم بهذه الطريقة لوصفونا

بالمتوحشين . قال نوري .

– كان الفايكنغ يأكلون لحوم البشر ويعتبرون ذلك عبادة ، وهم اوربيون من الشمال . اجاب سلمان الذي عاش خمس سنوات في اوكرانيا .

– هذه الطريقة تعلمتها من غجر كلار . كنت طفلا وقتها حين شووا خروفا بهذه الطريقة . قال الدليل وهو يقلب النار فوق السخلة المسافرة في رحلة اللهب والجمر والرماد .

لم يشو كاولية قريتنا شينا بهذه الطريقة ، حتى ولا دجاجة . فالقرية غاصة بالسعف والشوك والاسياخ ، اضافة الى انهم نادرا ما كانوا يشوون خروفا كاملا او سخلة . في القرية يتم طبخ اللحم طبخا اما الشواء فللمرضى والضيوف الخاصين جدا . ذات مرة رأيت الفايكنغ يشوون خنزيرا ، لكنهم كانوا يشكّونه بسيخ كبير ، له مساند ومقبض ، وثمة رجل يديره فوق نار من الفحم متأججة . كان ذلك في مرحلة الجزيرة .

همدت النار . تأهب الدليل بعصاه العفص ، مثل اله ميدي . دسها بجرأة في الجمر وفاجه . كشف الوجه المتلألئ عن كتلة سوداء ، تكورت بحجم بطيخة عظيمة الجرم . كاد المحيطون ان يغصوا بالضحك ، فمن يستطع اكل كتلة متفحمة مثل هذه ؟ قال الدليل الذي هجس ما يدور بدواخلنا :

– لا تتعجلوا . ستأكلون لحما لم تذوقوه في حياتكم ايها الرجال المصنوعون من الزبدة . لن تصدقوا اذا قلت لكم انني اكلت لحم افعى ، ولحم تيس ولحم بغل ولحم ضبع وضب . الحياة هنا في الجبال تفرض عليكم اكل كل ما يتحرك كي تعيشوا . هذا هو السبب الذي جعل هذه الارض تحتفظ بناسها . الفلاحون هنا يمكنهم تحويل كل شيء الى طعام . الشتاء لايدع لك خيارا آخر . اذكر مرة اننا حوصرنا في جبل قنديل ، ثمة ثلاثة جيوش تطاردنا ، ولم يبق امامنا سوى الموت . هل تصدقون

ان طعامنا كان الحشائش ، لمدة اسبوع . حشائش الصخور والمنخفضات ، وكان علينا ان لا نبرز رأسا خلال النهار . وكان طعامنا في الليل ، تخيلوا انكم تقتاتون الحشائش في الليل ، ومن كان يبالي لو وقعت يده على حشيشة مسمومة او فطر مسموم ؟ فالمهم هو حشو تلك المعدة التي ترونها متفحمة امامكم ، ايها الرجال الزبدة . من يبالي بالموت ، بل من يبالي بالحياة ايضا . في ظروف مثل تلك يتحول اخونا ابن آدم الى حيوان ، الى منقار لطائر قبج جبلي يلتقط كل ما يقع عليه .

لم اكن اشعر بالخجل كوني تعلمت الاكل بالشوكة والسكين ، او مسح فمي بالفوطة البيضاء النظيفة ، او استخدام المحارم المعقمة . تعلمت اغلاق فمي عند الأكل ، واحتساء النبيذ بخفة واناقة ، والنظر الى الكؤوس الكرستالية المشعشعة بالخمرة الحمراء والبيضاء . تعلمت خفض عيني عند الاكل فلا احدق بمؤاكلي رجلا كان ام امراة ، وتلك اتكيتات الحضارة التي عشتها في رحلتي المتنقلة بين القارات . واليوم ، ينبغي الاكل من معدة متفحمة ، والتهام الحشيش اذا تطلب الامر ، ومشاركة الافعى وجارها في كهف جبلي ، او مقاسمة الفلاحين خبزهم الاسمر الملوث بالشحار .

علي ان اتعلم الرؤية في الليل ، والشرب من عيون الجبل ، وتحمل رائحة اصحابي الذين لايهتمون بنظافة اجسادهم . اقاسمهم افكارهم دون تعصب او انفعال . المهم هو المضي بطقوس الاكل الجماعي التي اشترطها علينا الدليل . المعدة المتفحمة كانت مائدتنا المفضلة بين هذه الجبال العارمة العلو والليل الذي لانهاية له . ليل غجر الجبال ، ليل المهربين والسالكين الى بلدان تؤمن لهم الامان . حلمي ، رفيقي العسكري الذي اخرجني من مباءة البلد ، كان على حق اذن . قال : اذا اردت الخلاص فعليك الانسلاخ من جلدك ، والتماهى بآخرين ربما لا تحبهم او لا تميل اليهم . صدق حلمي . اخبرني صباح انه مات في رحلة ثلجية بعد ان تجمدت اطرافه ولم يكتشفوه الا في الربيع . عسى ان يكون شخصا آخر يحمل الاسم ذاته .

* * *

قال لي صباح ان حلمي ، فتى كركوك ، سار مع قافلة تروم الذهاب من السليمانية الى مهاباد الايرانية . في عز الشتاء . ضربتهم العاصفة فجأة قرب الحدود . دفنوا في مكانهم . اما كيف ذكر اسم حلمي فالامر صدفة بحتة . قال صباح انه ساعد صديقه ليخرج من بغداد الى السليمانية . الم يكن صلة وصل بين المدن والجبال ؟ وصديق صباح يعيش اليوم في المانيا لاجئا سياسيا .

صباح ، صديق نوري منذ ايام بغداد ، دعانا كي نأخذ فكرة عن المدينة الأسوجية هذه . وفد صباح الى هنا قبل سنوات ، وصار دليلا في شؤون السوبرماركتات والبارات والحدائق والمناطق السياحية . معرفته العميقة للمدينة منحته صفة الاستاذ والمعلم لنا ، في تلك الليلة بالذات . وجدنا الثلوج تغطي الشوارع ، والبرد غريبا . ليس مثل البرد الذي خبرناه . انه هادئ ، لكنه يدخل الى الجسم دون عوائق . يخترق الجاكيتات والكنزات والالبسة الصوفية ، ليتسلل الى الظهر والبطن والعظام ، كأنه دبابيس غير محسوسة . ان المرء ليحس نفسه عاريا . اما الاقدام فلايمكن الشعور بها ، فكأنما هي تدعس على الثلج دون حذاء او جوارب . الناس يتغلبون على البرد بشرب النبيذ او البيرة . عشرات من الشباب والشابات الذين شاهدناهم في الشوارع يحملون زجاجاتهم ويغنون . هذا شعب يحب الطرب على ما يبدو . اي انهم غجر منذ الولادة . هنا يجد المرء كل ما يشتهيه . نساء ، خمور ، لغات ، طرز ابنية غريبة ، طابوق احمر وابراج وسقوف من القرميد ونوافذ مليئة بالتحف والزهور .

سيقودنا صباح الى بار العجائز .

بار العجائز ؟ ؟ ؟ ؟

استغربنا التسمية فشرح صباح الامر بوضوح : انه بار قديم ،

يعود تاريخه الى اكثر من مئتي سنة ماضية . كان يرتاده البحارة واللصوص والمغامرون . يقدم اضافة الى البيرة السوداء ، بيرة البحارة ، النساء الجميلات ، اللواتي يبحثن عن فرصة ملائمة للثراء . موضع للغرباء والاجانب والنساء كبيرات السن ، اللواتي يقدمن متعة عابرة ، متعة ليلة واحدة للشخص . اما اليوم ، فالمكان صار ملتقى للاجنين ، اصحاب الشعور السود ، من كل بقاع الارض . عادة ما يغص بالنساء ، في ايام العطل خاصة . يأتين لاقتناص شاب صغير السن ، رغم كبر اعمارهن . اخبرنا صباح بذلك ونحن نجتاز كنيسة ضخمة وسط المدينة ، مطفأة الاضوية . قبل وصول البار اوقفنا شخص من اهل البلد ، سكران ، عيناه سابحتان في الهواء وذاتا بريق خاص ، بين الكره والمودة وبحران السكر . كان يمسك قنينة بيرة صغيرة الحجم ، و يرطن معنا بتلك اللغة الفظة ذات المخارج العميقة . صباح هو الوحيد الذي فهم حديثه . كل ما فيه مثير . ملابسه المفتقرة للاناقة ، شعره الاشقر الشبيه بشعر امرأة ، وسيظنه اي شخص امرأة لولا لحيته الخفيفة وشاربه الخفيف ايضا . رأيت الغضب على وجه صباح ، خاصة حين رفع ذلك السكير اصبعه باشارة بذيئة نحونا ، وكأنه يختتم بها كلامه ، ثم مضى في الاتجاه المعاكس .

– ما الذي قاله ، هذا الافرنجي ؟ سأل مسلم ضاحكا .

– انه منزعج من وجودنا . اجاب صباح وهو يعدل نظارته ويمسح الثلج المتجمع على صلعته الخفيفة .

– لماذا هو زعلان ؟

– قال انكم اتيتم الى هنا لأخذ اعمالنا ومضاجعة نسائنا والسكن في بيوتنا . قال لم لم تبقوا في بلدكم ، فنحن لانحب الغرباء ، المسلمين خاصة . انتم لاتأكلون لحم الخنزير وتتزوجون اربع نساء وتركبون الجمال .

– ومن ادراه اننا مسلمون ؟ سأل نوري .

– هنا يعتقدون ان كل شخص بشعر اسود وبشرة سمراء مسلم . قال صباح .

– لم لم تخبره بأننا غجر . غجر يحرقون المراكب وراءهم . لكن ربما لايفهمون . هل عندهم غجر ايضا كما في العراق ؟ قلت مخاطبا صباح بضحكة ناعمة كي اخفف من الم الموقف .

– كلا ليس عندهم غجر يا ضايع . هم كلهم غجر ، فهم يتحدرون من الفايكنغ ، القراصنة المشهورين الذين كتب عنهم ابن فضلان . لقد هددوا ذات يوم جميع بلدان الشمال الاوربي . اتذكر انه وصفهم بالذئاب ، وذلك قبل قرون ، لانهم ما ان يسكروا حتى يبدأوا بالعواء مثل الذئاب . هذه العادة لم تزل موجودة حتى اليوم .

خيل لي انني اسمع عواء بعيدا ، من جهة ما خلف اشجار الكستناء البري ، في الساحة الواسعة المضاءة بشموس غير مرئية . عواء يشق الليل البارد ، المثلج ، المشبع ببخار الجعة والنبيذ الاحمر والنساء الشقراوات . كل شيء جديد هنا . واجهات المحلات ، نوعية البضاعة ، سحنات الوجوه ، اللغات ، الثلوج المتراكمة في الشوارع وعلى الارصفة ، رائحة المكان ايضا . رائحة ليست ذات هوية ، خليط من رائحة السمك والنقانق والتبغ الافرنجي والطلاء . رائحة لاتشبه رائحة الارض الجرداء المرملة ، التي ضربتها شموس على امتداد اشهر . لابارود هنا ولا رائحة جثث واموات . حتى الاشجار المبتلة التي مرت بنا ، وهي كثيرة ، ليست ذات رائحة . انك تعيش في ارض بلا رائحة ، قلت لنفسي ونحن ندلف من باب البار المنخفض ، وننحدر الى قبو مكتظ عجيب ، لم يره احد منا حتى في الاحلام .

– لاتوجد طاولات ، سنقف بين الحشود ، قال صباح .

امسك مسلم بيدي ، وكأنه يخاف الضياع . يخاف ان تأخذه اجساد النساء المتلاصقة مع اجساد الرجال ، وبحر الصفرة والسواد ، وغيوم التبغ المدومة في الفضاء . كان مسلم خائفا ، هو ابن بعقوبة

المقذوف بعيدا عن نهر خريسان . امسك نوري بيد مسلم ايضا ، اما انا فلم افارق صباح . كنت وراءه مباشرة . لم ارفع نظري الى وجوه النساء او الرجال . شعرت اني محط انظار الجميع . الكل يحدق بي ، بملامحي القلقة ، بشعري ، بعيني ، بحذائي المبتل ، بل ويقرأ افكاري بوضوح ودقة .

هذا المكان هو الجنة ذاتها . فكرت ، وانا اتطلع فيما حولي ، في الخمور المصطفة على الجدار ، الجاهزة لارضاع الزبائن من رحيقها الملون . اصفر واحمر واخضر وبنفسجي ، ابيض وحليبي ووردي ، اشربة على تعداد الطيف الشمسي . وتلك الشفاه الرقيقة الناعمة ، صبايا وثيبات وعجائز ، ورقاب متطاولة تبحث عن ذكر يروي عطش الجسد . كيف انتقلنا من الجحيم الى جنة هذا البلد ؟ اية يد رحيمة اركبتنا على بغال تطوي الارض الى المجهول ؟ هل ركب نوري ومسلم وصباح البغال في هروبهم خارج الحدود ؟ وهل مروا بحياة جبلية كالتي عشتها ذات يوم ؟ ابتسمت لي امرأة قدرت عمرها خمسين سنة . اشحت بصري عنها ، خوفا وحرجا . هل تدعوني اليها ؟ هل اعجبت بي ؟ وكيف اتصرف معها ؟ أين انت يا ام سعيد!؟ على اليمين نساء ، وعلى الشمال نساء ، يمسكن كؤوسهن ويتحدثن فيما بينهن او مع الرجال . ملابسهن تكشف عن سيقان وافخاذ وركب . العطور تتموج في الهواء ، تختلط حينا وتنم عن تجردها حينا آخر .

– انهم يلكزونني كثيرا ، صاح مسلم بصوت عال ليسمع الجميع .

– لانك اجنبي ، رد عليه صباح من جانب المشرب .

– هذا بلد لاينفع ، رغم ما به من النساء . قال مسلم ضاحكا .

– تمهل ، المهم ان نجد مأوى ونقودا وأمانا . رد نوري وهو ينفث دخانه في وجه امرأة بشعة .

ماهو الامر الذي يفكر به هذا الحشد ؟ وما هي الهموم المتحركة

وراء كل رأس منهم ؟ ولم هم هنا ؟

انها ديموقراطية المتعة . بشر يستمتعون بحياتهم . يمتصون كل ثانية من اعمارهم . الغد بالنسبة اليهم مضمون ، والحياة تسير بانتظام . كان الجميع يبتسم ، عدانا نحن . وجوهنا متجهمة ، لا نشارك في هذا المهرجان من المتعة الا بأجسادنا . اما ارواحنا فهي بعيدة . تعيش في امكنة اخرى وهموم لا تنتمي الى بار العجائز . مصائرنا مجهولة لحد هذه الساعة . نجلس على كراسي البار ، نعب زجاجات البيرة ، وندخن . نتكلم همسا . نغازل بأعيننا فقط . النساء اغلبهن متوسطات الاعمار . كلهن انيقات وتفوح من اجسادهن العطور . اصبح جو البار قطعة من دخان . كل شيء حلم . الوشوشات والقبل والموسيقى الصاخبة ورنات الكؤوس التي تتصافح وتشرب الانخاب . سأشرب نخب الجمجمة ، ونخب الصحراء ، والحمير والغجر والفنادق الرخيصة والدربكات وخالتي جميلة وحلمي . سأشرب نخب الجبال التي قطعتها ماشيا ، والطيور المغردة في غياض التين والكهوف الملينة ببيض الحجل . ما لي والعجائز ، وتلك الوجوه التي لا اعرف قراءة تعابيرها!

هل يتاح لي مستقبلا استرجاع تلك الليلة ؟ وليالي غيرها ونهارات ؟ الماضي لن يعود . لقد لبثوا هناك في اسوج . اصدقائي القدامى : صباح ونوري وسليم ووائل ومسلم . انا الوحيد بينهم الذي قفز الى السفينة وقرر العودة الى الجبال .

* * *

وقف بنا الدليل على واد عميق ، جئناه من الغرب ، عبر طريق نحيل تخلل قمم جبال ، وسفوحا ذات صخور . اخترقنا تلافيف اشجار برية شائكة ، وفرت بسبب خطانا طيور غريبة الشكل . التقتنا ظعون بغال لمهربين وتجار وثائرين ومهاجرين ، يرومون العبور الى ايران او تركيا . وصلنا الوادي دون مغامرات يعتد بها . النبع الصغير المنساب

من تحت الثيل الكثيف ، صار محطة لنا للاستراحة قبل النزول . في النبع علبة سوّاها رجال سابقون طاسا لشرب المياه . وجدنا المياه صافية ، ذات خرير متواصل . ينزل منها الماء الى السفح ثم الى الوادي . انه وادي ناوزنك ، اسماه الدليل . الوقت ظهيرة ، السماء صافية الزرقة ، والثلوج تتراءى بيضاء بين القمم وفي المنحدرات . جلسنا حول النبع واخرجنا البسكوت ورحنا نأكل . اشترينا البسكوت من ذلك السوق الغريب ، سوق قاسم رش . وراح البعض يدخن .

مشيت خطوات نحو القمة . وجدت صخرة مستوية عملاقة تشرف على الوادي . جلست هناك . جلست محدقا بذهول الى كل ما حولي . الى الصخور ، والبيوت الصغيرة في الوادي التي بدت مثل لعب اطفال ، لولا الدخان الازرق المتصاعد من مداخنها . دوى صوت رصاصة من مكان بعيد ، عكر افكاري لحظة واعادني الى هذه الساعة . هل انا ضايع نفسه الذي يقف الآن بين الجبال ، قادما من الامكنة التائهة في الذاكرة ، قاصدا الامكنة غير المحددة ؟ هل انا حقا من يحدق في المشهد الواسع المنفتح امامي ؟

جبال بعيدة تتراكب بعضها على البعض الآخر . هضاب ووديان بدا فيها الشجر خطوطا زيتونية لا ملامح لها . وهناك ، ابعد من اللون الترابي المسيطر مدن ومدن ومدن ، عشت فيها ذات مرة . اشخاص واشخاص واشخاص عاشرتهم واحببتهم او نفرت منهم . طرق عديدة مشيت فيها . هناك مدن كبيرة وراء السلاسل الصخرية ، ابعد من اشجار السرو والعفص الجبلي والطرق المنحوتة بين الصخور . ثمة بيت واسع من الصخر الكلسي ، نمت فيه ، واستمنيت فيه ، ورأيت من مضافته الخشاشات وهن يجلبن القت والبرسيم والدنوسر من الحقول . سمعت ضحكاتهن العالية ، وجلبتهن في الحديث عن الاطفال والشباب المقبلين على الزواج ، واخبار العرسان والمواليد . سمعت نهيق الحمير وهي تنطلق مجلجلة عبر النخيل الكث السعف وبساتين الرمان والتين . اكاد اللحظة ان اسمع تكتكات مضخات الماء المنصوبة على الفرات ،

تتردد ساعة بعد ساعة ، منذ انشقاق الفجر حتى الليل . تكتكات لاتنقطع ، يجذب صداها الغائر في الزمن ايضا ، اصوات الفلاحين وهم يسقون الحنطة والشعير في المساءات ، وتدفق المياه في السواقي ، وقوقأة الدجاج العائد الى اقنانه بعد مغيب الشمس . لايمكن الجزم انني الشاب نفسه الذي عرف النباتات نبتة نبتة في قريتي ، وشكّتني كل الاشياء المدببة التي كانت في الارض ، وركبت كل حمير القرية ، للطحن او لملء الماء أو لدرس السنابل .

هل وجدت تلك القرية حقا ؟ هل ان قرية الحامضية لازالت هناك ، خلف هذه الجبال التي لاتنتهي ؟

حدثني جدي عن القرية كثيرا . وكان لايمل الحديث عنها . احاديث جدي كانت نقلا عن جده هو الآخر . لقد وضع جدي سرحان ، ارشيف جده خلف بين يديه . الارشيف المنقول عبر الكلمات والضحكات والقصص التي لم يمل من سردها . لابد ان يكون لكل واحد من رفاقي حامضيتة التي يسعى لرؤيتها يوما . نوري والدليل وسلام وسلمان وجوهر . كلهم يسعون للوصول اليها بعد هذه الطريق الدائرية ، والرحلة العجيبة داخل الزمن . فجد جدي سرحان كان من قبيلة الدليم البدوية ، التي تسوح في صحراء الجزيرة مع ابلها وغنمها . تأتي كل صيف قريبا من الفرات . كانت الحامضية زورا من الطرفاء والاسل والغرب ، لايمكن للرجل اختراق كثافته .

في تلك الغابة العاصية ، عرف البدو كل انواع الضواري .

اسود ، ثعالب ، ذئاب ، ضباع ، قطط برية ، وغزلان مخيفة القرون . حين رأينا الغابة ، قال الجد خلف ، حسبناها جنة الله على الارض . تشاورنا ذات يوم حول النزول الى تلك البقعة واستيطانها ، في الصيف . فالصحاري لن تقدم الغذاء للماشية ، وهذه البقعة مليئة بالعشب والخلفاء الطازجة والدنان . المياه قريبة منا ، يمكن جرها من النهر بواسطة القرب ، وكنا ندعوها الكرود . كانت فكرة مثل خيال .

الا اننا نفذناها في سنة قحط واستطعنا ازالة الغرب والطرفاء والعاقول والشوك من مساحات كانت كافية لنصب بيوت الشعر . اقمنا دروبا تؤدي الى النهر . شققنا سواقي تصل البيوت . بدأ البعض بزراعة الذرة والقمح والشعير . الا اننا في كل ربيع نترك القرية ونمضي الى الصحراء . الى حيث الكمأة والفطر والزباد والورود . في بعض المواسم كان العشب النابت بعد المطر يصل حتى الركبة . كانت مواسم خير حقيقية . تكثر فيها البروق والرعود والمطر . سنة بعد اخرى صارت اعدادنا تزداد في القرية . مل كثير منا الترحال كل ربيع الى الصحراء وفضلوا البقاء في الحامضية . الحامضية جاء اسمها من كثرة الحميض ، الذي تحبه الجمال . وهو نبات يشبه البطيخ الصغير ، لقد انقطع منذ زمن بسبب الزراعة وترك اسمه لهذه القرية المباركة التي نعيش فيها .

تحولت الحامضية الى اسطورة في ذهني ، لكثرة ما فكرت بها وعشت اقاويلها وحوارات ابنائها وجسد صواعقها وشآبيب امطارها ورائحة لياليها الشتوية . هذا الحلم الغزير التفاصيل ، الذي لاينتهي . من يصدق انني تخيلت نفسي اكثر من مرة في سيارة متجهة الى هناك . كيف اجد الطريق ؟ وما هو منظر البيت ، ومن سأتعرف عليه اول مرة ، وهل ظلت الكلاب تنبح في الليل ، وتتلاهث النجوم ذاتها فوق ذرى النخيل ؟ كانت خيالات مغرية ، عشتها في اغرب الامكنة . في سفن مبحرة في المحيط ، في قطارات سريعة ، خلف ابواب حانات غاصة بالنساء ، تحت سقوف مصنوعة من الستايروبور ، على دكات اسمنتية وسط موانئ باردة . بل حتى بين احضان نساء لم اتعرف عليهن الا ليلة واحدة ، وكنت فيها فاقد التوازن من السكر . لكنها ظلت هناك حتما ، في مكانها ، جوار النهر ، وفي حضن الصحراء المرملة .

في مكانها بالضبط .

يجدها المسافر حين يشم رائحة الأشن المترسب في سواقيها ، ويبصر زرقة نخيلها وسمرة نسائها وعيون ابنائها ، المتألقة دائما بتعابير

مراوغة .

يجدها ما ان يرى من بعيد واجهات بيوت صخرية وأجمات اشجار تمر الملك ، في منعطف بيت المختار ملا خضر ، الذي شهد ليالي الدربكة والرباب والغجريات المتلاصفات الثياب والاسنان . اسنان الذهب والفضة والعاج . حين يشم الداخل اليها اريج الحناء ونفس البرتقال ويتملى في غيمة السواد السائبة في السماء التي نفثتها مضخات بعدد الاصابع تجمّل الشاطئ الطويل المزروع بالطرفاء . هناك حيث السمك الجري يلبط في المياه الغرينية ، وحيث الضفادع تحدق في المجهول بعيون لا ترف . لقد اكلت الستيك الانكليزي ، النقانق الالمانية ، الشواء البرازيلي ، السباكيتي الايطالية والسمك الياباني المجهز بالصلصة الحارة مع الساكي . تذوقت الفروج المسحب والكبدة المطفأة بالثوم والليمون ، الخروف المحشي والذرة الصفراء ، قصب السكر المخمر والبطاطا السابحة بمرقة الزبدة والثوم . جربت كل شيء ، الا انني لم انس قط رائحة الرغيف الذي كانت امي تنشله من التنور خوفا من الحرارة . كان لذيذا . كان خبزا لذيذا خاصة حين اجلس به الى البصل الاخضر الطازج في البسطة الصغيرة وراء البيت . اقطف البصل والفه بالخبز ثم التهمه بشهية .

وكانت رائحة الخبز الطازج ، تهب من سفوح الجبال . وأبصرت امي واقفة على التنور .

ياه . . . . .

* * *

هل هو وهم ؟ هل هو حلم ؟

لا ادري .

كل ذلك جائز . وجائز ان تلك الرحلة لم تكن سوى حلم يقظة في رأسي الغائص في مخدة من الريش على تخت خشبي ، في مضافتنا

المفتوحة على النخيل .

سمعت امي تقول لخالتي جميلة :

– لم يزل ضايع نائما . غريب امر هذا الولد . ما ان تناول فطوره حتى نام في المضافة .

– اجمل ما في ضايع شعره . اصبح ساهما ويتطلع كثيرا الى النساء . علينا ان نزوجه .

– الى ان تنتهي هذه الحرب الملعونة .

لكن الحرب انتهت ، ولم اتزوج .

تزوجت كل النساء . تزوجت الارض بكل ما تضم من مدن ومطارات وحانات وقطارات ومقاصف ليلية . تزوجت الجبال والانهار والبيوت الصغيرة وعناكب المطابخ وصراصيرها ، وأراجيل المتعة والمساءات الشاحبة التي تشعرني دائما بالوحدة ، بكوني بشرا فردا يحن الى اصله ، في مكان ناء لم يوجد قط على الخرائط . تخيلت نفسي انحدر في يوم قائظ الى النهر ، ظهرا ، وليس ثمة من بشر على الضفاف . الجزر الطينية دافئة ، بها ميل الى امتصاصي . شلحت دشداشتي النايلون البيضاء ، كانت مبقعة برحيق التمر ، وغطست في الماء . تمددت على كثيب من الطين الحري . كنت شبقا لمضاجعة هذه الام المصنوعة من شجر وطين ومعادن وهواء وغيوم . شبق الى التماهي بها ، بأغوارها السحيقة التي تجذبني الى مكمن الحياة .

غصت في الرحم الدافئ كأي ذكر . امتصتني السوائل والمعادن اللدنة الى اسفل . انا ، ضايع الجريان الذي ابتدعت في لحظة وصال عاتية ، ربما لم تكن مشبوبة بأي حب ، سأنتهك قدسية العادات وانكح هذه القرية المسماة بالحامضية . سأنكحها لكنها ستمتصني حتى النهاية . تمتص مني ، روحي ومشاعري واحلامي وكل ذكرياتي التي تكونت في تطوافي الابدي .

* * *

– سنمضي الى الاسفل ، هيا . قال الدليل . سأسلمكم الى ايد امينة وتنتهي مهمتي .

كان ذهن الدليل منشدا دون شك الى رزمة الاوراق المالية التي سيستخدمها لشراء جواز سفر مزور يستطيع به السفر الى بلدان الشمال ، التي تقبل طالبي اللجوء السياسي . كأن هو ، لا احد غيره ، يفكر ان هؤلاء القطيع ليسوا سوى اغبياء حالمين ، يرومون تحرير بلد من قبضة ، تجره الى الجحيم بقدر لن يثنيه احد . انها مهمته الاخيرة بين هذه الجبال المتطاولة كأنها حراب تعشق الموت . عاش عشر سنوات وعرف كل ثنية في الطبيعة ، قتل وعذب وقام ببطولات وداهم معسكرات ونام بين الصخور على ضوء نيران البلوط وافتض بكارة بنات قرويات ونادم المهربين . تأمل بالافكار والاحلام فوجد كل ذلك باطلا قبض ريح .الجبل حقل الغام . وردة الثور وعسلوج العنب وثمرة التين وهديل القبج الجبلي وجمداني الفلاح المتعب . بندقية الثائر المهووس بالثورة وخبز التنور وجليد الممرات ، وهي تربط كهفا بكهف ومغارة بمغارة وسهلا بسهل . . . . . باطل وقبض ريح .

حلمه كما أسر لي عند المنحدر جزيرة وسط البحر ، ومدن من الخمرة والكرستال والنساء ، وطرق سالكة تفتضها قطارات لا تكل . هذا الشرق العتيق المصنوع من نزوات ودماء واوهام ، سيودعه بلا رجعة . العمر قصير ولن يعيقه شيء من تحقيق احلامه . مانكا ، خلاسيات ، عري ، نبيذ ، شامبانيا ، طائرات ، تلفريكات ، اسماك عملاقة ، روائح باريسية . دلايات عنب مشمورة في حقول لاتصلها الكهرباء . سلام مطلق ، هو ما ينشده في هذه البرهة العجفاء من حياته . نساء غجريات يرقصن على موسيقى الجاز ، يطوقن الرؤوس بعناقيد من الازهار البيض ، بالضبط كما شاهد ذلك في السينما والتلفزيون وتحدث به العابرون .

يودع حياة الدليل المنتظر للموت اتى مضى . نار لا تنطفئ ومتعة لا تنتهي ، اليس الحياة القصيرة مصنوعة من هذه المفردات ؟ جيل يأتي وجيل يمضي . هكذا هي الحياة . يا اولاد الكلب ، قال الدليل وهو يحدق بنوري وبي وبالآخرين ، هل يمكن لعاقل ان يترك اوربا ويعود الى هذه المحرقة ؟ الى هذه الجبال البليدة ، التي تصفر فيها الريح ، او تلك المدن الغاصة بالانضباط العسكري والامن والشرطة والقوادين الذين اصبحوا شيوخ البلد ؟ لن تقدروا ما فقدتموه الا حين يرسلونكم الى العالم السفلي يا اولاد الكلب . وهناك سيعاملونكم مثل الكلاب . اليس بامكان شرطي مرور ان يبصق في وجوهكم ؟ لم عدتم اذن ؟

اوربا . . . .عودوا اليها . انها الجنة . . .

وبحركة واسعة أشار باصبعه الى الشمال .

الشمال القصي الذي تنفست هواءه ذات سنة . . . . .

* * *

بدا البحر بأمواجه الخفيفة ونوارسه وسفنه شاسعا . لم اره جميلا ، فالضباب يختلط بالموج . الغيوم كأنها قطعة من الحديد . صوار ومداخن وفنارات عالية . الكنيسة الانكليزية المبنية بالرخام الابيض ، برجها مربع ينداح في الفضاء . نوافذها ذات زجاج ملون بالحمرة المزرقة ، وتمتد حولها مماش مكسوة بالحصى البني . أمام ساحة صغيرة معشبة انتصب تمثال رأسي لتشرشل . الى اليمين غابة جرداء ، بدت كتلة من الرماد . فيها ينعق الغراب وتطير فوقها نوارس كبيرة الحجم تحوم فوق البحر وترتد الى المدينة باحثة عن الطعام . كان هناك عجائز يطعمن بطا بريا قرب الغابة . تتجمع حولهن ايضا النوارس والعصافير والاوز .

عشت اياما من الحزن على موت حلمي . لم يموت الناس الجميلون ؟ هل مات بموت حلمي ذلك الماضي الحميم ، الذي صرفته في

بغداد وبعقوبة ، وكان ملونا بالفجر ؟

المشهد المنفرش ، والشتاء المنسدل على الاشياء . البحر الممتد حتى الافق . ذكرني بدستويفسكي . كيف نسيت هذا العجوز كل الفترة الماضية ؟ تذكرت وصفه لثلوج موسكو وشوارعها وكآبتها في الشتاء . وانل كثيرا ما حدثنا عن حياته في ليل موسكو وثلوجها ونسائها وفودكاها الحارقة . العارضات العملاقة والرافعات الحديدية الكامدة والسفن الدائبة الحركة ، الارصفة الثقيلة الكونكريت والحبال الضخمة ، كل ذلك ذكرني بلحية دستويفسكي وشخصياته المتوحدة الحزينة . رواية في قبوي ، قرأتها في فندق كاكا طه ، ووجدت في ذلك الوقت ان البطل يشبهني كثيرا . وفي لمحة خاطفة وانا انظر الى وجوه الصحاب وهيئاتهم ، والى البحر المصطخب والنوارس وعارضات الميناء ، فكرت اننا لانعدو ان نكون شخصيات قلقة في رواية مجهولة المؤلف ، اسمها اوراق البردي أو غجر هذا الزمان أو ليالي الكاكا . . . الخنزير البري ، يخشخش في البردي .

قال مسلم بأسف :

– انه بط سمين ، لكننا لن نستطيع صيده .

– كلا سنعود يوما لنصطاده ، وسنعود ايضا الى ذلك البار . لقد تعلق قلبي بساقية الخمور . ظلت تحدق بي منذ دخولنا حتى خروجنا ، بل وبادلتني الابتسام مرارا .

– انك تتوهم ياضايع ، فما الشيء الذي جذبها فيك ؟ شعرك المفلفل ام شواربك الناتئة ؟

لم يكن هناك جزيرة واحدة فقط في عرض البحر ، بل جزر عدة .

جزر مكونة من صخور جرداء ، لايبين فيها اي شجر او ابنية . ترى اين تقع جزيرتنا اذن ؟ تطلعت الى عروس البحر الصغيرة التي تجلس الى صخرة ملساء كبيرة قرب الشاطئ . كانت تحدق في الافق البعيد دون

كلل . انها مثلنا ايضا ، عجرية تنتظر كائنا ما . تنتظر حلا ، كي تكون آخر الشعوب القرباطية على الكرة الارضية . تنتظر حبيبها الذي سيخلصها من حياتها الكونكريتية ، لتصبح امرأة حية نصفها سمكي ، تربط بين الماء واليابسة ، في سلسلة هذا الوجود . كما لم يكن هناك قارب واحد فقط يقطع البحر بل عدد كبير منها . قوارب للصيد . قوارب للنزهة . قوارب للنقل . قوارب للعجر الذين ينتأون البحر وسط الحنقليس والرنكة والاخطبوطات وقناديل البحر والموج المصطخب بين جزر وفنارات وحواجز مرجانية . كان الفايكنغ ذات يوم سادة هذه الشواطئ ، يذرعون الخلجان من القطب الشمالي وحتى سواحل البرتغال باحثين عن الذهب والنساء والجعة السوداء التي تجعل منهم مخلوقات متوحشة . تطلق صراخها في ليل كونهم الملبد بالغيوم . المدينة ابراج عالية من القرميد تلون السماء بلون احمر . ابراج كنائس وقصور ملكية واقطاعيون ، مضت على موتهم مئات السنين . ابراج حسبتها مآذن هاجرت الى موطن الثلج والغربة . سترفع الآذان عما قريب في سماء الشمال . اقشعر بدني وخفت من هذه الهلوسة . ملوية سامراء تنتصب في ركن المدينة الشرقي ، مذهبة الدرجات تنتهي في اعلاها بكرة من ذهب خالص . ما الذي جلب الملوية الى هنا ؟ هل يمكن ان اكون في حلم ؟

كلا لست واهما ولا حالما . اسمع ضجيج محرك قادم باتجاه عروس البحر . يتناهى الى مسمعي زعيق النوارس وثرثرة وائل الذي لايكف عن الحديث . مسلم يتشكى ، تارة من البرد وتارة من الجوع . كان مسلم يدخن بافراط ، يغوص بعض الاحيان في ذاته فلا احد يمكنه معرفة مايدور في رأسه الصغير . حتى وجهه الارنبي النحيف الاسمر لاتظهر عليه تعابير معينة .

اقترب قارب من المرفأ الصغير الذي كان درجا ينخفض الى الماء . في القارب رؤوس سود الشعر ، يتعلق البعض في اعلى السطح ويمد البعض اعناقهم من الكابينة الغائمة . القارب يربط بين العاصمة

والجزيرة ، وهو وسيلة المواصلات الوحيدة . يقوم برحلته ثلاث مرات يوميا . مرة في التاسعة صباحا واخرى في الثالثة بعد الظهر والأخيرة في التاسعة مساء ، حيث ينقل الموظفين العاملين في الجزيرة الى منازلهم . اما آخر انطلاق من هنا فسيكون في الحادية عشرة مساء . مابين افراغ القادمين وركوب الذاهبين الى الجزيرة عشرة دقائق .

المقاعد تصطف في قاع القارب ، والزجاج يحجب البحر والنوارس .

مسلم ظل يتأفف كعادته . يعتقد ان القدر وراء هذه التجربة المهولة . من بعقوبة الى الجزيرة . لا يتوقف عن التدخين ، يحدق في الجالسين بنظرات مريبة . وائل وسليم مازالا على خصام ، يسمع بعضهم بعضا كلمات مبطنة غير مباشرة . الجميع يتفرج على مايدور . نوري لولب الجميع ، كونه يشتهر بتوفيقيته الهائلة . اصبح نوري اكثر انغلاقا ، يتأمل الاحداث بصمت . اعتقد انه يعاني من صراع عميق مع ذاته . هذا واضح على نظراته وشروده . اطلق القارب زمجرة مدوية وشق عباب الماء . ابتعد الساحل ، ونأت الغابة . راحت ابراج الكنائس تتصاغر وتندغم في الضباب . اختفت الملوية وتداخلت اسطح القرميد لتشكل لوحة حمراء . تلك مدينة اخرى لم نتمتع بها كثيرا . في الايام القادمة سأراها بمفردي ، واعرف شوارعها وقيعانها ومخابئها . الحياة هنا جنة . قال الشاب الفلسطيني الجالس في الوسط . انزل يوميا الى المدينة ، ادخل المراقص ، اتعرف على امراة تأخذني الى بيتها ، تقدم لي الطعام والشراب والجنس ، ثم اعود صباحا او ظهرا الى الجزيرة . الفتيات هنا مثل الماء متوفرات لكل طالب . وهن يعشقن الرجال السمر كونهم يضاجعون كثيرا ويمتلكون قوة اعصاب وعضلات . اجسادهم اكثر صحة من الرجال الشقر كما يعتقدن . لكن هناك مشكلة ، الرجال يغارون منا ، يعتقدون اننا ننافسهم على النساء . هم لايرتاحون لرؤية شاب غريب في المرقص او الديسكو . احيانا يوجهون له كلمات نابية . سبحان الله ، الغجر مكروهون في كل مكان . لا احد يحب المشردين . اختتم الشاب الانيق حديثه وهو يلملم جاكيته الجلد

السميك حول رقبته ويحدق الى الوجوه كي يستقرئ اثر الحديث . خمن طبعا اننا جدد في البلد . ذلك واضح من الملابس وطريقة الحلاقة والنظرات المندهشة لكل شيء والحقائب المحمولة على الطريقة الشرقية .

راح جرف من صخور بركانية صلدة ، يقترب . تكتلت الصخور على هيئة تلال ومرتفعات لاتتجاوز ارتفاعاتها الخمسين مترا عن الماء . منذ متى وجدت هذه البقعة المنسية على الارض ؟ مليون سنة ؟ عشرة ملايين ؟ كيف تكونت وفي اي ظرف ارضي ؟ ولم لاتوجد فيها بيوت ؟ كيف يستطيع انسان ان يقطن في الجزيرة وهي لا تتسع لزراعة اي شيء ؟ بل ولاتمتلك تربة وسهلا يمكن استغلالهما ؟ انها نقطة سقطت من السماء الشمالية ، لابد ان انسانا من الفايكنغ قد وطئها ذات يوم ، وهو يجذف بقاربه المصنوع من خشب السرو . رغم انه ، وكما يلاحظ اي وافد الى الجزيرة ، ليس هناك اشجار فيها الا تلك المزروعة حول البناية ، التي جعلوا منها مكان اقامة لغجر هذا الزمان الوافدين من بعد آلاف الاميال . كنت تحلم بجزيرة نائية ، قلت لنفسي . تلك هي . امامك يا ضايع الجريان يا ابن الكلب .

البحر اشنات وعظام وحيازيم سفن غازية ، وبقايا آلهات انثوية كانت تحوم على ذرى الصخور وفوق اشجار الجوز البري . البحر سفن تمضي وسفن تأتي من الشمال والجنوب ، من الشرق والغرب ، تنشد ميناء تحيطه حانات الجعة السوداء . والبحر امواج متخثرة من البرد تطفو عليها قوارب وسفن وطيور تبحث عن السمك ، وخيوط واهية من اشعة شمسية تشبه الفضة . منذ ملايين السنين وهذه البحار تحمل الكائنات الحية عبر امواجها لتوزعها على اليابسة . وهي اليوم معبر لبني البشر كي ينتشروا بين القارات لا احد يقف في وجههم . فالارض كلها يحسونها وطنا لهم .

– لو انني عرفت ان مصيري سينتهي الى هذه الجزيرة لقتلت نفسي

قبل ركوب الطائرة . لو انني هجست ماسنلاقيه من اذلال في جزيرة ليست اكبر من ثقب ، مع كاولية ولصوص وغجر ومدعي سياسة ومفتعلي هموم وحشاشين ، لما غادرت مدينتي بعقوبة التي تزهو بالبرتقال واللالنكي والمشمش . لاجل ماذا ناضلنا اذن ؟ لاجل ماذا تركت زوجتي الحامل وتوجهت الى الجبال ؟ كي اصل الى عنق الارض ، المثلج ، المليء بالحشيشة والعاهرات والعيون الزرق ؟

ظل مسلم يعول طوال الوقت الذي استغرقناه في تأمل الجزيرة .

البحر والبناية المدفونة في التراب والصخور وزعيق النوارس وعيون القاطنين .

جزيرة يمكن للمرء قطعها شرقا وغربا بساعتين تقريبا . هناك اعشاب برية وشجيرات صغيرة تنتأ من بين شقوق الصخور وفي المنحدرات ، لا اعرف اسماءها ، فهي اشجار وكائنات غريبة علي . عرفت في قريتنا كل نبتة ، وكل حشرة في الارض . لقد ولدت هناك ، وكنت ابنا للطبيعة . اما هنا فالأمر مختلف . بين الصخور كهوف لم يغامر احد في دخولها . انها فوهات مظلمة ، قيل لنا ان هناك ثعالب او حيوانات صغيرة تختبئ فيها ، اطلقوا عليها اسم راكونات او جرذان ضخمة او افاع ، الا ان العجيب في الامر هو كيفية وصول الكائنات المتوحشة تلك الى الجزيرة وهي محاطة بالماء من كل جهاتها ؟ يستغرق الوصول اليها من الشاطئ حوالي ساعة تقريبا . شبكة الكهرباء تتوزع في انحاء الجزيرة ، خاصة حوافها الصخرية . اعمدة مرتفعة واسلاك ارضية تربط فيما بينها . هناك في زاوية ما مخزن ارضي ، او ملجأ خرساني لايبرز منه الا بابه الضيق ، الحديد الثخين . الماء من جميع الجهات ، لبطات اسماك لاتسمع ، وندف الثلج تهطل على ربى الصخور ، حين تصبح السماء بيضاء ، وتتشبح المدن البعيدة . تتحول القباب الى خيالات تبين وتظهر ، والمداخن كأنها اصابع مرفوعة في وجه البشر .

جزيرة متوحشة ، وسط بحر الشمال ، تشرف على مدينة القباب . لكن ماهي قصتها ؟

الجزيرة تحولت الى قاعدة عسكرية لحلف شمالي الأطلسي . اخبرنا القاطنون القدامى . ذلك بعد الحرب العالمية الثانية . كانت جزيرة معزولة عائمة في البحر مقابل الشواطئ لاتعني اي شيء . تمر بها عواصف كانون وتغطيها ثلوج القطب امتارا ، ولا ينظر اليها احد ، اللهم الا قباطنة السفن المارة في الخليج القريب منها ، وهم يجدونها في خرائطهم ندبة لا تكاد ترى . يتحاشون الاصطدام بها في ايام الضباب والثلج والليالي الداكنة . ثم وبفكرة شيطانية من واحد من ضباط الحلف تحولت الى قاعدة صغيرة قيل انها تستطيع حماية قاطنيها من هجوم نووي . بني لها رصيف عميق ضيق لايتجاوز العشرين مترا وحفرت القلعة تحت الارض ، لذلك لايبين منها سوى بابها وواجهة صغيرة من جدار اسمنتي سميك امامه ساحة بعرض اربعين مترا تقريبا .

من يدخل الباب الضيق ، المصنوع من حديد مصفح ، يصدق حكاية الهجوم النووي الذي لاتعيره الجزيرة اية اهمية .

الاسرة في القاعة التي خصصوها لنا مزدوجة كالعادة . كل واحد حاول الحصول على سرير سفلي ، فهو اكثر راحة من الاسرة العلوية . في الخارج استمرت الثلوج تتساقط بكثافة . البحر ما عاد يلمح . وما عاد احد يسمع شيئا خارج اجواء الجزيرة ، اللهم الا صفارات السفن وهي تطلق زعيقها . سفن المسافرين وسفن الشحن وسفن حلف شمالي الاطلسي التي شاهدت بعضها راسيا في الميناء .

هنالك اكثر من عشر قاعات ، وربما اكثر . اما كيف توزعت فلا احد استطاع اكتشاف ذلك لان المكان عبارة عن متاهة حقيقية . كثيرا ما كنت اخرج من باب القاعة التي تحمل رقم خمسة ، واقول لنفسي سوف استدل على كل الاماكن التي تضمها البناية . امشي في الممر ، وهو اشبه بانبوب ابيض مستدير السقف ، مبلط بالبلاط المرقش ومضاء

بمصابيح خافتة . اينما مشى المرء يلاحظ الكابيلات الغليظة وهي تمشي معه ، سوداء تحمل الكهرباء والغاز والتلفون والصور التلفزيونية . كان القاطنون مثل ديدان عمياء تعيش تحت الارض ، تحت طبقة من الصخور والتراب المنجمد والاعشاب اليابسة بفعل البرودة الهائلة . ديدان تأكل وتنام وتحلم بالضوء والنساء والامان والحياة الجديدة التي وعدوا بها قبل المجيء . نعم ديدان كما وصفهم سليم في واحدة من فورات غضبه . وعليهم ان يرتضوا ذلة هذه البلاد التي لاتعرف الشرف وتسكر كل يوم ثم تتضاجع في المراحيض . تلك هي بلاد الفايكنغ التي ورطوهم بها . اين الجبل والنبع ، بغل السلاح ورابية الجندي العدو ؟ اين الكهف المغلق بالطين والعفص الجبلي ؟ اين الكباب المشوي على جمر الزعرور البري ؟

قاعة المطبخ ذات طراز عسكري يوحي بصدق القصة التي سمعناها عن كون البناية قاعدة عسكرية . فأمام الباب الزجاجي اعمدة حديدية لا تسمح الا بمرور شخص نحو فتحة في الحاجز الزجاجي ، حيث ترتب هناك اطباق الطعام . خلال الوجبات يصطف اللاجئون امام المطبخ لكي يستلموا حصصهم من الطعام . جيش جائع مهنته الاكل فقط . الطنجرة البيضاء الواسعة المليئة بالسلطة وتلك المليئة بعجة البطاطا ، وتلك الصغيرة التي حمس بها اللحم البقري او النعجي . وتلك الطباخة السمينة التي قاربت الاربعين سنة و تفتل بمؤخرتها بين القدور ومساعديها الذكور ، حيث عليهم التناوب كل وجبة لمساعدتها في المطبخ . كانت معظم وجباتنا بطاطا مسلوقة مع لحم الخروف المقلي . او سباكيتي مع السلطة المؤلفة من الملفوف والجزر واعشاب الخضر . ثم رز ومرقة من السلق مع اللحم . او لحم على شكل كرات وبجنبها البطاطا المنقعة بالصوص . احيانا تكون الوجبة من نقانق العجل مع البطاطا المقلية وبجنبها حبات بازلاء مسلوقة وبعض الشوندر الاحمر الطازج . اللحم كله مذبوح على الطريقة الاسلامية ، كما دأبوا على القول رغم وجود طوائف اخرى لاتهمها مثل هذه الامور .

– علينا اكتشاف هذه الجزيرة الغامضة . قلت لنوري ونحن نجلس ذات يوم في القاعة .

– هل تحولت الى ابن بطوطة ، الا ترى البرد والثلج فوق الاكمات والدنيا مثل ثلاجة عملاقة ؟

– بلى ولكن الانسان عليه معرفة المكان الذي قدر له التنفس فيه .

– وائل مغامر مثلك وهو لايهمه الثلج باعتباره من احفاد لينين فاسأله كي يرافقك .

ممرات المكان مثل خلية نحل . الشباب يذهب ويأتي ، اثنين اثنين او ثلاثة ثلاثة ، قسم يدخن وقسم لايدخن . كلهم يرتدون المعاطف الثقيلة لان البناية كانت باردة رغم التدفئة المنتشرة في كل الغرف والقاعات والمرافق . اشخاص ملتحون وغير ملتحين ، شباب وفي منتصف العمر ، سمر وبيض وقسم زنوج قادمون من افريقيا ، ومن النادر رؤية السحنات الشقر الا في الصباح . اكثر ماتكتظ الممرات بعد العاشرة صباحا ثم تخلو فترة الظهيرة لان الاغلبية يعبرون الى المدينة ، لتكتظ مرة اخرى مابين العاشرة والثانية عشرة ليلا ، وهي الفترة التي تكثر فيها الفوضى ويكثر اللغط . ولكن اشد كثافة للغجر تكون في صالة التلفزيون . فهي الصالة التي يحدقون عبرها ولاول مرة الى اوربا بواسطة محطاتها التلفزيونية . كما تتجسد فيها المنطقة العربية بكل خصائصها . فهناك الفلسطيني العرفاتي والخواتمي والحبشي والنضالي والعملاوي ، وهناك الماروني والشيعي والنمور والدرزيون والجنوبيون . هناك الاكراد الفيلية واللرية والهورمانية والشكاكية والسورانية والبارزانية ، وهناك السنة والشيعة والمسيحيون والصابئة واليهود والملحدون . هناك الشيوعيون والقوميون والبعثيون والناصريون والاخوان المسلمون والدعوة والاقباط والشركس . هناك اشخاص من كل دين وملة وبلد وشيعة وحزب . كلهم يتطلعون الى ذلك الجهاز السحري المربوط بسلسلة .

سألت شخصا عن سبب ربط التلفزيون بسلسلة حديدية الى الطاولة الموضوع عليها . هل يعقل انهم يخافون ان يفز الجهاز ويفر عبر الممرات الى خارج الجزيرة ؟ اوضح لي ان السبب هو اللصوص . واستغربت من الجواب . هل يمكن سرقة تلفزيون من جزيرة ؟ ثم كيف يدخل اللصوص الى هذا المكان العلبة المخبأ في جزيرة وسط بحر الظلمات . الممسوك بكف عفريت ؟ قال الشخص دود الخل منه وفيه ، وراح يحدثني عن قصص السرقات والتزوير . فهمت ان اللاجئين لم تعد لديهم قيم تحدد سلوكهم . عادوا الى نوازعهم الكامنة مثل الطمع والغش والسرقة والتضليل . وهم لايعيرون اهمية للمجتمع ، فهم لاينتمون اليه . افراد طارئون على حياة منظمة وأعراف صرف في تثبيتها مئات السنين .

* * *

نام السمك وهدأت النوارس وسبح القاطنون في لجة احلامهم . اطبق الهدوء على الممرات والمطبخ وسطح الجزيرة الذي يوحي بثقله فوقنا . لحظات فقط ، احسست بعدها وكأنني انتقلت الى زمن آخر . رأيت منظرا عشته سابقا . الشخوص الموجودون اعرفهم . الساحة ايضا . وتلك الشجرة من التوت المنتصبة في المنتصف ، وحولها تصطف البيوت المصنوعة من سعف النخيل والطين .ابتلعتني شاشة التلفزيون وكانت هناك ابقار تجثم تحت الشجرة ، وكانت هناك تنانير في دائرة الساحة والدخان يتصاعد وثمة نساء ملفعات ومعصبات الرأس ، يقفن على التنانير ، يخبزن الخبز . السماء للتو بدأت تبرز نجومها ، والابقار بدأت بجلودها السود تندمج مع الليل . شعلات النار تنبثق فجأة في السواد ، تضيء وجوه النساء .

رائحة الخبز كانت هناك . بيت قرحة المكون من غرفة طويلة من الطين ، وجنبها المخزن والمطبخ ، الطيني . يحيط بكل ذلك سياج من السعف يؤلف بيتا بسيطا للأرملة التي لم تلد سوى البنات . اصوات

دربكات الغجر تصدح في مكان ما من القرية . في مكان لايبعد كثيرا عن السدة الترابية . ربما بيت المختار او ابعد . ان ثمة غجريا آخر يجلس في غرفة قرحة الطينية . ولقرحة هذه قصة غريبة . كل من يقطن القرية يعرفها ، حتى الغجر الذين يمرون هنا في القرية . انها ام البنات . انها ام البنات ، غريبات الاسم . الصغيرة التي تعيش معها اسمها مصيبة ، وقد تزوجت رحمن لاحقا . وهي التي دعتنا لسماع اغاني خالها عبد الفرحان ، على موقد النار وسط بيت الطين . الاخرى اسمها كتبة ، لانها كتبت على قرحة منذ الولادة ، بعد ان انتظرت عشر سنوات الصبي الذي لم يأت . الثالثة عجبة ، لانها عجيبة في تواتر البنات . والكبيرة نوفة ، وهي زوجة خالي حماد الذي قتله ابنه بطلقة مسدس ما ان تزوج على امه امرأة ثانية بعمره تقريبا . كانت قرحة تدعى بالبومة ، بومة الحامضية التي تنوح في المآتم على حظها التعيس . تطبخ حشائش الحقول وتنتظر الموت بفارغ الصبر .

ولجنا انا وخالتي جميلة باب السياج السعف . سمعنا خرطة الدربكة التي نبهت القرية على وجود الرقص هذه الليلة . رقص تحت بيت من الشعر نصبه حسن للغجر . كان الجو شتاء في الخارج ، الغرفة معبأة بالدخان ، وثمة ابريق شاي يفور على حافة الموقد . المجلس عامر وعبد يستعد لبدء الغناء . موقد في الوسط تنز فيه النار . النار من اغصان السمسم وسعف النخيل . الفرش تحيط بالموقد والعيون لامعة خاصة عيون الفتيات والنساء . لماذا تحب النساء الغناء لهذه الدرجة ؟ قرحة مجللة بالسواد عصبتها ملفوفة بدائرة واسعة على رأسها ، خداها مجوفان ، اسنانها تساقطت وعيناها سوداوان غامضتان وهي بالكاد تضحك . كانت قرحة مخلوقا غامضا ، لا تتكلم الا نادرا ولا تضحك ولا ترفع صوتها ، وتتلقى الاحداث كما لوكانت قدرا لايمكن تفاديه . يوميا عند الصباح تمضي الى الحقول مفتشة عن الحمقاء والفطر والكمأة والجنيبرا . خالتي جميلة وجهها ابيض يتوهج على صفحته سنا النار . سنّاها الذهبيان يأتلقان كلما فتحت فمها . عيناها مصنوعتان من عسجد

وعتب وعسل ، يندلق كي يجلل كل من تحدق به .

غنى عبد الفرحان غناءه ، بعد سكب الشاي . تناولت قرحة لفافة من التبغ . تمطقت خالتي من حلاوة الشاي . عدلت ملفعها واخرجت زلفها الناري من تحت الملفع المرصع بليرات الذهب وأوراق الآس المصاغة من ذهب اربع وعشرين قيراطا . نسينا الغجر ، و اضلاع بنت الريف واللوكس المضاء في بيت المختار ورجفات الاكتاف النسائية وعيون الفلاحين الغاصة بالشبق . انتباهنا انصب على مغنينا الغجري الذي عجب من اكتظاظ المكان بالنساء ، فراح يصدح بحنجرة كأنها منزّلة من السماء . الابوذية والعتابا والميجنا والدلعونة والسويحلي . فاصلات بعدها فاصلات ، والدموع تنساب من عيني قرحة وتتورد الخدود بالعشق والشوق الى رجال غير منظورين ، يرتسمون برهة في الرؤوس المزينة بالشعر والآس الذهب ، ثم يختفون بغتة . عبد مشهور بغنائه ، منذ كان شابا يرعى الغنم . تتوقف الكائنات كلها عن الحركة ما ان يلعلع صوته في الفضاء . كانت واحدة من امنياتي تعلم العزف على الناي مثله . الآهات تتصاعد مثل نار الموقد . فم عبد يتلوى مع الكلمات ، واللحن يتصاعد مع دخان السمسم في الغرفة المسقوفة بالحور وباريات القصب المسودة من النار . هجر الحبيب ، والعم الظالم الذي يزوج ابنته لابن اخيه قهرا ، والبوادي الرملية التي ابتلعت البداة والفرسان ، والواح القت التي يطير فيها الفراش مثل فتيات جميلات .

تقترب الكاميرا لترسم قرية صغيرة في الليل ، مضاءة ببدر مكتمل .هل هي الحامضية حقاً ؟

انه بدر القمح والبرسيم وسواقي المياه . بدر الحمار والثور والثعلب الطليق في حقل الذرة . بدر الدعلج الذي يعبر السدة الترابية ، من ضفة الشوك والعاقول الى ضفة الشوك والعاقول .

خالتي جميلة تعلك اللبان . تنظر الى ألسنة الدخان وهي تطير الى السقف ، سوية مع صوت عبد الفرحان .

تنسحب الكاميرا لتكشف البيوت الطين المتجمعة فيما بينها . التوتة في الوسط والابقار جاثمات يعلكن العلف ويجترون البرسيم والتبن والشعير المخلوط بالتمر . بيوت خانفة من درابك الغجر واصوات النساء المرتفعة حتى ذؤابات اليوكالبتوس . صوت عبد الفرحان الخارج من طاقات الجدار ، التي تنفخ الدخان والشوق الى الحبيب واحلام اختي وخالتي جميلة ، قرحة وابنتها العروس الحالمة ببيت يغص بالاولاد .

حصل كل ذلك في زمن آخر ، زمن اوربا كما سميته .

* * *

الدب القطبي لم يمر من هنا ، وغزال الرنة كانت غائبة . السحلية تخفّت من البرد ، والوزغة في جحرها . طوط طوط طواطة ، مرة الحجي خياطة ، نشروها بالجريدة . .وددت لو اصدح بهذه الاغنية الطفولية التي جلبتها الذاكرة من ازمان سحيقة ، اثناء ما كنا ننحدر بحذر الى وادي ناوزنك . القاعدة الرصينة للرجوع الى قرية الحامضية ، رجوع منتصرين ، فاتحين ، مقيمين عدالة مفقودة وسلاما غائبا . كنت اغنيها سوية مع اطفال القرية . من ألّفها ، من اشاعها بين الاطفال في دروب القرية ؟ لا اعلم . سكران بمودتك ما يوم انا صاح بك . ياصاح انا خوك لو جار الوكت صاحبك . اين انت ياسماهر . هل جلست يوما في مقر للحزب الثوري ؟ هلوس يا ضايع الجريان ، هلوس . انت مناضل منذ هذه اللحظة .

مقر الحزب الثوري عجيب في ركونه . كان في السفح ، يشرف على المياه الجارية في الجدول ، ويمكن للناظر منه رسم لوحة واضحة كل الوضوح لهذا المعسكر النافر بين الجبال . كل الدروب تقود من هذا الوادي الى قريتي . البغال ، الفلاحات ، البنادق الكلاشنكوف ، السمات الصارمة للثوريين ، الهواء المحصور بين دفتي الصخور ، الطرق المتعرجة وهي تقود القوافل بين البلدان . كل ذلك ماهو الا نقطة البداية . وربما هي نقطة النهاية . فالمقر عبارة عن صالة طويلة من حجر

الغرانيت الجبلي ، مسقوفة بأعمدة الخشب المقطوعة من العفص او الجوز . مفروش بالبسط العتيقة ، تحتل وسطه مدفأة حطب ماسورتها تنساب الى الاعلى لتنفث دخانها الى السماء . على الجدران علقت بمسامير ملابس القاطنين ، مع رشاش كلاشنكوف ، وصورة لماركس واخرى للينين . ادوات الطبخ تناثرت في ركن من اركان المقر . طباخ نفطي وأوعية طبخ وأكياس التموين من الرز والعدس والمعلبات ، وتنكة دهن وعلب شاي .

وجدت انا ونوري ، الذي ترسب معي في هذا المكان ، بعد ان مضى الآخرون الى قاعدة اخرى ، جو المقر خانقا . ليس هناك من منفذ للهواء سوى الباب . اما النافذة فمغلقة بسبب البرد . كان المسؤول يتربع الى المدفأة حين دخلنا . يدس قرمات الخشب وسط المدفأة وبعض الاغصان الناعمة لاشعالها . شخص يمتلك عينين واسعتين حادتين ، وشاربين كثين لم ينقطع عن تمسيدهما حين تعارف معنا ، وهو في كل الاحوال ظل ينظر بريبة الينا . وفي اقل من عشر دقائق لبس جبار مسدسا حول خصره ، ليعكس لنا ، نحن الوافدين الجديدين ، اهميته كقائد للمقر ، وهو ما كان يطمح الى القيام به دائما .

في ليل كردستان تكون النار سيدة للأمكنة . البرد ينتشر مثل الظلام ، في الوديان وبين البيوت وعلى اغصان النباتات البرية . تنفثه المداخن خارج الغرف . يخرج الى سفوح الجبال مرة اخرى ، الى هناك من حيث اتى . لابد ان جبار قد فكر اثناء ما كان ينظر الينا ، الطيرين الجديدين في سماء الثورة ، انه اذا استطاع اقناعنا بالبقاء معهم ستزداد حصته من التموين وربما يطلب اسلحة اخرى ، كما تتوفر امامه فرصة ليمارس القيادة ، ويوجه الامور في امبراطوريته الصغيرة التي لم يبق فيها سواه وكريم الفيلي . حدثنا عن كريم الذي ينتظر عودته من التحطيب . خرج ليجلب الخشب من الجبل . اخبرنا انه من مهجري ايران ، رجع الى هنا ليمارس دوره في اسقاط النظام والعودة الى بغداد ، مدينته التي اخرج منها لانه يمتلك اصولا ايرانية حسب ما

اخبروه .

بدأ جبار يتكلم بوثوقية عالية عن دور الحركات الثورية في تغيير الحياة ، وضرورة التضحية من اجل المبادئ وما الى ذلك من امور . اعتذر لنا ، فعلينا الانتظار لحين عودة كريم كي يعد الشاي ثم يجهز العشاء . جبار لا يعرف كيف يشغل البريموس النفطي ، اضافة الى ان القضية مزعجة ، فهو يتحسس من رائحة النفط . ارشدنا الى المراحيض التي لاتبعد سوى امتار عن المقر . صنعت من الخيش لتغطي الجالس بينما ينحدر ماؤها الى الوادي حيث يجري النهر بين الصخور . اشار جبار ونحن وقوف امام المقر الى وادي ناوزنك . هناك القيادة العامة لحزب الاتحاد ، الذي يسيطر على معظم المنطقة ، وتصل مفارزه الى مشارف بغداد . قائد الحزب يستطيع باشارة من اصبعه اشعال هذه المنطقة من اقصاها الى اقصاها ، قال متبجحا وناظرا الى ابنية القيادة خلف النهر . وهناك كان فيما مضى مقر الشيوعيين تحت شجرة ضخمة من الجوز الا انهم رحلوا عن المنطقة بسبب خلافات ايديولوجية وعسكرية . وثمة بيوت متناثرة لفلاحين ظلوا يسكنون في الوادي رغم الخطر .

ذات مرة ، قال جبار ، قصفت الطائرات الوادي والحقت خسائر في الارواح الا انهم توقفوا لانشغالهم بالحرب مع ايران .

في الوادي بيوت تلطي في السفوح . دخان ينطلق من مداخن . رجال اشبه بأشباح يعتلون السطوح ليحدلوا ترابها ، تحسبا من المطر او الثلج . اضوية شحيحة وهدوء عميق . لاسيارات هنا ولا ضجة محركات . بغال وحمير ورجال يسيرون بصمت ومسلحون يحرسون المداخل والمقرات المهمة . يحيط بكل ذلك اشجار متناثرة على القمم والسفوح ، هي من العفص اغلبها ، ومن الجوز او الاسبندار . كان جبار قلقا لتأخر كريم ، وعليه اعداد العشاء . ابصرنا شابا من بعيد يسوق حمارا صغيرا محملا بالاغصان والاخشاب . كان ينحدر باتجاهنا من الشرق . قال جبار مشيرا اليه : ها قد رجع كريم . لقد اصابني الفضول

لرؤية هذا الشاب المهجر ، كريم الفيلي الذي عاش بائع سجائر في كوجة مروي في طهران ، وقرر الرجوع للمشاركة في تحرير الوطن .

انزل الحطب قرب الجدار الخلفي للمقر ومد فوقه بساطا من النايلون . ربط الحمار الى شجرة قريبة . جاء متمنطقا رشاشا ايضا . القى علينا السلام كأنه يعرفنا منذ زمان ، او كأنه كان يتوقع وصولنا منذ ايام . كان كريم يدخن بنهم . شاب سريع الحركة ، يتكلم بعصبية ، ويمتلك عينين صغيرتين الا انهما مراوغتان كأنهما عينا لص . طلب منه جبار عمل الشاي للضيوف ثم اعداد العشاء . اتجه كريم مباشرة الى الزاوية . أعد الابريق ووضعه على النار . قال لجبار انه سيجلب الخبز من الفلاحين .

غاب كريم ربع ساعة . خيم صمت ثقيل على المكان . عاد كريم بأرغفة طازجة ، وضعها في طبق حديدي وغطاه بالبلاستيك ليحتفظ بحرارته حتى فترة العشاء . اخبرنا انهم سمعوا بمجيئنا فتعجبت من الامر . تبادلت النظرات مع نوري . هناك بلا شك ، عيون ترصد كل من يدخل الحدود . هناك برقيات سريعة تخبر آخرين بتوجهات الاعضاء الجدد ليتأهبوا لاستقبالهم . كلمة بسيطة في القول تلتقط وتفسر وتؤول لتنم عن شخصية قائلها والى اي التنظيمات السياسية يميل ، والى اين يتجه ومن هم معارفه . الحوارات هنا دائما ملغزة ، تحمل اكثر من وجه . لا توحي بأي حال عن هوية حقيقية للشخص . كان كريم يتكلم بحرية ، عن اهله ومعارفه وتجربته السابقة لانه لم يعد يخشى شيئا . عائلته كلها هجرت الى ايران . كل شيء فيه حقيقي الا اسمه ، فهو اسم وهمي والاسماء الوهمية ضرورة امنية هنا في الجبال . المقاتلون مثل الطيور بين الجبال ، لاتحمل اسماء انما تطير حرة ويحددها جنسها فقط . طيور القبج والسمان والقبر والدراج والعصافير والكركي ، اما الذوات الفردية فلا تعني الكثير . هذا من الشيوعيين وذاك من الجيش الثوري وذاك من الاتحاد والآخر من الديمقراطي وهكذا . اما من يكون الشخص ، وكيف جاء الى الوادي ، وما هي صفاته كانسان مفرد له غرائزه ورغباته ،

فأمور مطمورة خلف اللباس الموحد . لباس الجبل المكون من شروال وغطاء للرأس وكنزة وفيلد عسكري ومسدس اذا كان من القادة ، او كلاشنكوف شخصي اذا كان من المقاتلين .

تلك دروس كان جبار يرويها لنا وهو جالس حول المدفأة .

الامور في نهاياتها ، قال بنبرة المعلم والقائد الملهم . سنحاصر العاصمة ثم ننقض عليها ونسقط النظام . العملية لن تستغرق طويلا ، فالجيش متذمر ومنشغل في حروبه ، والشعب معنا وكثير من الدول تساندنا . سنقيم حكم الطبقة العاملة ونتقاسم السلطة مع الاحزاب الاخرى ونعطي الاكراد حق تقرير المصير . كان الجميع يدخن . اكتظ المكان بدخان السجائر الكثيف . رائحة النفط في الانوف . كان كريم يطبخ الرز والفاصولياء المعلبة عشاء . وهو طوال انشغاله بالطبخ لم تسقط السيجارة من شفتيه . يوجهه جبار دون انقطاع . لاتضع ملحا كثيرا . قلل الدهن . اجلب مزيدا من الحطب . هات ماء . خذ استكانات الشاي . اطعم الحمارة . وكريم يقوم بمهماته كما لو اعتادها منذ الولادة . الاعتراض الوحيد الذي لمحته كان تعابير التبرم والاحتجاج في عينيه ، عيني الشاب المنقطع الى حياة كانت حلما لديه ثم تكشفت عن سخرية .

لم تختلف تفاصيل الايام على حياة المقر . جلب الحطب ، الطعام ، التنقل في الوادي ، الضجر ، الثرثرة المعطرة برائحة البلوط ، انتظار ما يحصل من احداث ومفاجآت .

* * *

كيف رجعت الى قريتي بعد تلك الايام المتشابهة التي قضيتها في مقر الحزب الثوري ؟ كيف رجعت الى الحامضية المصنوعة من تمور وعجيزات وأمواه خابطة وسنابل قمح تخفي طيور السلوى والقبر وثمار البطيخ البري ؟ هل رجعت بذهني الفائر مثل موقد جامح بحرارته البلوطية ، ام عبر بندقية تطلق النار دون تمييز ؟ هل قادتني المسالك

الجبلية ، التي عبرتها خفية قبل سنين مع دليل من السليمانية في ليلة مظلمة ، مرة اخرى ، عود على بدء الى مرابع الطفولة ؟ كل ذلك محض امام ، فقد قادني الى جنتي وأنهى رحلتي الغجرية حمار اعجف . الشيء الذي لايمكن تصديقه في هذه الحكاية الطويلة ، حكاية غجر الارض الذين يتناسلون مثل الفطر . نعم قادني حمار كريم ذاته الى حامضيتي المبجلة التي لم انسها طوال تجوالي في رحاب امنا الارض . اما كيف فالقصة تطلبت عدة شهور . عدة شهور لاكتشف ان حياة الجبال ايضا ليست الحياة التي تناسبني . اكتشفت بؤسها وعقمها وحجمها الصغير الذي لايتناسب مع القول . لكن اكتشفت في الوقت نفسه انني لم اعد اقتنع بشيء ولا يرضيني شيء ، وهنا مكمن الخطر .

اندمجت ، ونوري ايضا ، في حياة الوادي قليلا قليلا . امضي مع كريم لقطع الاشجار وجلب الخبز من بيت القرية والطبخ احيانا ومناقشة جبار في كثير من اقواله . تكشف لي ان هذا الرجل يملك روحا قمعية ، يهمه تغليب رأيه حتى لو كان خاطئا . يلوي الحقائق . يوقع بالشخص ، مع انفعال غير طبيعي حد المرض ، حتى يسلم له بآرائه ووجهات نظره . من قناعاته التي بدت لي طريفة هي ان المخابرات تسيّر العالم !! حديثه عن الطبقة العاملة والنضال الثوري والتنظيم لم يكن الا وسيلة لاحكام سيطرته علينا . وكانت تلك الليلة العجيبة قد جلت لي البؤس الاخلاقي الذي يعيشه جبار مع نفسه . ليلة الحمارة ، دعوتها .

فبعد ان وضع كل منا سلاحه جنبه ، انزلت ذبالة الفانوس الى اقل مستوى لها ، ولم تعد تضيء الا عتمات مجاورة ، ثم اسلمنا رؤوسنا للنوم . وكنت انا مكتظا بالاصوات كعادتي . تذكرت حيوات طويلة ووجوها ومدنا ، ثلوجا وكنائس وسفنا . فكرت ان استمني وتراجعت عن الفكرة ، خاصة بعد ان رأيت في الظلام وجه سماهر المليء بالعتب . نوري بدأ شخيره يتصاعد وكريم ايضا . اما جبار فظل يتقلب في فراشه مثل سمكة مزهورة . بقيت هادئا في الفراش اتسمع حياة الوادي واصوات الليل . عيناي مغمضتان واطرافي ساكنة . لكنني ضاج

في الداخل . حركات بعيدة للحراس الليليين ودربكة بغال وصياح ديوك نائية . اسمع اناسا يتهامسون ونساء يرقصن وموسيقى روك قادمة من ازمنة ماضية . فتحت عيني على عتمة السقف حين نهض جبار متسللا بين الافرشة الممدودة على الارض . ازاح الباب بهدوء وخرج . ظننته ذاهبا الى المراحيض . رجع بعد دقيقتين وتمدد في فراشه . بدأ يلوب ويتقلب ويتأفف ويهرش شيئا ما من جسده . لم تمض سوى دقائق اخرى حتى نهض وتسلل ثانية الى الخارج . ان في رأس هذا الرجل شيئا مريبا ، قلت لروحي . ما الذي يجري له . . . . .

كان البرد قارسا . الظلام شبه طاغ على الوادي والصخور . ثمة قمر يضيء الارض بأشعته ، الا انه يخلق الظلال . تقدمت بضع خطوات ، محاذيا الحائط . مددت بصري الى كافة الجهات . تحت شجرة التوت . لمحت شبحا يهتز . وأتت الى انفي رائحة عطنة ، رائحة روث قديم . ما الذي يفعله هناك تحت شجرة التوت ؟ تذكرت الحمار الذي طالما رأيت كريم يربطه في ساق الشجرة ويقدم له بقايا الخبز وبعض الشعير والاغصان الغضة . هل يعقل ذلك ؟ رأيت عددا قليلا من النسوة في الوادي وسهل قاسم رش والقرى التي مررنا بها الا ان مشكلة الجنس لم تخطر لي . لم تكن ملحة . انني امتلك اصابعي . وفي الأيام الأخيرة استخدمت ارادتي كي لا افكر بالجنس . رجعت بسرعة دون ان الفت نظر احد وتمددت في الفراش . وبعد قليل عاد جبار متراخيا وتمدد هو الآخر في فراشه ثم ارتفع شخيره بعد دقائق .

كان هناك صمت مطبق وظلام . الدقائق تسري مثل دودة بطيئة . في ساعة ما قمت من فراشي واتجهت الى شجرة التوت . تلمست طريقي في الظلام . دست كتلا رطبة . فغمت انفي رائحة حادة . القمر في جهة بعيدة من الجبال . الوادي يغط في النوم . كان هناك حرس في مكان ما . ربما على القمم المحيطة بالوادي والمداخل المؤدية الى البيوت . كان هناك كائن حي يتنفس . يمتلك شيئا ساخنا ، وكنت انقاد الى رغباتي السرية ، الغامضة . تقدمت . توحدت بذلك الكائن دون

شعور . تحولت الى قضيب يفتض لحما حارا . تصاعد مني اللهاث . اندمجت بالظلال . غبت في اللذة . . . .

هل حدث الامر فعلا ام انه حلم ؟ هذا السؤال المحير الذي واجهته اول ما افقت صباحا . لم استطع الاجابة عليه . هناك رطوبة في ملابسي ، وهناك ايضا جبار الذي افاق من النوم ممتعض التعابير . كان كريم يحضر الشاي . جلب اللبن الرائب والخبز الساخن من بيت الفلاحين . اما نوري فقد وجدته يدخن ساهما حول المدفأة وكأنه يسأل نفسه لم اتيت الى هنا ، وكيف ؟

* * *

– لا ادري فيم بقاؤنا هنا ، في هذا المكان الموحش ؟

– الم نأت لنخوض معمعة النضال ؟ لماذا تتعجل . سينضم آخرون الينا وسننقض على النظام .

– ما الذي تخرف به ياضايع ، الا ترى مايجري حولنا ؟

– ماذا تعني ؟

– الكل مشغول بتنظيمه وتقوية نفسه . ونحن ليس سوى اربعة اشخاص ونطلق على انفسنا الجيش الثوري ، الا ترى ان الامر مسخرة ؟

– ما الذي نفعله ؟

– نحاول النزول الى المدن . اريد رؤية مدينة عراقية .

– لكن كيف ؟

– الا تذكر ان جبار قال لنا في اليوم الاول من مجيئنا انهم يمتلكون قاعدة قريبة من السليمانية ؟ دعنا نذهب الى هناك علنا نستطيع النزول تسللا الى المدينة .

– وهل يوافق جبار ؟

– بل قل انه سيفرح ، باعتبار اننا سنرفد تلك القاعدة بجنود جدد .

حكيم هذا النوري ، لكنه لايشبه ذاك الذي رحلت معه في الطائرة الى الجزيرة . صحيح انه يحمل شاربين كثين ووجها مدورا مثل بطيخة ، وعينين واسعتين فيهما التماعات تشبه الجنون . كلاهما من بغداد . اية مصادفة هذه ؟ الحياة تحمل مصادفات دائما ، فكلا صديقي يحمل الاسم نفسه . لكن ثمة اختلافات كثيرة بينهما . هذا النوري الذي امامي يجلس منهدا على الصخرة من تعب القطع ، وديع اكثر من اللازم . تفوح منه دائما رائحة شبيهة برائحة الجبنة . خاصة حين يتعرق ، او ينزع جواربه . شخص مل من التشرد في الارض ، ويود الرجوع الى امه العجوز . لقد اشتاق الى زوجته وأطفاله . الحنين لعنة الفراعنة كما يردد دائما . اما ذاك فهو مقبل على الحياة ، ولابد ان يكون الآن في احضان واحدة من الشقراوات . او في بار يبيع النبيذ يطل على البحر .

كان نوري الآخر يعشق النبيذ والسجائر الفاخرة ، ولا تفوح منه اية رائحة . ورحت مع نفسي اقارن بين الشخصين لأجد الفروقات او التشابهات . وجدت في الامر تسلية كبيرة . النوري الآخر هو الذي دلني على قاع المدينة . على ذلك الشارع العجيب القريب من المحطة . الشارع الذي تحدث عنه الجميع بمتعة ودهشة . قال لي نوري الثاني : لا يمكن ان يوجد مثله في بلداننا حتى بعد مليون سنة . فأن ترى واجهات مليئة بالاعضاء العارية امر لايصدقه خياله . كما ان التجوال هناك دون خشية من احد ، شيء يبعث على الفضول . قررت بعد ان تركني نوري ومضى للقاء صباح ، في بار العجائز ، المغامرة والذهاب الى هناك . انعطفت من الشارع الرئيسي الى اليسار ، الى عالم الاحلام . لم سموه شارع الاحلام ؟ وراء التسمية سر ما . لم اكن اخشى المغامرة . كما اني اتقبل كل جديد في رحلة الغجر هذه التي اخترتها برضاي . من الصعب جدا العيش في مكان انت غريب عنه ، في اللون واللسان والمزاج . رأيت كنيسة الى اليمين طابوقها احمر ، مغلقة الباب . يبدو

انهم لايصلون هنا في الكنائس كما في الجوامع هناك . قربها شاهدت محلا يبيع الملابس العتيقة ، تقف فيه امرأة كهلة ترتدي نظارات سميكة . حدقت الي باشمئزاز . في الآونة الاخيرة شاهدت تعابير الاشمئزاز ترتسم على كثير من الوجوه . في الباصات والشوارع والبارات . عند الركن محل للبقالة ، صاحبه باكستاني على ما يبدو يعرض الطماطم والباذنجان والكرفس وعلب التمور المجلوبة من المغرب والسعودية . ومن الركن بالضبط يأتي شارع الاعاجيب ذاك الذي حدثني عنه نوري الثاني .

مضيت الى اليسار ، فجزء الشارع ذاك بدا اكثر ريبة . ثمة مجاميع غريبة الهيئة تقف او تجلس على الارصفة . نساء ورجال . يمسكون بزجاجات البيرة وشعورهم منكوشة ووجوههم تعبة وممصوصة . لاحظت اذرع البعض موشومة بأغرب الاشكال . عقارب ودعالج وافيال وزرافات وسكاكين ونخيل . دوائر متداخلة ، او مربعات تتقاطع ، لتكوّن اشكالا اشد عجبا من غيرها . وحولهم تدور كلاب ضخمة ، تتشمم مؤخراتهم وأياديهم ، او تلتقط بقايا السجق والخبز والهامبورغر . خمنت انهم سيلتفتون الي هازئين ، او متطفلين . مررت من بينهم دون ان الفت النظر . وتلك عجيبة ثانية من عجائب هذا الشارع . هل انهم لا يهتمون لوجود الغرباء حقا ؟ الزنوج يتسكعون هناك ايضا . عم يبحثون ؟ هل جاءوا للفرجة على شارع الاحلام ؟ فكرت انني لن اخبر احدا عما رأيته . لسان مسلم السليط سيؤول الجولة مليون تأويل .

اصطدمت عيناي بواجهة زجاجية ارعدت قلبي . دخت من غزارة ذلك العري الفاضح المفروش تحت باصري . هؤلاء البحارة لا يخجلون . كيف يضعون هذه الاشياء تحت ابصار نسائهم ؟ غزارة في انواع الاعضاء الذكورية ، أطوالها وأسماكها ، وهي مثبتة فوق حرير وسولوفان او موضوعة بعناية في اغلفة انيقة . نساء عاريات من البلاستيك ، افواههن منفتحة بمنظر داعر اثار شيئا من القرف في قلبي . ما اراه يستفز المشاعر حقا . النساء لسن هكذا ، فكرت مع نفسي . حتى نساء هذا

البلد الشقراوات لا يمتلكن منظرا على هذه الشاكلة . قرب تلك المعروضات سلاسل واسواط وكلابات ، وصدريات من الجلد الاسود وأربطة قالوا عنها انها ما يستخدمه المرضى جنسيا الذين يتلذذون في العنف والاذلال . لا اتخيل رجلا يشعر باللذة وهو يضرب بالسياط . ولا استطيع تصور امرأة تستمتع باستخدام تلك الكلابات الصغيرة في مواضع جسدها الاشد حساسية . ان في الامر مبالغة . تلك صناعات عقول مريضة دون شك . يبدو انني اطلت وقفتي على الواجهة ، وان شخصا يراقبني . همست لي امرأة شاحبة بادية السكر : هل ترغب بالمتعة ؟ كانت مثل شيطان تبدى في حلم . عيناها غائمتان ، ونظراتها سابحة في حقول عوالم لا تراها الأعين . ذراعاها بانت عليهما خدوش وقروح خفيفة . اشرت لها كلا . تحركت من مكاني . مشيت في الشارع . هل رأى مسلم ونوري ما رأيت ؟

وقفت عند محل آخر يبيع المجلات . هنا على مايبدو صوروا كل ما يخطر على البال . المجلات مرتبة حسب الابواب والمواضيع . جنس مع الحيوانات . سود وبيض . نساء عجائز وشباب . شباب مع شباب . مشاهد عنف ودماء وبراز . فلبينيات وأسوجيات وبرازيليات وتركيات . بل من جميع الاقوام المشهورة في الارض . اية ثقافة مختلة تتفشى في قعر هذه المدينة التي كتب عليّ العيش فيها ؟ من الذي دفعني كي اخترق الامكنة واترسب مثل مشعوذ في هذا القاع المهووس ؟ لمحت قريبا مني نافذة تطل على الشارع . اثارني الديكور الموجود فيها . صورة شابة شقراء شبه عارية وفوقها مباشرة لائحة باسعار تتحدد حسب نوع الطلب . اتصال مباشر او تدليك بالزيت او من الخلف . ولكل نوع سعره . وفوق النافذة مصباح احمر يضيء حتى في هذا الوقت من النهار . انه بيت دعارة رسمي على الأغلب . سمعت ان الجهات الصحية تجري لهن فحصا بين الحين والآخر . انهم يخافون على صحة البشر . هذا جميل . هل اجرب ؟ ما علي سوى دفع الباب الخفيض لأطل على هذا العالم السري المركون في زاوية المدينة . لو انهم هناك ، في جبهة الحرب

يعرضون امورا مثل هذه ربما ساعد الامر على توقف المدافع . سيهرب الجميع الى جنة الغرف المضاءة بالمصابيح الحمر ، والى جنة هذه المحلات التي تخاطب الانسان في جزئه السفلي فقط .

اصنع الحب لا الحرب . قالها المرحوم حلمي في ليل بعقوبة القصي .

انتهى الشارع بمحطة القطار المركزية . تعبت من التجوال في القاع وشعرت بالجوع والتشتت . الشارع لايخاطب سوى الغرائز . عليهم ان يسموه شارع الغرائز لا شارع الاحلام . الحياة هنا تختصر الى حاجات محددة . الى جزئيات مفككة لا تشعر المرء بالنبل . ليس هناك اية مشاعر سامية على الارصفة . الفرجة جيدة ، لكن ان يلبث المرء فترة طويلة فهو امر مربك للحواس . تفرج وامض ، والا اصبت بالادمان . هذا ليس مخيما للغجر له قواعده ووصاياه وطقوسه . هنا يصنع المرء تقاليده وطقوسه الخاصة ، وهذا هو المرعب في القضية . لا ارغب في الانحدار الى المرتبة الحيوانية من غرائزي . يكفي ماعانيته هناك في قريتي الحامضية . او في بغداد . علي الدخول الى عالم النساء بشكل طبيعي وانساني ، لن ادخله من جانبه الحيواني او الشاذ . يكفي انني استمنيت كل هذه المدة من حياتي . قال نوري انه جاء الى هنا كي يحطم اسطورة الجنس ، وانا اتساءل ان كان للجنس اسطورة ؟ ربما لو صح الامر فهم يحطمونها بجعلها واقعية ومباشرة وواضحة اكثر مما يجب . هل حطمت اوربا هذه الاسطورة بكشفها على الملأ ؟ هل ساووا بين الذكر والانثى ما ان ازاحوا الغطاء عن الجسد ؟ تلك اسئلة تحتاج اجاباتها الى بحث .

ولا زلت ، حتى وأنا بين الجبال ، افكر بها احيانا . حقا ان هناك اسئلة عصية على الاجابة ، خاصة ما يخص جوهر الانسان .

* * *

كان نوري يشرف على الحمار المحمل بالاغصان وقرم الخشب التي قطعناها . ستكون نارا لتدفئة المقر . تأملت في الحيوان الذي يمشي

امامي . هل يعقل ان اكون فعلتها تلك الليلة مثل جبار ؟ هل يعقل ان يكون الامر حقيقة وليس حلما ؟ اقنعت نفسي انها الضرورة ، وتمنيت لو يكون ثمة غجر في المنطقة يمكن لي زيارتهم . حدثني كريم عن غجر رآهم في احدى القرى ، اثناء مروره الى ايران لكنهم ارتحلوا الى الداخل بسبب المعارك والحروب والمسلحين . قال انهم كانوا شبيهين بالغجر الذين طالما رآهم في بغداد . ولكن كعادته لم يتكلم كثيرا عن خبراته السالفة . شاب ملغز هذا الكريم . اكثر ما كان يتذكره هو اخوه الكبير ، واسمه ابو سعيد . كان بطل حي الاكراد كما يسميه . اعرف هذا الحي بازقته الضيقة وبيوته المتداخلة ايام كنت ازور حلمي في غرفته . هل لحلمي علاقة قرابة بكريم ؟ ظل كريم يحدثني طوال ليلة وكنا نجلس وحدنا في المقر . ذهب جبار ونوري لزيارة القيادة العامة في الوادي . جلسنا وحيدين ، ظلالنا تنوس على الجدران . كريم يدخن سجائر البغداد بنهم ، ويحدثني عن بطولات اخيه ابو سعيد .

قال انه قاوم السلطة في ازقة حي الاكراد ، وظل متخفيا اشهرا ، وحين ضيقوا الخناق عليه ارتحل الى الجنوب ، الى اهوار العمارة . اختفى سنتين ثم اعتقل ، ووضع في قصر النهاية ، وكانت تصفيته على يد واحد من قيادات المخابرات . قال انه قطعه ببلطة ، محاولا انتزاع اعتراف بأسماء رفاقه ، لكنه لم يبح بذلك . لم تعرف العائلة حتى مكان دفنه ، كل ما اخبروهم به هو انه توفي بشكل غامض . منعوهم من اقامة عزاء له . وحين تم تهجير العراقيين من اصل ايراني كانت عائلة كريم من اوائل العوائل التي طردوها الى حدود خانقين . اشتغل في طهران بائع سجائر بهمن ، في كوجه مروي ، واشتغل في معمل لصبغ الاقمشة . تعامل بتصريف العملة . التقى ذات يوم بسمير ، وكان الرأس المدبر للحزب الثوري ، هو الذي اقنعه بالمجيء الى كردستان . قال له عليك الاخذ بثأر اخيك ابو سعيد من هؤلاء الجلادين . عبرا الحدود الى هذه المنطقة في ليلة عاصفة ، كادت ان تودي بحياتهما .

– واين سمير اذن ؟

- توفي ، بشكل غريب .

- كيف ؟

- مات غرقا . في الصيف الماضي ذهب الى مدينة رشت الايرانية ، وهناك سبح في احدى البحيرات فلم يخرج من الماء . بعد يومين وجدوا جثته طافية على سطح الماء . الشرفاء يموتون والانذال يبقون على قيد الحياة .

هل كان كريم يقصد بذلك جبار ام لا ؟ لاحظت في الايام الفائتة ان جبار ينظر الى كريم نظرته الى خادم ، رغم انه يدعوه امامنا برفيق كريم . كريم لايستطيع تأكيد رأيه في شيء ، فالرأي الاخير لجبار ، سواء كان ذلك في الاعمال اليومية للمقر او فيما يتعلق بالآراء السياسية . وكان كريم يعاني كثيرا من الامر ، يصمت او ينط الى اقرب شيء ليهرب من المواجهة مع جبار . جبار يملك النقود ، وهو ايضا يتفاوض مع قيادة ناوزنك في السفر او عبور الحدود الى ايران او التنقل من مكان الى آخر . وجد كريم نفسه في شبكة محكمة . لم يعد يستطيع حتى الرجوع الى عائلته في طهران . يكنس المكان ، يطبخ ، يحتطب من اشجار الجوار ، يغسل الملابس ، يذهب الى سوق قاسم رش للتسوق . يسقي الحمارة ، يطعمها . ينظف البنادق كل اسبوع . وفكرت بامكانية اخرى للعلاقة بين جبار وكريم ، لها علاقة بالجنس ، الا انني استبعدت الفكرة رغم ان جبار ، كما تخيلته ، يمكنه عمل كل شيء .

عاد نوري وجبار ، في العاشرة مساء . اخبرا القيادة برحيلنا غدا الى ورتة ، وهي قرية صغيرة قريبة من السليمانية . سنوسع الحركة اخبرهم جبار ، فثمة عناصر جديدة تنضم الينا كل يوم ، والمقر لايتسع . سندعم وجودنا قريبا من المدن . سيرحل ضايع ونوري عن المكان هذا ، وسيرافقهم كريم والحمار الى هناك . كم يكذب هذا الجبار . نمنا جميعا ونحن نحلم . جبار بالسلطة والنفوذ على مقاتلين

جدد ، وانا باقترابي من الحامضية ، ونوري بزوجته واطفاله ، وكريم بابتعاده عن هذا المسخ بضعة ايام . لكن ما الذي كان يخطط له جبار ؟ هل يعقل انه يحتمل البقاء وحيدا في المقر ؟ خاصة وقد اخذنا انثاه المبجلة ؟

في الصباح جلب كريم الحمار وحمله بالرز والدهن والشاي والسكر والطحين والعدس . لم ينس نوري اخذ بعض مؤلفات لينين وماركس والقصص والروايات . وضعنا كل ذلك على ظهر الحمار ثم رحلنا تاركين جبار وحده . فعلى كريم ان يوصلنا ويرجع ، والمسافة لا تستغرق سوى يوم واحد على اكثر تقدير . لقد تراجع جبار عن قراره في الصباح مما جلب الاحباط لكريم . اذ ظل بالامس يحدثني كيف سنعيش في قاعدة ورتة ، وكيف سنخطط لشن غارات على ربايا الجيش والجحوش ، عملاء السلطة . فكرت ان الحياة رحيل دائم ، كم من المدن رأيت وكم من الأشخاص ؟ ثم ماذا ؟ ما الذي يبغيه هذا الكائن المدعو ضايع الجريان ، المصنوع من عظام ودماء وخيالات في مسيرته المتعرجة ؟ هل يكون طموحه ان يفيق يوما ليجد رأسه قد شاب ؟ اهذا كل شيء ؟ الا يتشابه الشيب مع لون التراب ؟ التراب الذي جبل منه واليه يعود . لكن المشكلة هو انه لايستطيع المكوث في مكان واحد . عليه ان يتحرك في كل وقت . لقد خلقت العظام والمفاصل والاوردة والافكار من اجل تحريك هذا الجسد عدة سنتمترات كل يوم . هذا هو الغرض ، الانسان حركة . انه افضل تعريف فلسفي .

ان لم يتحرك مات ، وهذا ينطبق على الملك والرئيس والفلاح والعالم والمقاتل . الرئيس يتحرك ليصنع الحروب والفلاح لينشئ رمانا وذرة وقمحا ، والعالم ليضيء مجاهيل هذه الحياة ، والمقاتل ليزيح الظلم عن كاهل بني البشر . لهذا عليهم ان يتحركوا . ان يقطعوا هذه الجبال على ظهر حمار . كل ذلك فكرت به اثناء ما كانت الارض تحجب قليلا قليلا ذلك المكان المسمى ناوزنك . اختفت التوتة الكبيرة التي رأيت تحتها جبار منشغلا بعضوه ، وبيوت الفلاحين والمسيل المتلاصف في

القاع والمفارز الذاهبة لتصيد الجنود ، واشجار العفص التي ستتحول الى جمر ودخان ودفء . كريم يعرف الطريق جيدا . هو دليلنا هذه المرة . كل ماهناك اننا ننحدر الى الداخل ، نقترب من المدن . عبر دروب ضيقة ومنحدرات ومرتفعات وأودية وصخور . الوحيد الذي ناله التعب منا هو الحمارة . كانت متعبة حقا ، تنوء تحت احمالها . رأسها بين قائمتيها ، وتجر خطواتها جرا .

وفي واحد من المرتقيات حرنت الحمارة ولم تعد تطيق الصعود . وقفت دون حراك ، وتصاعد تنفسها عاليا . انزل كريم كافة الاحمال وأخرج قليلا من العدس وبعض الخبز وأطعمها . بحث عن عين ماء في الجوار وجلب بعلبة من الحديد قليلا من الماء ووضعها امامها . اكلت الحمارة وشربت بمتعة . قال نوري متذمرا بعد ان جلسنا بانتظار غفوتها : ما افلح قوم قادتهم حمارة . فهتف كريم بفرح وهو يمص سيجارته وينحت عودا من الجوز بسكين صغيرة :

– الله الله ، انه شعر يا رفيق .

– اظن انها الآن لا تحتاج الا الى شخص ينكحها . قلت ضاحكا .

افرغنا امعاءنا ، ودخنا سجائر وحملنا الاكياس على الحمارة ثانية وصعدنا . قال كريم سنأتي الى اخطر جزء من الرحلة . بعد هذا الجبل . انه مكان مكشوف . ونحن نحمل الرشاشات ومظهرنا مظهر مقاتلين . انه اخطر جزء في الرحلة . طارت طيور من حولنا . تبخرت ارض رطبة . نظرت الينا شمس واهنة بسخرية . جبل خلف جبل . ومن يرى هذه القافلة لابد ان يفكر اننا مجانين ذاهبون الى مصيدة . فالارض خالية ولا انسان اعترضنا منذ اكثر من ساعتين . الحمارة تتعثر بحافات الصخور والحفر الصغيرة التي احدثتها حوافر البغال . عادة ما يمشي في الطريق مهربو المدن بقوافلهم الحاملة للرز والسكر والاقمشة والشاي ليلا ، خوف انقضاض الجنود عليهم او مرتزقة السلطة الجحوش ، قال كريم وهو يتحدث عن خبرة وتجربة عاشها لاكثر من سنتين في هذه

الاماكن . تذكرت رحلتي على ظهر البغل مع قافلة المهربين . تذكرت وداع الاستاذ في الخان القريب من السليمانية . كان مسيرنا في الليل ايضا . وكانت البغال دليلنا . اما الآن فالدليل هو حمارة صغيرة ضاجعها جبار تحت التوتة .

نحن غجر بحق ، لاينقصنا الا بعض الرتوش . بعض النسوة اللواتي يعطرن هذه المفازة برائحة القرفة ، وعدة الشغل من مبارد واسنان ذهب وفضة ، ثم دربكات ورباب يجنجل على ظهر الحمارة . لم لاننتحل صفة الغجر وسط الجبال ؟ انها اسلم فكرة لدرء الريبة وترصد ذئاب الحكومة . لكن المشكلة اننا لانمتلك نساء . قال جدي ذات يوم عن اصل الكاولية انهم احفاد جساس . كنت طفلا آنذاك ، صغيرا ، لم اعرف من هو جساس ، والى اي القبائل ينتمي وفي اي مدينة يقطن . ظننت ان جساس واحد من شيوخ القرى القريبة من قرية الحامضية . مات وترك الكاولية احفاده يسيرون من مدينة الى اخرى ومن قرية الى قرية ناشرين الوية الطرب والرقص وبيع الخواتم والغموض . هكذا ظل اعتقادي حتى بدأت قراءة الكتب . تعلمت منها ان جساس هو ابن عم كليب ملك العرب ، وجساس قتل كليبا بسبب ناقة ، اسمها البسوس . سميت حرب البسوس على اسمها ، وكان بطلها هو الزير سالم اخو كليب ، الذي قتل جساس وشرد قبيلته . اشترط الزير على قوم جساس ان هم ارادوا الحفاظ على عرقهم ، ان لايتقلدوا سيفا ولايركبوا فرسا ، ولايسألوا نساءهم اين كنتن بل ماذا جلبتن . مهنتهم الطرب والرقص ، والعزف على الرباب الى ابد الآبدين . تداعى الى ذهني ذلك وتخيلت الصحراء رمثا وعرفجا وأظعنا تخشخش طبلاتها وترن رباباتها في ذكرى الحرب تلك .

* * *

ارتسمت صورة الغجر ملونة حية . تداعت معها نافذة المضافة وفسحتها المفتوحة على الدرب الضيق المفتض لكثافة النخيل وبيوت

القرية . وذلك الأفق البعيد للصحراء المشمورة في اطراف الحامضية . صوت امي وهي تكنس امام البيت وكان غبارها يتصاعد الى الاعلى ليلطي فوق اوراق اليوكالبتوس والتوت . حكايات وقصص ونوادر ، تداعت حين استلمت رسالة من المجلة التي تشتغل فيها صديقتي الجميلة سماهر . طلبوا تحقيقا عن الغجر . اية مصادفة عجيبة ، بعد كل ذلك الزمن ، الذي يلتف احيانا مثل دائرة مغلقة . الغجر كثر هنا ، في اطراف دمشق ، وعلى ضفاف العاصي ، وبعيدا في الجزيرة على حافات حلب وحماه ونهر الفرات . اقترحت سماهر المضي الى هناك وكتابة التحقيق وتصوير الغجر ، دون ان تجشمني عناء الرحلة . اقتنعت بقولها في البدء ، الا اني وبعد تأمل في الامر ، قلت لنفسي : لاترغب سماهر ان اسافر معها . تخشى من اهلها ربما ، او تخشى من تقولات مدينتها الصغيرة . في ليلة التأمل تلك كرت في ذهني ، وكان الليل يطبق على بيتي ، والحارة صامتة الا من صياح بعيد لطفل صغير . كل مشاهد الليالي الغجرية التي عشتها في قريتي على امتداد عشرين سنة . حسن ابن المختار ، الاغاني ، الوجوه التي نسيتها منذ عشرات السنين ، الفوار ، غجر السعدية ، الراقصات .

اتصلت بسماهر وقلت لها :

– اود الذهاب معك لنعد التحقيق سوية . اود رؤية وجوه الغجر واطفالهم وملابسهم وخيمهم ، وآلات طربهم .

قررت رؤية العيون الشكاكة والسحنات الخالية من التعابير والجو الخاص الذي يحسه الداخل الى مخيم للغجر . كانت آخر رؤية لي لمخيم غجر حين عبرت جبال السليمانية . وذلك حين انحدرت انا والدليل من جبال عالية خارج سيطرة السلطة . قضينا يوما كاملا نمشي بين اشجار عفص وكروم مهجورة وقرى محروقة واجواء ملبدة بالحرب والوشايات والتجسس . تذكرت الامر جيدا ، تذكرت الأحداث برأس صاف لاينسى ما عاشه حتى ادق التفاصيل . في مدى البصر خيم سود ،

مبعثرة في واد ضيق تحيطه الصخور . قلت لدليلي ذي السحنة الصخرية ، الصامت دائما :

– هاهم العرب يخيمون في منطقة كردية هجرها الاكراد انفسهم .

– انهم ليسوا عربا . انهم غجر . وهم يتكلمون الكردية مثل ابنائها .

طلبت من الدليل النفور التعريج اليهم وقضاء الليلة عندهم . هل سأجد حلمي متربعا على مفرش من الصوف ؟ لم لا ، ان الحياة مليئة بالمصادفات . نظرت الى الجبال والسهول والغابات المحترقة والكهوف الموحشة والقرى ذات البيوت الحجرية . استبعدت هواجس مجنونة مثل تلك . لست في بعقوبة ولا في الديوانية . لست على تخوم قريتي . انني موغل بعيدا في ثنايا الجبال ، حيث لامدن ولا عساكر ولا انهار .

– انت في رقبتي ، لقد اوصيت بك كي اوصلك الى الحدود سالما . ولا اريد المغامرة برأسي . تعرف ان الغجر لايؤتمنون .

تذكرت الكابوس حين سرقني الغجر تحت جنح الظلام . اخبرت سماهر نتفا عن خبرتي مع غجر العراق . ثمة حنين في داخلي الى اولئك القوم .

قالت سماهر ، بعد يوم من القلق ، والتأرجح بين الرفض والقبول :

– سأسافر الى هناك في الصباح الباكر . حين اصل اعد الكاميرا وارتب جو البيت لاستقبالك . تأتي انت ظهرا . تتغدى ونستريح قليلا في البيت ، ثم ننطلق الى المخيم .

التقينا في مقهى النوفرة ودخنا الاركيلة ثم وضعنا مخططا للتحقيق . اطلعتني سماهر على بعض الخواطر التي كتبتها في الصباح عن تصوراتها حول النور ، وهي التسمية المألوفة للغجر على امتداد نهر

العاصي ، ربما هي المرة الإولى التي عرفت فيها المعنى الحقيقي لكلمة نور ، الكلمة التي كانت تتردد على السنة العامة لتدل على مظاهر الفوضى والغوغاء ، فيقال كالنور او مثل النور ، وذلك عندما زرت مخيمات النور بالقرب من بلدتي الواقعة على ضفاف العاصي في ريف محافظة حمص . كنت طفلة في العاشرة من عمري . رافقت ابي وهو في طريقه الى المطحنة التي تملكها على ضفاف النهر ، وأول ما شعرت به حين قال لي ان هؤلاء هم النور ، الرعب . كانوا قوما مرعبين لفتاة في العاشرة من عمرها ، تخاف ان يختطفها الغجر ويحولوها الى راقصة . كانت مخيماتهم تنتشر في مساحة واسعة من الريف . تملكني نوع من الخوف والتوجس من تصرفات هؤلاء القوم الغرباء ، ذوي الخصوصية العالية في حياتهم الشخصية .

دخنا المعسل البحراني . شربنا الشاي .اتجهت بسماهر الى دمشق القديمة كي اوصلها الى البيت . عتمة السماء تجول بين البيوت العتيقة وتفرض جوا رومانسيا على خطواتنا . ران الصمت علينا . كنت افكر كيف اجد مكانا ملائما لتقبيل سماهر . وكانت هي تلفت انتباهي بين فترة واخرى الى باب عتيق او اصيص زهور معلق في نافذة او نقش على جدار . تتلاقى اصابعنا بين فترة واخرى كلما ملنا الى زقاق ضيق ، بخجل في البداية ثم برغبة متبادلة بعدها . تحت مظلة من الاعمدة المقنطرة على قوس حجري خلا الزقاق من المارة فأوقفت سماهر وقبلتها قبلة طويلة ، اطول من متاهة ضايع الجريان . . .

* * *

نزلت في الساحة . الكنيسة القديمة اوحت لي بطعم قبلة سماهر على فمي . انني احفظ اوصافها من كثرة ما حدثتني عنها . انها جزء من طفولتها ومراهقتها وشبابها . حصل لها كثير من القصص في داخلها وفي باحتها . تمنيت لو كنت اعرف سماهر منذ الطفولة . حين تحدثني عن قصص مراهقتها اشعر بالغيرة . وأضحك على نفسي . هل حصل

لأحد انه شعر بالغيرة من طفولة شابة يحبها ؟ هذا ما كان يحصل معي دائما في علاقتي بسماهر . غيرتي نخرت حبنا بجدارة . كنت غريبا في مكان اجهله . البلدة بدوية الاصول وهذا بارز في نمط بنائها واشكال ناسها . قرأت عنها ليلة البارحة في دليل المدن السورية . كانت ذات يوم محطة للقوافل بين لبنان وحمص . تنتشر في سهولها الضباع والثعالب والذئاب . وهم مشهورون بصناعة البرغل ونبيذ العنب والتفاح .

سنونو في السماء الزرقاء وغبار يتصاعد من الطرق الريفية البعيدة المتجهة الى جبال لبنان . الجبال البعيدة ذكرتني بالسرو والوحوش وبيوت العبادة التي كانت هنا يوما ثم طواها النسيان . اتجهت الى بيت سماهر حسب وصفها . خمنت انني اقترب منه . حدقت في الواجهة واذا بي ارى نافذة مفتوحة مؤطرة بأغصان الياسمين . كانت سماهر تقف فيها مستطلعة الطريق . لوحت لي بحذر ، خوف الجيران والاهل . رأيت من بعيد العينين السوداوين وهما تلمعان خطى الماشين وواجهات البيوت ونبض الياسمين وجبال لبنان البعيدة التي كانت تلوح من الشباك . ما الذي تحسه سماهر الآن وهي تراني اتقدم الى بيتهم ؟ هل راودها شعور خاص هو انها تستقبل فتى سومريا تانها في بلاد الفينيقيين ، ذات الجبال المؤطرة بالسرو ؟ انسان غريب هابط من السماء ، ملفوف بأسفار وحكايات وخوارق . لجسده طعم قهوة مرة ولعينيه مرأى ذعر متنقل . اكثر ما ادهشها فيّ ، اهتمامي غير الطبيعي بالغجر .

الحديقة مليئة بالورود ، منسقة بيد حانية ، وقد توزعت على جانبي الممشى الذي قطعته بتمهل . وجدت على الطاولة اصيصا من زهور برية فاجأني منظره ، واحسست بنفسي محط اهتمام كبير . في الاصيص نوعان من الازهار ، الاول يتكون من تويجات ذوات الوان بنفسجية تكاد تميل الى الازرق ، تتفرع الى عشرات الزهيرات . والثاني ازهار وردية ذوات مشحات بنفسجية ، يجعل لها صورة حلمية . ضفرت

سماهر كل ذلك بأغصان من الياسمين الذي قطعت اماليده من ياسمينتها المتدلية على شباكها .

قدم ابوها القهوة المرة والدخان . كان لابسا دشداشة بيضاء وكوفية ناصعة البياض وعقالا اسود . بدا شخصا معتادا على الضيوف . شاهدت في نظرات عينيه وكلماته حول المدينة كما لو كان يعرف المهمة التي جئت من اجلها . سماهر لاتزال بملابس البيت تمضي الى الحديقة المليئة بالاشجار والنباتات والورود ثم ترجع الى الصالون . تهيء الامور لكي تجعل وجودي مبررا ومألوفا في بيتها . تسأل عن المسجلة والاوراق وتفاصيل التحقيق وطريقة العمل . وعلى الطاولة منفضة سجائر من الفخار . على سطحها انتشر البزاق والاصداف والمحار ، اخبرتني سماهر انها جلبت هذه المنفضة من جزيرة ارواد في سفرتها التي التقيتها فيها .

اية اقدار!!!

تغدينا سمكا من نهر العاصي وسلطة ورزا ، مع الخمر المعتقة المصنوعة من العنب . ابو سماهر يسارق النظر الي ، كيف امد يدي ، وكيف آكل ، وتعابير وجهي حين انظر الى محدثي . كأنه بذلك يستكشف سر هذا الرجل الذي حدثته عنه ابنته حديث اكبار واجلال . يحمل شيئا من النبل ، لكن عينيه قلقتان ، وكأنه عاش ظروفا صعبة . هل قتل انسانا في تلك الحرب ؟ هل هو متزوج ؟ ماهو تاريخه ؟ ولم هو صامت لا يتحدث الا حين يوجه له حديث ؟ خمنت انه يفكر هكذا .

اعطتني سماهر نبذة عن عجرهم ، الا انني لم استطع ان اكوّن صورة اخرى تلغي صورتهم التي احملها منذ الطفولة . اليس العجر عجرا في كل زمان ومكان ؟ فكرت بذلك حتى وأنا احشر جسدي في مقدمة البيك آب ، بين سماهر وأخيها المدعو بشار . تعاملت سماهر معي كما تتعامل مع شخص غريب . لم ترفع الكلفة معي . ان بعض اللحظات لايمكن تكرارها ، تحدث للشخص مرة واحدة . حاذرت ان المس يد

سماهر او جسدها ، خوف ان يلاحظ بشار شيئا من علاقتنا الخاصة . كانت سماهر تفعل الشيء نفسه . نتخاطب حول امور تهم الغجر ونتجشم استخدام الكلمات الرسمية التي لا توحي الا عن الفكرة المعبر عنها . الشيء الوحيد الذي ظل خارج الرحلة كلها ، وخارج التحقيق المطلوب هو عيوننا التي تتصادم وتتباوس ، رغم ارتجاجات السيارة وحفر الطريق الترابي الذي كان يتوغل في سهول نهر العاصي .

هل اذكر كلمة نور عند الحديث عنهم ؟ هل اخاطبهم بالكاولية كما كان جدي يسميهم ؟ هل هم القرباط ؟ الجبسي ؟ السيكانا ؟ كل ذلك يصح . فالنور كلمة تحمل معاني سلبية اذا اطلقت على ابن البلد ، انهم ابناء الحمير والخيام البيض ولوكسات الضوء ، ابناء المنقلة والطبلة وسن الذهب والعزف على الرباب . وفي السنين الماضية تذكرت وقرأت الشاعر لوركا وهو يتغنى باحصنتهم السريعة وسكاكينهم اللاصفة تحت ضوء قمر اخضر الضوء ، تحت اشجار التوت واليوكالبتوس . انداحت الى ذهني قصيدة لوركا حول ذلك الغجري الذي سرق حصان شيخ القبيلة وسافر به الى البحر .

طرق زراعية مشجرة ، ونفح العاصي بنسيمه العذب ، وتلك الشمس المتوهجة في سماء زرقاء . كانت تدور معنا اينما درنا اوانعطفنا اوتسلقنا . القناطرالرومانية والجسور العتيقة التي تركها الفرنسيون بعد جلائهم . ذاك عالم جديد علي . بشار يريني بعض الاحيان معبدا رومانيا او تلة لمدينة فينيقية دارسة ، وكانت ضجة الجيوش التي تواجهت في السهول ذات مرة ، تكاد تصل عبر الازمان واضحة مصمة . اي مكان هذا ، وفي كل صخرة عتيقة جمجمة ؟ واي غرابة في تلك الورود وهي تزهر بدماء سفحت على هذه التلال ؟

ناعسة وبهية وجلنار وثريا وعلية ودنانير . بان ودنيا وجنان وبلقيس ونوارة . تراءت الخيام البيض تحت اشجار الحور كأنها بيوض نعام عملاق . انعطفت السيارة الى اليمين ، ثم توقفت . هاهم الغجر

اخيرا . ثانية . اقتحمتهم مع كاميرتي واوراقي ومسجلتي . كنت لهم مثل شخص هابط من كوكب بعيد . سماهر جنبي ببنطلون الجينز وكنزتها السوداء المزينة بطير كنار من الامازون . كانت سماهر خائفة ، متعجبة ، مندهشة من هذا الصخب المسمى بمخيم الغجر . لم لم يكن حلمي معي كي نتمتع معا ، نسمع قرع الدربكات وعزف الرباب ونشم روائح النساء ؟ لم اخذه الموت الى دهاليزه ؟ عسى ان يكون حديث صباح مجرد خرافة!!

الوجوه الضاحكة ، وجوه صبيان الغجر ، وجوه بنات الغجر الصغيرات ، اللواتي سيخلدن في لحظة خاطفة . تذكرت عشرين سنة من حياتي بتلك الابتسامات العابثة ، والبطون العارية والسيقان الملوثة بأشن الحقول ومياه العاصي المزرقة . نعم سأجسد لحظة الخلود في هذا الفضاء الصغير الممتد بين اشجار الحور واليوكالبتوس والظلال وغابة السنط التي يرقد في فيئها شيخ الغجر المريض . الاطفال قالوا : هلموا لنطلعكم على جدنا جساس ، واستغربت الاسم . هل صدق جدي اذن ؟ هل حصل تحريف بالاسم ؟ ربما يكون حساس او مرداس او طونياس او غير ذلك ؟ اما اسم جساس فهذا شيء ينتمي الى جدي ، الى تاريخ يمتد مئات السنين من الحكايات والاساطير . . . . .

السيسبان يصطفق في هواء ساكن والذباب يحوم على انوف صبيان الغجر . اسماك تلبط في العاصي . الاشن يتلوى تحت القنطرة وانا انظر غير مصدق الى هذه الحياة التي لم ارها قبل اليوم . لقد توالدت وعاشت ورقصت وتضاجعت وانا في تلك الجزيرة اسمع لغط القادمين من جهات الارض . اتسكع في شوارع المدينة المصنوعة من جعة ونساء شقر واعضاء جنسية من البلاستك وكلاب مدللة وثلوج .

العاصي ينساب خلف الجميع كأنه فضة مذابة . موجة تركب موجة . مياه تنحدر من الجبل الى اراضي تزرع بالبطيخ والباميا وجمال ترتشف المياه من ملوحة الحميض والعاقول . العاصي تخيلته الفرات

وتخيلته دجلة والكارون ، والزاب الذي عبرته ذات يوم وانا راكب بغلا اشهب متجها الى الاراضي المحررة . كان جنبي امرأة كردية ذات خدين موردين ذكرتني بهما خدود سماهر الممسكة هذه اللحظة بالكاميرا . الشمس المشرقة من جبال لبنان تضمخ البشرة بلون الرمان . سأتذكر سماهر ذات يوم كما تذكرت غجر قريتي في هذه اللحظة ، وكما تذكرت غجر لوركا في سهوب الاندلس وغجر البصرة . يختلط الواقع بالخيال ، وتندمج الازمنة . قرية الحامضية ومدينة البصرة والموصل . سفوح كردستان التي جبهتني بالبيوت الشعر . سفوح قاسيون حيث قرأت لي غجرية حظي بمنتهى البرود .

مجالس القرية ، تلك الوجوه التي جلست ذات يوم معها ، في خيمة تحت غابة النخيل او في ساحة المختار . ذلك الوشم يلمع على الحنك تحت اشعة الشمس . فكرت انه سيكون لقطة كتابية موفقة في تحقيق المجلة . استطيع الكتابة عن خيوله وطيوره وأصابعه ورؤوس غزلانه ودماء عنبه وقرون الثور من شمال الى جنوب ، ومن اعلى الحنك الى اسفل الشفة ، في ضوضاء السيسبان والحور المخيم على جبال لبنان . اقترحت على سماهر التصوير قبل البدء في الحوار معهم . حدثت الطامة الكبرى . لم اعد اعرف أيا من الاطفال يجذبني لأصوره ، ولا اية امرأة تطلب مني اخذ صورة لابنتها . ما ان اوجه الكاميرا الى احدهم حتى يتكوم جمع الاطفال فوقه . تضيع اللقطة التي ارصدها . وجدت نفسي اصرخ في وجوههم الصغيرة : ابتعدو حتى اصوركم واحدا واحدا ، لكن دون فائدة .

التقطت حصى الساقية المارة بين الخيم المنحدرة الى حقول الذرة الصفراء ، واقدام الاطفال السمراء العارية الحاملة لطين لم يجف . كذلك هوى جناح سنونو في عدستي وخيط عنكبوت تدلى من عمود خيمة وذيل غصن وذيل دشداشة لرجل غجري يحدق الى الشمس بحسرة . في ذلك الوقت من طفولتي في الحامضية لم امتلك كاميرا ، ولم اكن احلم بامتلاك واحدة منها . الوحيد الذي ادخل الكاميرا الى الحامضية اول مرة

هو مدير المدرسة الابتدائية التي كنت ادرس فيها ، الاستاذ حامد . فكرت كم كان الأمر رائعا لو اتيح لي وقتها التقاط صور لحورية وعنود وهيلة وقرحة وخالتي جميلة ومصيبة وبقر القرية وبستاننا ؟ كيف سيبين ذلك كله في اللقطة ؟ هل يشبهن هاته النسوة المتجمعات حولنا اللحظة ؟

مخيم النور الجنكلة . الطبقة السفلى من النور ، أي مايعرف بنور النور . هؤلاء لايعملون شيئا سوى الرقص والغناء في الحفلات الشعبية البسيطة ، ويمارسون التسول . وهذه المهنة الاخيرة لايعترفون بها ، الا ان اهل المنطقة يعرفون انهم يمارسونها . قال احدهم وهو يفتل شاربه الاسود ويحدق في عيني سماهر السوداوين بوقاحة الغجري ، حين سألته عن نظرته الى البنت وموقعها لدى الغجر في وقتنا الحاضر : نفرح عندما تأتينا فتاة وخاصة اذا كانت جميلة لاننا سنرى الرزق على وجهها . نرسلها حين تكبر الى الشام لتعمل في الكباريهات وهناك تجمع اموالا كثيرة ، اما اذا كانت بشعة فليس لها الا التسول او تعلم احدى المهن النورية كالوشم والودع وبيع الابر .

البسط ملونة . الاطفال مثل عصافير تجتمع الى صبرة قمح . الفضول الذي عشته اكثر من مرة مازال في دم هؤلاء . فضول حول كل شيء يتماس مع حياتهم البسيطة . في زاوية من الخيمة علقت اكياس ملونة وسيف عتيق مرصع بالودع . ثمة فانوس اثري مشدود بخيط الى عمود الخيمة . كدت ابصر يد حسن ابن المختار بشعرها الكث وهي تعدل من الفتيل ، واسمع الموسيقى المنبعثة من الطبلة والرباب ، والنساء يرقصن على وقع الموسيقى والمزمار ، الهجع وهز البطن ودق الاصبع والرقبة . لكن صوت العجوز ذات الوشم اخرجني من افكاري ، فها هي تتحدث عن الوشم ، تلك النورية الكبيرة في السن ، ثريا .قالت : نحضر شحار الفانوس ونخلطه بحليب امراة مرضع لطفلة انثى . نرسم الوشم المراد ابرازه على الجلد ثم ننخزه برزمة من الابر . نستخدم ثلاث ابر ، وهي عملية مؤلمة ، خاصة اذا كانت في مناطق حساسة من

الجسم . بعدها يتورم الجلد لعدة ايام ثم يعود طبيعيا . تظهر خطوط الوشم الزرقاء وتبقى مدى الحياة .

– اود وشم حنكي مثل ثريا ، قالت سماهر هامسة .

– لم لا . لكن هل تجرؤين على الخروج الى الناس موشومة الحنك ؟

– لم لا . ستصورني ونرسل الصورة الى رئيس التحرير .

الرسوم التي يخطها النور تبدو للوهلة الاولى عشوائية لاشكل لها . كان وشم السيدة ثريا البالغة من العمر اكثر من ستين سنة ، على شكل نقط متناثرة على كامل الحنك مثل عنقود عنب مفروط . هو وشم النور ، الذي يتميز عن وشم البدو بعفويته وفوضويته .

وشمت ثريا نفسها حين كانت صغيرة هكذا ، بشكل غير محدد . .انها وشمة نور . وقال شيخ كبير ، هو زوج ثريا وكان يرتدي العقال مع الكوفية البيضاء والدشداشة ، شارباه ابيضان مصفران من تدخين التبغ اللف ؛ الذكر عندنا يتعلم دق الطبل والعزف على المزمار او تركيب الاسنان الذهب ، وهي مهنة راقية جدا تأتي بعدها مهنة شد الغرابيل . ولكن نور الجنكلة لايمارسون هذه المهنة .

في الساقية اطفال يلهون بالماء ويتصاعد زعيقهم لينسفح فوق الحقول الزراعية المحيطة بالمخيم والاشجار الخضراء المكونة من الصفصاف والتوت البري والتفاح . النور هنا ينقسمون الى طبقات اذن . هذا ما لم اعرفه سابقا . لم يخبرني حلمي بالأمر . ينقسمون حسب المهن التي يمارسونها ، وحسب تمسكهم بالشرف والاعراف . طيور الفرح ، يغنون ويرقصون فقط لاسعاد الناس . ولكن بعض اهل المدن والارياف يظنون خطأ انهم يبيعون شرفهم او يؤجرون نساءهم ، وهذا امر مرفوض في اعراف النور . المسموح هو الرقص والغزل والمناجاة فقط . اما شواذ النور الذين يمارسون الدعارة الى جانب الرقص فالنور يتبرأون منهم لانهم غير شرفاء ولايستحقون كلمة نور . والنوري الذي يمتلك مهنة

يعتبر من الطبقات الرفيعة . يفاخر بها على طيور الفرح او ضاربي الرمل وقارئي الحظ .

الغرابيل التي يصنعها النور تستعمل لتنقية القمح قبل سلقه ومنها لتنقية البرغل . والغربال اطار خشبي ، دائري الشكل شبكه منسوج من خيوط جلد البقر . قال شداد الغرابيل انه يجلب الجلد من الشام مدبوغا جاهزا وكذلك الاطار الخشب ، ثم يقوم بثقبه على المحيط وادخال الخيوط على شكل شبكه ثم تنسج بواسطة الصنارة والمخرز و السكين . ولتقطيع الجلد الى خيوط ينقع الجلد بالماء لمدة ساعتين حتى يندى ويصبح طريا ، وعملية صنع غربال تستغرق نصف يوم او اكثر ، حسب جهد الصانع ومهارته . وتلك مهنة توارثها النور جيلا فجيلا ، رغم انها مهنة آيلة الى الزوال نتيجة لقلة الطلب عليها ، بعد دخول الآلات الحديثة والمواد الأخرى التي لا تتطلب كل هذا الجهد .

وددت لو اسأل صانع الغرابيل عن هموم العصر كالعولمة وغزو الفضاء والاستنساخ والحروب الاهلية وحقوق الانسان . تطلعت الى وجهه المرهق وعينيه الصغيرتين الوادعتين وحالة الخيمة البائسة التي يقطنها . فضلت السكوت وانسللت الى خيمة اخرى وفي روحي كم هائل من الاسئلة . اسئلة عن البشر الذين يعيشون حياتهم دون هدف ، دون طموحات كبيرة . هل الحياة دائما هكذا ؟ لو رضيت بمصيري وبقيت في قريتي الم يكن ذلك اجدى من سنوات التشرد الطويل التي عشتها ؟

صورت سماهر المخيم والتقطت وجوه بعض الفتيات الصغيرات وهن يكتمن ضحكهن فما الذي يثير في هذه الحياة البائسة ؟ اعدت ثريا جلسة لطيفة ، فيها صوت الطبل والمزمار ورقصت الفتيات الصغيرات والصبايا والنساء . كل الموجودين عندهم استعداد للرقص والتمتع بالموسيقى الشعبية . لم يستغرب احد حين طلبوا من الصبايا تأدية رقصة خاصة لنا . ظهر الفرح على وجوه الشباب وابتسم الشيوخ

وكأنهم يعرضون مواهب لايمتلكها احد غيرهم . سألناهم لماذا لايذهبون الى الشام ، فهناك علب الليل والمراقص والسواح والمسارح الشعبية ؟ قالوا ان اقرباءهم في الشام حا لهم ميسور ، فهم يعملون بالملاهي ويزورهم كثير من السياح العرب ، الذين يصرفون عليهم اموالاً طائلة لكن هذه مهنة لا تليق بهم . الفتيات هنا لسن جميلات ، وهذا بسبب الانتقاء . لايذهبن الى الشام ويتفرغن للعمل في الريف . انهن غير مرغوبات في الملاهي . بين الصغيرات كان هناك طفلة عمرها خمس سنوات اسمها دنيا ، ادت رقصة بشكل محترف ورائع . في عيني دنيا بريق الصالات الفخمة الملونة بالمصابيح ، والاقداح الكرستالية والنقود الورقية التي ستعلق على خصرها . وفي عينيها شاهدت السيارات الفخمة والبيوت ذات الرائحة المنبعثة من ارائك مطاطية ودموع الالم التي ستسح قبل طلوع الشمس . كل ذلك رأيته في عيني دنيا السوداوين اللتين لا زال الذباب يحوم عليهما . رأيت موت المرأة القادمة وهي تتنقل من صالة الى صالة ومن يد مزينة بخاتم اخضر الى يد مشعرة . ذلك قدر النورية الجميلة ، الذي لايمكنها الهرب منه .

قال شاب يدق على الطبل اسمعوا هذه الاغنية التي يغنيها الاطفال واهل القرى هنا : دخلك دخلك مداخل/ بيك شداد مناخل/ عمك راغب النوري/ وخالك معهم مش داخل . نور نور تحت التوت/ معهن صبي عم يموت/ آلت امو ولي ولي/ آل ابو للبلي ، وهذا للتعبير عن محبة النوري للبنت اكثر من الصبي . لاتصدقوا الشائعة . اطفال الغجر لايمكن تمييزهم فهم طلقاء بنينا وبنات ، غير معتنى بهم ، ملابسهم كالحة ، لكن يتم التفريق بينهم عند المراهقة .

كانت صور الاطفال المشردين وهم يتقافزون فرحين امام الكاميرا بملابسهم الممزقة وشعورهم القذرة تلح علي حتى الأن . ثمة احتفاء بالحياة ، ودعوة الى الانغمار في اشعة الشمس وظلال الاشجار وغبار الارض . الطفل الغجري يمتلك اقصى درجة من الحرية . الرجل فيهم يشبه طفلا في حركته ودوران عينيه . يقفزون الى الماء ويخرجون الى

الشمس بفرح عجيب . يركضون وراء الحشرات والحيوانات البرية . يلتقطون الاعشاب وما سقط من الفلاحين كي يعودوا الى خيم الاهل ليأكلوا طبيخ النور المشهور . الطبيخ الذي لالون له ولا جنس . يجمعون ما تسولته الام خلال اليوم او مارزقهم به الله من هنا وهناك . برغل وكبة وباذنجان ، جبن ولبن وخبز . يضعون كل ذلك في طنجرة واحدة ليكون الطعام خلطة دون هوية .

طبيخ النور ، طبيخ النور ، طبيخ النور . . . .

وكانت اللازمة تدق في رأسي مثل جرس كنيسة عملاق .

* * *

حرنت الحمارة ثانية ، عند تلة تشبه بيضة ضخمة لطائر اسطوري . بدا نوري غاضبا ، يهدد بقتل هذا الحيوان الاعجم ، الذي يناكفنا عن قصد . وكانت الشمس تميل الى الغروب . بدأت الانوار تنسحب بغتة عن رؤوس الجبال . تتلون الكهوف بالاسود . اندغمت ثنايا الاشجار وخالطها لون فستقي عجيب . بعد التلة سيأتي واد ممهد ، قال كريم سيفضي بنا الى القاعدة . لكن هذا الحيوان لايروم المشي . واقف كأي حمار حقيقي . اقترحت عليهما انزال الاحمال عن ظهر الحمارة وقيادتها حتى السهل ثم نتكفل نحن بحمل الموجودات . على الانسان ان يصبح حيوانا تحت بعض الظروف ، هكذا تقول الحكمة . ولاقى الاقتراح موافقة الجميع . وتمت العملية بنجاح ، لكن بعد جهد وعرق ولعنات كنا جميعا نصبها على الحمارة ، والجيش والقوى العظمى والحكومات المجاورة وخشب الصندل ، الذي يفوح بالعطر ، واعراف القبج الهادل بين الصخور .

صببنا لعناتنا مثل مطر ربيعي على كل ما هو محسوس ، او غير محسوس ، في الجبال والمدن والبحار والسماء .

هذا هو السهل اذن .

خيط من مياه ، يجري على حافة السهل ، تناثرت قربه اشجار صفصاف . قررنا التلبث نصف ساعة للاستراحة ولا يهم اذا ما وصلنا بعد الغروب بقليل . فتح نوري سلة الخبز واخرج رغيفين وعلبة لحم معلب مستوردة من هولندا ، وبدأ يصنع لنا ساندويشا . وكان كريم يدخن مستلقيا على قفاه محدقا بنهايات السهل ومراقبا اشعة الشمس الغاربة . لا هو بالايراني ولا بالعراقي ، لا هو بالكردي ولا بالعربي ، فما الذي يصنع ؟ كان كريم يحلم بالرجوع الى حي الاكراد ، ولا يهم العمل الذي سيعيش منه . لا يهم ان يصبح صباغ احذية او عامل بناء او حمالا في شورجة شارع الرشيد . انه يبحث عن وطن . عن بيت في ذلك الوطن لا يطرده منه احد . يبحث عن امرأة يحبها . هل هذا مطلب كبير ؟ بيت بسيط فيه مكتبة يضع فيها مؤلفات ماركس وانجلز ولينين ، ثم يكون له دور في هذه الحياة القصيرة .

* * *

سألتني سماهر ذات ظهيرة ، قبل المضي معها الى مخيم النور ، كيف وصلت الى طرطوس ؟

قلت لها هل وصلت الى طرطوس فعلا ، ام ان الامر كله لا يعدو حلما في الرأس ؟

ثم اعتصرت ذاكرتي وعدت الى الجزيرة . بدأت رحلت العودة من هناك .

ما عاد ثمة مايغري في ذلك المكان . اصبح البرد يرهق الروح . هذه البقعة من الارض لا تناسب مزاجي . لم احبها . احسست اني رأيت كل شيء في بلاد اسوج . امتصصت تفاصيل المكان بزمن مكثف . وكنت دائما اشعر بسيل هائل من المقت يحيط بجسدي انّى تحركت . سيل كثيف لااعرف من اين يأتي . ما ان اترك الجزيرة حتى اخوض فيه . هل جاء من مرأى الاشجار البنية العارية ؟ من العيون الموحدة الزرقة ؟ من السماء الرمادية دائما ؟ من الايقاع الرتيب للحياة

والطيور والبشر وكل الموجودات ؟ من رفقة الاصدقاء ذاتهم وهمومهم ونكاتهم وتعليقاتهم المتشابهة يوميا ؟

اجتزت الممرات والمطبخ وحاذيت غرفة التلفزيون . تحلق العشرات يراقبون فلما بوليسيا يدور في جزيرة كذلك . يبدو ان الشباب يتخيلون انفسهم ابطال ذلك الفيلم لانهم يعيشون في جزيرة . كان فيلما لاجاثا كريستي . جلت الممرات عشرات المرات . احصيت المصابيح والمكيفات والابواب . دخنت كثيرا . حييت العشرات واستمعت الى حوارات حول النقود والعمل والنساء والحروب . عدت ثانية الى التجوال في الممرات . خرجت اخيرا من باب البناية كلها . لن اعود الى سريري في تلك القاعة . انني محاصر مثل نمر . لن ارى وجه مسلم الذي يذكرني دائما بالارنب . لن ارى ايضا نوري . تنفست الهواء النقي المعبأ برائحة السمك . مشيت في الممر الذي يقود الى سطح الجزيرة ، وبدأ الضوء يخف قليلا قليلا . رجع الموج يضرب الاجراف الصخرية من جديد . خرجت من المقبرة . الا يعيش اصدقائي تحت الارض ؟ ما الفرق بينهم وبين الجرذان والراكونات والصراصير والديدان التي تعيش لتأكل وتضاجع وتتوالد ثم تموت ؟ وكانت السماء صافية ، والبرد يتغلغل في العظام . هناك انوار بعيدة لمدن غارقة في البياض .

صوت سليم الحاد كان يرن في عقلي منذ البارحة . سأله محمود ، وهو مصري جاء الى اسوج طالبا اللجوء السياسي مدعيا انه فلسطيني ، لكن لهجته فاضحة له ، عن سبب مجيئه الى ارض القطب بدلا من البقاء في الجبهة مدافعا عن الوطن . وجاء الرد محاضرة طويلة لا تنسى بسهولة . لقد اذهل سليم الجميع : وطن ؟ عن اي وطن تتحدث! انا الواقف امامك سبق وان شاهدت قتلة يضربون رؤوس الضحايا بالعصي حتى تتناثر امخاخهم . كنا عشرات من الرجال لم يستطع اي واحد منا ان يحرك ساكنا . في ليلة ماطرة رأيت اجساد الجنود تندس في الطين مثل ضفادع ضخمة . لكنها ضفادع مقطعة الاوصال . كانت المتاريس

مقابر ، والشوارع ممرات الى الموت . جبال محروقة بالنابالم وأهوار مغطاة بالجثث . انظر الى يدي هاتين ، لقد تشققتا من المعول وقد حفرت به مئات الملاجئ . انا الواقف امامك امضيت سنوات في خنادق الموت ، ولم يقل لي احد شكرا . كلمة واحدة متذمرة ويمضي رأسي الى المقصلة . شاهدت بعيني هاتين صديقي يموت بين ايدي مفارز الموت . هل تعرف ماهي مفارز الموت ؟ كانوا يضعونها خلف الخطوط الامامية لقتل كل من يتراجع عن القتال . لايفرقون بين ضابط وجندي . عليك ان تتقدم او تموت . ان تقدمت مت وان تراجعت مت . نحن شعب يعيش بين موتين . اي وطن هذا كي ادافع عنه . كرهت غباره وشوارعه وتخلفه ومخابراته وشرطته وعسكره . لم اعد اعبأ بمن يأتي . يتساوى الجميع ما ان يجلسوا على تلك الكراسي الفخمة . يضعون ابناءهم واقرباءهم في القصور الفخمة ، ويركبونهم السيارات الفارهة ويبعثون ابناء الخائبات الى الحرب . قال الدفاع عن الوطن . حولونا الى جواسيس ، الجميع يتجسس على الجميع . احزاب ومنظمات ومكاتب واجهزة وعش في وسط هذه الغابة من البشر . ها ان عمري سيصبح ثلاثين سنة ، ولم اعرف من الحياة شيئا . انني لم اضاجع امرأة حتى هذه اللحظة . والله وانتم شهود علي الآن ، في هذا الليل القطبي ، ما ان يمنحوني الاقامة حتى اغير اسمي . تغيير الاسم مباح في هذا البلد . سأختار اسما لايدل على قوميتي وديني وبلدي . سأصبغ حتى شعري من اجل الضياع بين ابناء البلد .

انهم . . . . . .كلهم . . . . . .لا . . . . . .
كلاب . . . . . .و . . . . . .قتلة . . . . . .او . . . . .او
. . . . . .

عواء سليم ظل يتردد في جنبات الجزيرة . من حوله الى متوحش هكذا ؟

لقد تحقق طموحي الذي كثيرا ما ذكرته لحلمي . اعيش وحيدا في جزيرة . هل جلب ذلك السعادة لروحي ؟ كلا . فكل يوم يزداد لدي القلق وعدم الاستقرار . انا نبتة غضة تحتاج الى الشمس . وهنا لاتوجد شمس . ما الذي ابغيه من هذه الدنيا الفانية ؟ الى متى وأناأتقلب في اتون الضياع ؟ انا ملتصق بالضياع لانه اسمي . ربما . قدري ان اصبح جوالا ، تقذفني المدن بين راحاتها مثل عاصفة . احسد الذباب احيانا لانه يولد ويعيش وينمو ويتوالد في بقعة واحدة ؟ خالي الرأس من اوهام البشر ورغباتهم وطموحاتهم وأوهامهم ؟ يقينا انه لا يفكر حتى بالموت . سليم على حق في كلامه . كان المسكين يعوي .

توغلت في التلال . لم المح حباحب تضيء ولا كائنات تطير . كنت بالكاد ارى الطرق . كانت ممهدة . سار فيها ذات يوم حراس وجنود وطباخون وبحارة . عاشوا لمراقبة السواحل او نطر سفينة ستحط على اليابسة . الريح تجلب اصواتا خافتة من تحت الأرض ، هي اصوات اللاجئين بلا شك . يزعقون بأصواتهم العالية ليثبتوا لانفسهم انهم لازالوا احياء . اصوات تخترق طبقات الكونكريت والتراب لتصل الى اذني . تخيلتهم اشباحا يعيشون في الظلمات . بين المواسير والانفاق والدهاليز . اشباح تؤنسني رغم ذلك ، فانا لست روبنسون كروسو على هذه الجزيرة العارية على الاقل . تذكرت وجه مسلم المتسائل وكلامه ، لماذا نحن هنا ؟ كيف جئنا الى هذه الجزيرة ، وهل هناك قوة عليا تتلاعب بمصائرنا ؟ حتى في اقصى احلامه تطرفا لم يكن يتصور انه سيصل الى مكان بهذا البعد ويعيش جزءا من حياته في جزيرة ؟ لا اتصور وجود جزيرة بهذه الوحشة والغربة . اخبرتني غجرية ذات مرة ، قرأت لي خطوط كفي ، في بستان ابراهيم ، وكنت في الخامسة عشرة من العمر ، انني ساتزوج مرتين وسأسافر الى ارض بعيدة . تذكرت تلك النبوءة وانا اتطلع الى البحر . لقد حققت النبوءة اخيرا ، او نصفها على الاقل ، فأنا لم اتزوج بعد . هناك نساء لايحصين على هذه الارض . انهن ينتظرنني دون شك ، في ركن قصي .

كان البحر حولي . وهو مرعب في الليل .

بحر السمك والنفط والأشنات . بحر الثلوج المتساقطة من قطب الارض الشمالي . بحر القباطنة المريشي السهام وكانوا يجوبون هذه الصحراء من الماء الى الماء ، سكارى من الجعة السوداء والنبيذ المعتق ، تفوح من اردیتهم السميكة رائحة الدهن والدماء . تاهت عيناي في طبقات الليل والضباب . الوحشة جوهر هذا الوجود . كنت وحيدا وهشا . لم اعد اؤمن بشيء . لم اعد انتمي الى احد . من جرب هذه الاحاسيس يعرف مقدار ثقلها على الروح . ثمة شيئ يتقدم من حافة الافق . كتلة مضيئة ، حسبتها اول مرة طبقا طائرا ، او نجمة تزحف على الثلج او حوتا مطلي الظهر بالفسفور المشع . كان ذلك الشيء يتقدم نحوي بالضبط ، انا الواقف على حافة الصخور ، ليس بعيدا عن الماء . اختفت اصوات الارض من اذني ، وانحصر ذهني بهذه الظاهرة التي تقصدني . انها تكبر بمضي الثواني واتساع دهشتي . هل هي مركب آخر قادم الى الجزيرة ؟ لكن المراكب توقفت منذ أمد طويل . الليل قارب منتصفه ، والحياة تسترخي في زمنها الراكد . تخيلت نفسي مرة اخرى ، روبنسون كروسو على جزيرة ليس فيها بشر ، وتخيلت السفينة المتجهة نحوي آخر سفينة ستمر في هذه الاصقاع . لوحت بيدي واطلقت صفيرا حادا . ناديت بصوت عال . فكرت بعقم ما اقوم به . السفينة تتجه نحوي ، وربانها يقصدني . ليست بالضخمة الهائلة ولا بالصغيرة . سفينة تتكون من طابقين ، ولشدة الضوء المنبعث منها رحت اميز النوافذ العديدة الموجودة على جنبيها . لا ادري ان كان القبطان يراني ام لا ، فقد رست السفينة بجانبي تماما . رأيت رجلا اشقر له لحية طويلة وشعر طويل مظفور على شكل ذيل حصان يخرج من باب صغير ويمد نحو الجرف الصخري جسرا صغيرا من الخشب . وقفت جانبا احدق اليه وانتظر ، دون ان اقول شيئا . وفي لحظة خاطفة من التردد سمعت صوتا عميقا ، غير بشري ، يقول بغضب :

- نط .

تلفت الى اليمين ثم الشمال فلم ار نوري او وائل او مسلم . انها الارض تكلمني . ارض باردة اخرجت صوتها الجاف الخالي من الاحاسيس . الليل ضباب ، والكائنات الانسانية التي تشاركنا هذه الجزيرة تختبئ تحت الارض . قال لي الصوت اعلى من قبل ، وبالغضب عينه :

- نط ، عد الى وطنك .

فنططت ، كأنني صرصار داخل الى اناء من اللبن .

سأرى سفن الشحن والصيد وحراسة السواحل ، والموج يضرب الاجراف بقبضاته المسطحة ويعابث بألسنة من زبد حيزوم السفينة . السفينة التي لا ادري اين تأخذني . الريح تهوم في المداخن ، والدولاب الهائل بجر الارض بعيدا عني . هاهو اخيرا البحر الاجاج . السفينة تدب كمحار لزج على الزبد والاشنات وقطع الخشب المتبقية من سفن القراصنة الموهومين بالجعة والنساء . لا احد يسمع النداء وتصاعدت من الداخل همهمة المسافرين . بدأوا يفتشون عن الغرف التي سينامون فيها والمحلات التي سينتشون فيها وعن المراقب المنزوية التي يرون منها نجوم السماء والاطباق الطائرة والسيرينات المغنيات . سأراكم في مدينة اخرى ، ايها الاصدقاء ، وسنفترق ايضا لنلتقي في جبل او سوق للبغال او كهف لتخبئة البضاعة . سنصبح غجرا بحق ، لا الطرقات تمسكنا ولا الخيام . بلادنا الافق وبيوتنا المواسم . يجب ان نستحق هذه التسمية لانها ايضا جديرة بنا . بلغوا سلامي لعروس البحر الرابضة على ساحل المدينة والفنارات الخضراء والحمراء والنساء الشقر والكؤوس الكرستالية التي كسرناها في هذه المدينة جلبا للحظ ، على عادة اهل البلاد . بقيت اكلم الهواء وقتا طويلا .

كيف تلاشت وامحت ، صور اسوج الجميلة ؟ كيف تبخرت بهذه السرعة ؟ كان ثمة حياة جميلة ، الا انها اشبه بتابوت مزركش . لم التفت الى تلك الزركشة . شممت رائحة الموت فقط . لن اخبرهم

بالصوت الذي سمعته من الارض ، ولن اقول لاحد طردني التراب ، لان سحنتي تختلف . هناك تجارب خاصة على الشخص الاحتفاظ بها لنفسه ، أخذها معه الى القبر . التجارب التي لايباح بها ربما هي التي تصنع جوهر الأنسان . ظلت السفينة تبتعد وتبتعد . راحت الجزيرة تختفي . دمدمت بآيات قرآنية عن البحر والسماء والحيتان والقدر المحتوم وقلت بخضوع : قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي ، لنفد البحر قبل ان تنفد كلمات ربي ، ولو جئنا بمثله مددا . . . . .

رأيت حروف هذه الآية منفرشة على سطح البحر الاجاج ، الذي يخلو من النوارس ويغص بالسمك والقريدس وقناديل البحر . لم يبق امامي الا عالم السفينة لأجله واكتشفه واضيع فيه . في السفينة حقائب واحمال ، وفي الهواء رائحة كحول تنبعث من الافواه . ثمة المرأة المتصابية بقبعتها البلاستيكية المزينة بالعناقيد ، تمص سيجارتها بمبسم انيق . الشاب المراهق مع صرره في زاوية قريبة من سلة المهملات . اللوطي الذي يرصد الطرائد بعينين ناعستين وابتسامة غامضة ، وذلك الغنج الانثوي الغريب يجلل خديه . العجوز الاصلع يمص غليونه ذا الرائحة العبقة ويداعب كلبا قريبا منه . امرّ في الادراج التي تقود الى السطح او انزل الى الاسفل ، حيث القمرات ، ولا احد يحس بي . انا كائن من ضباب . انا ضايع الجريان الذي تشهى خالته ذات يوم وركب بغلا محملا بالصابون في وسط الجبال . انا ضايع المصاب بلوثة المغامرة . تقدمت من المطعم الصغير وطلبت سجقا مع كوكا كولا . لم يلتفت لي البائع ، اخذ النقود مني دون التطلع في وجهي . لم يقل لي احد اين انام ولم يسألني احد عن جواز السفر او بطاقة السفر . الكل لاهون عني وانا اتسلل الى سطح السفنية التي تمخر عباب البحر الى جهة غير معلومة . تجولت بين البارات الليلية والطاولات والراقصين . لم المح اي ردة فعل في الوجوه . كنت شبحا دون زمن ، امتطي سفينة من أوهام .

هل استحلت روحا نورانيا لم يعد يراه احد ؟ اثمة تفسير آخر لهذه

الحالة التي اشاهد نفسي عليها ؟ حتى نوري ومسلم وقاطنو الجزيرة اصبح بيني وبينهم حجاب من ماء ، وأزمان اهلكت ذكرياتي . وكأن رحلتي هذه ، رحلة سفينتي الغامضة ابتدت منذ سنين وليس يربطني بالماضي سوى الموج وهدير الريح الذي يتصاعد في الخارج . رذاذ مطر وانطباق انواء وسلاسل ترفع وقوارب توضع ومجيء ورواح لعمال السفينة . والحركة تزداد والبشر مهمومون . ثمة امر خطير في الخارج . انها عاصفة . عاصفة سندباد البصري وقد ضربت سفينته مرة اخرى في عرض البحر .

سأصعد الى السطح وأرى مايجري حولنا . القبطان اصدر أوامره ان لا احد يصعد الى السطح . تسللت من تحت حبل غليظ وخرجت لارى الانواء . لم تصدق عيناي ما رأتا .

الافق النحاسي ، يطبق علينا ، ونحن مثل قشة وسط امواج عاتية .

السفينة تصعد الى قمة الماء الشبيهة بالجبل ، ثم تنزل الى القاع الذي استشف موجوداته . حديد باند ، كنوز مخبأة بأصفاط ، مدافع عتيقة اكلها الصدأ والاشن والطين . تيجان ملوك مصدرة من قارة الى قارة ، رماح وأقواس وخناجر . دروع رومانية وفارسية وهي من جلد ونحاس وحديد . بلطات وتحف من عاج وذهب على شكل سبائك وعظام حيتان نافقة وكواسج ودبابات بحر وهوام ذات عيون ملصقة في جباهها وأشجار زينة من ورق الفضة وساعات رملية . اواني طبخ وصفائح من الكهرمان منحوتة على هيئة فرسان صغار يحملون مهفات الريش . على كل ذلك يطغي الموج ثانية وتتداخل الالوان ويلتمع برق في الافق . السفينة ترتفع وتنخفض ، ثم ترتفع وتنخفض . الريح تهب من الشمال ثم تدور الى الجنوب ، ناقلة السفينة معها . الرؤوس بما فيها رأسي تلف معها وتدور ، والدوار يبلغ بالروح حد الحلقوم . لاهو دوار البحر ولا حركة الانواء بل هو غضب الهي سيهوي بنا الى هوة القاع ،

لنستقر بشرا وكراسي وطاولات ، مزهريات وتلفزيونات واجهزة كومبيوتر ، اصباغ شفاه والبسة داخلية ، خمورا وهواجس وأحقادا ، في القاع المرجاني الذي رأته لي الغجرية في بستان ابراهيم ، قبل عشرين عاما .

اذن فنحن بين مخالب الموت . الموت ، هاهو ، اشاهده امامي . في الغيم والبرق وشآبيب المطر ، في الأفق الخالي من اي حي ، في جبال الماء وهي تموج ذات اليمين وذات الشمال . في ذلك الصمت المحيط الذي يدفع دفعا الى هاوية الضياع . احس ان الارض غير موجودة اطلاقا . اننا معلقون في السماء ، او طائرون بين الافلاك ، انحن في كابوس ؟ هناك جبل مائي راح يقترب . انها المرة الاولى التي ارى فيها جبلا يسير ، ينتقل من مكان الى آخر ، عبر اقدام من ماء . قلت للبحر : الموت ! وليكن . عشت ونكحت وعشقت ، وسأودع هذه الارض دون اسف . لم يعد ما يدهشني فيها . سأجرب الموت علني اجد شيئا جديدا . انه عزاء للروح لا اكثر .

كان صراخ المسافرين يتعالى مع كل ميل للسفينة . لكن من يسمع ؟

الاجهزة تعطلت ، ونحن معزولون في هذه البيداء من المياه .

الطاولات في البهو تميس من جانب الى آخر . اصص الزهور تتساقط متناثرة على الأرضية البلاستيكية . الناس يتمسكون بأي عمود او قضيب او حافة قربهم . ينقذف رجل على الارض في هزة عارمة لجسد السفينة . تسقط صينية الخدمة من نادل ينقل اكوابا فارغة . زعيق البشر يتصاعد ونحن نحس باقتراب النهاية . البشر يجرون جردة لحياتهم الماضية او يحلمون بتغيير سلوكهم فيما لو مر الكرب بسلام . الهواء بارد وثقيل ، مشبع بالرطوبة والموت . هواء البحر الذي يحمل انفاس من قضوا منذ قرون : الى اين تمضي ايها الجوّاب ، والآفاق كلها مطبقة حول جسدك ؟ ايها الغجري الموزع بين السفن والقطارات

والدروب الجبلية ؟

اختي الصغيرة اسماء ، وجه امي المدور وعيناها الصفراوان . بستان ابراهيم الكث ، بدراقه وليمونه وتينه . رأيت انهارا جارية سبحت فيها ، ورمالا رطبة دفنت فيها جسدي ، او نكحتها كما تنكح النساء . رأيت ارضا جرداء وصحراء من رمال تدعوني اليها . ليتني اموت في ارض لاهبة او عند سفح جبل او يلتهمني السمك في اهوار غاصة بالقصب . تمنيت ان لا اموت هنا وسط هذه السفينة الموشكة على الغرق . الماء بارد ، والوجوه لا اعرفها ، ومن الصعب الموت بين اناس لايعرفونك . وقبل ان تضرب الموجة العاتية ضربتها اقسمت ان اعود الى المكان الذي خرجت منه ، ان عاجلا او آجلا . وأن لا اخرج ابدا حتى لو واجهت الموت . شاهدت مثل سحر ، ارضا جبلية ذات وديان ملينة بغابات الجوز ، وأطيار كركي تهدل او تطير ، بذلك الريش الملون . وكان هناك عيون ماء تنبع من بين الصخور ، وبساتين من التين يتخللها ماء جار بسواق صغيرة ، ونساء صبوحات الوجوه ، يرطن بلغة كأنها الكردية ، يزين رؤوسهن بليرات الذهب ، ويلبسن ملابس مزركشة تظهر بعضا من صدورهن البيض . بغال تصعد في طرقات جبلية ورجال يتمنطقون بالاسلحة والرصاص ، وسوق من الخيام كأنه سوق غجر ، يباع فيه كل شيء ، كباب واقمشة وطيور جارحة وبنادق وقنابل يدوية وشاي وصابون ، معلبات ودخان ، يتناهبون العملة من ايدي بعضهم وهي تومانات ايرانية ودنانير عراقية وليرات تركية ودولارات اميركية .

ثم في غمرة تلك الخيالات ، الجامحة والمفاجئة ، لم اع ما حصل بعد ذلك .

* * *

وقعنا في الفخ . وقعنا مثل دجاج دانخ بين ايدي رجال الدولة ، الجحوش المرعبين الذين سيبدلوننا بالنقود والمناصب والامتيازات . كيف ؟ احياء سيعتصروننا مثلما تعتصر ليمونة طازجة . انتهت الرحلة

اذن ، وعلى الارض السلام . نظرت الى الرجال كثي الشوارب المصوبين بنادقهم نحونا وفكرت بالمصير الذي ينتظرني . كان ماثلا امام عيني دائما وكأنني كنت احدس وقوع هذه اللحظات منذ ازمان . شريط طويل ومتعب ، ومشيب للرأس ، صنعته مخيلتي من القصص التي سمعتها ، ومن الكتب التي قرأتها ومن خيالاتي وكوابيسي الشاسعة . سينتزعون انفاسي وذكرياتي بقسوة عبر شد الاظافر عنوة ودس القناني في المؤخرة ، هذا ان لم يكونوا يمتلكون رجلا طويل العضو يمارسون عبره اغتصاب الذكور والاناث وحتى الحمير . او سيعلقونني من زندي في مروحة سقفية تظل تدور وتدور حتى تتحول اعضائي الى مجرات تائهة تتفكك ما ان تتوقف المروحة . ثم تنهال علي الاسلاك الغليظة وتمطر جلدي بضربات لاترحم . سيجتمع علي رجال غلاظ القلوب لايعرفون الرحمة . يحاورونني باصوات فجة وقحة ونظرات كاوية ، هي نظرات المتسلطين والجلادين والقتلة . سيكون هناك طاولة عليها ضوء ساطع يعمي عيني ، يجلس خلف الضوء رجل غامض الملامح يسأل عن ادق الاسرار وينتظر الجواب واضحا صريحا مباشرا . مزيد من الشريط . . . . سيدخلونني الى قاعة واسعة ، في الوسط منها حوض جميل للسباحة ، مليء بالماء ، تضيؤه مصابيح ملونة . يطلبون مني التعري والدخول الى الماء . ليس هكذا . . . خطوة خطوة ، كلا ، رأسا ، مباشرة . علي ان اقذف جسدي الى العمق . اقوم بذلك واكتشف ان الماء لم يكن سوى محلول حامضي ، يذيب جسدي بطرفة عين .

الرموش والكلى والقلب والدماغ الفائر بعالمه . الايدي التي امسكت الكتب وداعبت النساء وخطت الرسائل الى الاصدقاء البعيدين . كل ذلك سيتحول الى محلول حامضي ، سيخدعون به بشرا آخرين . الموت متجسدا يرتدي هيئات لاحصر لها . انه نفق مظلم يأخذني الى اغواره ومتاهاته وليس ثمة من ضوء . نفق لا ضوء في نهايته ، وهذا يعني انه لاينتهي . نفق يرمّد شعر الرأس ، ويخلط الاوراق ، ويزاوج بين الحقيقة والاوهام ، الوقائع والخيالات . هل بقي

الغول حيا حتى هذا اليوم ؟ هل هو في البصرة ام نقلوه الى واحد من سجون بغداد . لابد ان اسنانه تهدمت الآن . طالت اظافره بالتأكيد . او بردوها له فحولوها الى مخالب . سيلتهمني دفعة واحدة ان كان حيا ، يمارس مهنته كالسابق . . . .

فكرت بالموت المفترض ، المخطط له بدقة : لو مات الشخص الضعيف ، ذو الوجه الفأري ، المدعو ضايع الجريان ، الذي استعار اسمه من شرطي المرور ضايع ، فخر قرية الحامضية ذات يوم ، الذي حاول خنق امه بقدر الرز ، قلت لنفسي وانا احدق بالاشخاص المحيطين بنا مثل اسورة ، وسط غروب شمس ليس اكيدا . لو مات ضايع ثم حذف شخص من هذه المليارات التي تعمر الأرض فما الذي سيحدث ؟ لاشيء . كل يوم يموت مئات والوف الاشخاص ، في الغابات والمدن والصحارى والمستنقعات والبحار . هل يغير القمر موعد ظهوره في السماء او تتأخر الشمس دقيقة عن شروقها ؟ من يهمه امر موته في هذه الارض ؟ سماهر ربما ، لكنني اتخيل انها الآن وجدت صديقا جديدا في حياتها ، وربما راحت تحدثه عن اللحظات التي قضيناها سوية في حدائق دمشق وأزقتها القديمة ومطاعمها وصالاتها وأريافها . اصبحت اذن ذكرى شاحبة لدى سماهر . مجرد كلمات تنتظم بجمل وتحمل افكارا عن ذلك الشخص الغريب ، النوري ، القرباطي ، الذي حط فجأة على حياتها ، ثم غاب .

غاب كأي نجمة في الصباحات المضيئة .

* * *

امي ، ابي ، اخوتي ، لا احد يتذكر موتي او يبكي علي ، فقد جرت كثير من الامواه تحت الجسور . الحياة لاتتوقف ، هناك دائما قطارات تسير ومدن تولد او تتوسع ، ومحار يعيش في البحار ويتوالد ، واشخاص يموتون او يمارسون الجنس بلذة فائقة او بضجر قاتل . اما اذا نظرت الى الامر بشكل فلسفي فانا لااعدو ان اكون ذرة تافهة في سعة

الارض ، والارض ذرة تافهة في المجرة ، والمجرة ليست سوى قلامة اظفر في هذا الكون العجيب الذي يضخنا ضخا الى الدنيا ثم يكتب علينا الشقاء والترحال والبؤس والفرح والضحك والموت والحياة . وكانت ثمة اصوات واشعة شمسية وديوك تصيح . خبز يخبز وتنانير تنفث الدخان اعلى من اغصان التين . كان هناك نهر يجري بين الاجراف المحاطة بالرمل ونباتات الخلفاء ، وهواء ثقيل فيه عطن بارود واشعة سينية وموت . كان هناك عرق غزير ، وكان هناك حوارات غير مفهومة لأنها تنتمي الى الماضي ، او الى عالم غير مؤكد :

– ذهبوا الى السوق لجلب القمح ، اذا بقيت الحال سنين اخرى سنموت من الجوع . انه صوت امي .

– هل جلبت البقرة من حقل البرسيم ؟ انه صوت اختي الكبيرة .

– ربطتها قرب الساقية ، هناك اعشاب كثيرة . لم تعد تشبع وحليبها قل .

– سأطبخ قليلا من الباميا مع الثوم ومعجون الطماطم . لاحم لدينا .

– اين ضايع ؟

– انه نائم في المضافة . منذ الصباح وهو نائم ، لا اعرف ما يجري له .

النخيل يتمايل بنسمات هادئة . طيور زاغ تعبر الفسحة الواقعة بين البيت والغابة . طيور لاتنتهي ، تحلق في سماء زرقاء ، هي نفسها التي ظللت اراها منذ ان ولدتني امي . فكرت بهذا الكابوس الطويل ، المليء بالاحداث والوجوه والمدن ، والرحلات . الحكمة تتوج دائما ببياض الشعر . والأنسان يدفع ضريبة تلك الحكمة من طزاجة الجسد والملامح . لا شيء بدون ثمن . انني اكثر اتساعا وحكمة ولكنني ملوث بالوهن . وهن الروح والجسد . توهمت انني اسمع صوت دربكة

بعيد ، قادم من السنين ، من متاهة الدروب الليلية والاضواء العاجة بالبق . حسن ابن المختار وعباءة سوداء لامرأة تدعى ام سعيد ، وضوضاء خان لابد وسط ليل الجبال . وكؤوس كريستالية تتكسر في دهليز البار . نوري نظيف ونوري يفوح برائحة الجبنة .

شعري الابيض منسدل على المخدة . مر الشريط ثانية في رأسي كما لو كنت جالسا في صالة سينما ، شريط الغجر ، النور ، الكاولية ، الذين رأيتهم وسمعت عنهم وعشت معهم طوال السنين الماضية . حصل هذا بمفارقة غريبة . احسست ان بقائي في بيت سماهر تلك الليلة بدأ يثير الريبة عند اخيها وابيها . رجل غريب جاء ليعمل تحقيقا عن الغجر . انجزه مع سماهر فلم لايرحل الى الشام ، لم يبيت الليلة عندنا ؟ تخيلتهم يفكرون هكذا ، كما احست سماهر ايضا بذلك من خلال النظرات والتعليقات الموحية من اخيها ونرفزة ابيها المحسوسة ، وغير ذلك من علامات . سماهر تحاول ان لا تجعلني اتنبه للامر . بدأت بتفريغ حوار ثريا وشيخ الغجر ، وهي تجلب بين استراحة واخرى ماعون العنب الاحمر الريان من مياه العاصي ، او ثمار البرتقال والسكاكين للتقشير في صالون الضيوف ، بين الشريات الذهبية والسجاد والزخارف الجبسية المزينة للجدران . وجه سماهر كان الوجه الاليف لي ، وجهها وعيناها المصنوعتان من اجنحة فراش والق انوار تشع من قزحيتيهما . ثمة شبق في عينيها ، نداء الانثى للذكر ، وشهوة لاحتضاني وتقبيلي والنوم على صدري . لكن كيف ؟ كنت اسألها بنظرات موحية فتجيبني باشارات مخاتلة وكأنها تقول انتظر .

دونا كل ما رأيناه عن ذلك المخيم . جلسنا للكتابة على الطاولة العريضة ، وكان ابو سماهر يسقينا القهوة المرة . دربكات الغجر تترنح بين الخيام . تمضي امواج العاصي منغلة بين اسماك القطان . غرين وأشن وحصى وشنبلان يفيض على الجانبين . سرب الذباب يحط على صفحة الماء . نش الصبي ذلك السرب عن انفه فطار . طار نحو وتد الخيمة ثم هام نحو رطوبة الضفاف . ارعبته اقدام الراقصين ودربكة الشاب الذي

يطمح ان يكون مركب اسنان . هل يمكن لي نسيان وجه دنيا الغجرية رغم الالم وضياع المكان وتشتت الزمن السابح فيه ؟ زمن جساس الذي تدور حوله الحكاية ولاتنتهي . كانت دنيا تقف داخل الخيمة حين دحت عليها . خلفها طنجرة بيضاء من الفافون ، ترتدي كنزة سمراء مبقعة بالابيض وتنورة سوداء ووجهها اسمر ضاحكا وعيناها شاعتان بالفرح . ما الذي يضحك دنيا ، وهي تتأرجح بين الضياع والحب والصبا ؟ ؟ قالت لي : خذ لي صورة ، وهي لا تعرف ان هذه الصورة لن تراها مرة اخرى . لماذا طلبت ذلك ؟ لماذا خلدت ابتسامتها الزيتونية امامي ، انا ابن الرطب واليوكالبتوس والتشرد ؟ ؟ انها تريد ان توجد ، ان تثبت حضورها ، في هذه البيداء الممتدة من جبل لبنان الى صحراء السلمية .

ظل بشار يرمقنا بنظرات مريبة . تقدم الوقت نحو منتصف الليل وكان الصيف يفرش طله على زهور الحديقة ويتضوع الهواء الهاب من لبنان برائحة النرجس البلدي والياسمين والخميسة المعرشة على شباك البيت . ياذات القميص المبقع بالدوائر البيض الدالة على البراءة . يا آخر اغنية تنحدر من علياء تراثها المتهاوي كأنه نجمة الصباح . يا انت ، يا سماهر ذات الرموش الشبيهة بأجنحة الفراش .

أحسست بوجود شيء في الهواء لم امسكه . ثمة لسعة خفيفة في قلبي وهي تأتيني مثلما خبرت ذلك سابقا ، كلما عشت امرا غير طبيعي . تبعت بشار الى الغرفة ، وكان هناك غرف عديدة في الطابق الاعلى من بيت سماهر . وددت لو ارى الياسمينة التي تظلل شباكها وحدثتني عنها كثيرا ، مثلما حدثتني عن سهراتها وحيدة تراقب القمر كيف يسبح في السماء ، وتتنشق ضوع الياسمين الذي يملأ الغرفة وسريرها وأشياءها الانثوية .

قالت لي تذكّرني كلما شاهدت القمر . . . . . .

سأتذكرك .

كانت الغرفة واسعة وهناك شباك يطل على خلفية البيت ويمكن

رؤية المطبخ في الاسفل . حدقت الى المطبخ وشاهدت سماهر تجلي الصحون والاواني المتكومة في المجلى . انها لاتراني . لم اقم بأية اشارة لأنت انتباهها خوف ان يسمعني احد . دخنت وتطلعت في المدينة الصغيرة الهاجعة تحت بصري . الجبال البعيدة مثل شبح ضخم ترقص في ضوء القمر . انها ظلال احراش ومغاور ومهربين . حقول تفاح تخيلتها ندية ورمان وغجر يبيتون ليلتهم على ضفاف العاصي . الزيز يعزف في الهدوء والثعلب يعوي من بين طيات الظلام . اضواء تأتي وترحل وشعرت بالتعب من يوم الغجر . قررت الاستلقاء في السرير . لم استطع النوم . سماهر ستأتي لتطمئن علي . جاءني هذا الهاجس بالحاح . او ربما ستندس في سريري مثل قطة خائفة . في كل خبطة قدم او حركة خافتة استوفز متنطرا في الظلام اليد التي ستفتح الباب . بدأت اتقلب قلقا ، فالدقائق تمضي والهدوء ينتشر في المدينة ثم في البيت مثل دخان . سمعت خطوات قطة ، ثم خطوات شخص في ممر الطابق الثاني خلتها خطوات سماهر . لم يطل احد . ولم استطع النوم . كانت وجوه الغجر تتابع مرورها في رأسي ، اسمع صوت الرباب يطيل من آهاته ، وعيونا سود تحدق بثبات . لا اريد استرجاع كابوس الغجريتين اللتين تأتيان الى حوش الدار . اخذتني الافكار الى سنوات بعيدة ماضية . والماضي حديقتي الوارفة التي ادخلها دائما دون اذن . اشعر فيها بالراحة ، واغوص في دروبها وغيضاتها ومغاورها .

اسلمت رأسي للنوم . نسيت مجيء سماهر واصوات المطبخ ، وروائح الياسمين المتسللة من النافذة . وفي وقت لااعلمه وانا غارق في النوم ، شعرت باللحاف يرفع ، ويندس جسد في السرير . كنت بين اليقظة والمنام ، سمعت صوت سماهر يهمس في اذني ، هل انت نائم ؟

هل انا في حلم ؟ برودة الجسد احسها واضحة . الانفاس تتدافع . الالتصاق لايمكن الشك به .

كانت سماهر مستثارة جدا . انه الخوف ، السرقة ، سرقة شيء محرم في بيتها ، تحت انظار اخوتها وابيها وامها . توتري اختفى منذ زمن طويل ، وساورني خوف شديد . كيف تجرؤ هذه البنت على المجيء الى فراشي ؟ وماذا لو اكتشف الامر ؟ ستكون فضيحة دون شك . احتضنتني وبدأت توزع قبلها على وجهي وشفتي ، وتنقل يديها على جسدي . من شعرها تفوح رائحة برية تشبه رائحة الحناء . انغمرت معها بعناق مكتوم ، انتهى الزمن ، وغاب الوجود عنا ، ودخلنا في لحظة خلق ، خارجة عن الزمان والمكان . التحام مع المطلق ، وانتماء الى عوالم خارج الارض . كان علي الرجوع في الغد الى دمشق ، لايمكن ان ارافق سماهر كي لايثير ذلك ريبة العائلة . سأعود الى البيت ، الذي شهد نمو علاقتي مع سماهر ، بعد ان ارتبطنا بمشروع العمل ذاك . بدأت احبها قليلا قليلا . فيها شيء غير محدد الملامح ، لم استطع الوصول الى كنهه . شيء شيطاني ، داعر ، مختلط مع طيبة وتمرد ورغبة . العينان ما ان اتطلع فيهما حتى اراها عارية تماما . لقد مر في حياتي هكذا نمط من النساء ، انظر في عينيها فاحسها عارية . امر غريب .

في الصباح كأن شيئا لم يكن بيني وبين سماهر . كانت ترتدي ثوبا مفتوحا عند الصدر ، من النايلون ، الرماني اللون . جلبت القهوة والفطور ، وجلسنا جميعا حول المائدة ، لكنني شعرت بذبذبات غير طبيعية ، وتطلعات مستريبة من الاب والاخوة . كأنهم حدسوا ما حصل البارحة . كيف تنتشر الأسرار في الجو ، حتى لو لم يصرح بها المرء ؟ هل تسري من قلب الى قلب ؟ او ربما الافكار التي تجول في رأسينا تصل الى رؤوس الآخرين ، وهذا ما جعلني استعجل المغادرة . حتى المغارة القديمة لم اطلب رؤيتها مع انني اصررت على ذلك ليلة البارحة . اوصلني بشار الى الطريق العام بسيارته ورسا بيننا صمت عميق . كنا نقطعه بكلمات عابرة عن المزارع المحيطة بالمدينة او حول الغجر .

سألت سماهر ما ان التقيت بها بدمشق حول الموضوع . فهذه اول مرة تندس فيها امرأة في فراشي ، مع انني سمعت كثيرا من القصص ،

اعتبرتها مبالغة ذكورية ، فكيف تواتي الجرأة فتاة ان تتصرف هكذا في بيت اهلها ؟ لماذا لم تفعل ام سعيد ذلك ؟ هي الارملة المجربة ؟ هل انها من جيل آخر غير جيل سماهر ؟ وما اثار عجبي لاحقا رد سماهر حين استعرضت معها احداث تلك الليلة .

قالت ضاحكة : انك تتوهم ، وربما كنت في حلم لذيذ ، فأنا لم ازرك تلك الليلة على الأطلاق!!!!!!

# النهاية

لقد شخت ، انظر الى اصابعي وخطوط راحتي . آه لو استطيع قراءة خطوط الكف لأرى مصيري . لكن اي مصير ؟ لم يعد هناك من شيء يستحق ان يعاش . عشت طويلا ، سواء عبر كوابيسي او اوهامي ، أو في فيما يسمونه بالواقع . لقد عشت زمني بألم وتعب وتشرد ، الم اكن احلم مذ كنت صغيرا بالتحول الى غجري حر لأطير بعيدا عن الحامضية وعن النهر والنخيل ؟ لقد تحقق كل ما حلمت به في القرية . كنت غجريا بحق . ضاجعت نساء . طرت في الفضاء . رأيت مدنا وبلدانا وسمعت لغات وشاهدت عاجا وأقنعة . مات خلي وصاحبي ، حلمي فتى كركوك وسط العاصفة ، وتشابهت الأسماء بين الاصدقاء . نوري الأول ونوري الثاني ، ايهما يسبح اليوم في بركة من التيزاب ؟ ايهما ينتظر انقظاظ الغول في واحد من السجون ؟ سبحت في المحيط واستلقيت على شواطئ البحار . عشت في جزيرة ، وتشردت في مدن صفيح ، وكانت عيناي دائما تحدقان في مجهول ما ، مجهول يعيد الي الطمأنينة . لكن اين انا الآن ؟

هناك محطات بارزة اتذكرها ، بغضها لايعدو ان يكون حوارات ساذجة او كلمات عارضة ، الا انها احتلت حيزا شاسعا في داخلي . هل ما زلت ارقد على التخت الخشبي في الحامضية ، منتظرا وصول الفجر ؟ هل قتلني اولانك المرتزقة غلاظ القلوب ، الذين احاطوا بنا ذات يوم ، ثم تركوا جثتي بين الجبال ؟ وأين سماهر ذات العينين الراقصتين كالفراش ؟ وكيف تتذكرني ؟ هل نسيتني ؟

كل شيء جائز . في لعبة الحياة ذات الظلال ، المتقافزة بين الوهم والحلم ، بين الواقع والخيال ، مثل اوراق برديّ في ليلة عاصفة . سوى ان الشيء الوحيد المؤكد في رأسي ، بعد تلك الرحلة العجيبة ، انني لاازال في قريتي الحامضية ، او لا تزال هي تحتل مساحة شاسعة مني . تلك القرية الصغيرة المصنوعة من نخيل وشوك وقمح واطفال ، سيسرقهم الفجر حتى لو حصل ذلك في الأحلام .

القرية المشغولة بالحروب والخيانات ، بالانتظارات والخيبات ، مع قبضة ضئيلة من الأمل ، انها تدور ، وتدور ، سابحة حول الشمس كل يوم ، لكن من دون ضايع الجريان .

تقارب الرواية هموم شاب عراقي في الثمانينات من القرن العشرين، وهو يفقد كل أمل في المضي في الحياة. فثمة الحرب الطاحنة التي تدور على الجبهة الشرقية، وثمة الضغط الاجتماعي والسياسي الذي كان يحطم في الفرد أعتى أسواره، فيأتي حلم الخروج من العراق أشبه بالكابوس، بحثاً عن فردوس مفقود وحياة لاتسبح في بحر من القتل والدمار والاضطهاد. لكن حلم الخروج سرعان ما يتحقق، ليقذف بضايع الجريان ، بطل الرواية، إلى متاهة من التشرد والضياع واللاهدفية. من أوربا إلى العراق مرة أخرى، إلى تلك القرية المسماة الحامضية، الراقدة على الفرات. رجوع... لكنه وهم في الرأس فقط.

ISBN:2-84305-513-X
9 782843 055133